M O H A M E D R A F I E H



محمّد رفيع

دَيْر وَرَق

محمد رفيع

دير ورق

حديث الراوي..

قبل عامين، تقريباً، إنشغل الناس بالاختلاف حول تحديد بداية الألفية الثالثة ونهاية الألفية الثانية. حينذاك، كُنتُ مشغولاً ببعض الأساطير المحلية، الخاصة بالقرية التي وُلدتُ فيها والقرى المجاورة لها.

هل قلتُ: «القرية التي ولدت فيها»؟ لماذا لم أقل «قريتي»؟! أعتذر عن هذا. نعم، إنها قريتي التي ولدت فيها. وحتى لو كان لذلك مغزى، كان يجب أن لا أستعجل الأشياء بادئاً من هنا..

كان يمكن أن أبدأ من أسماء الأمكنة في قريتي، وكلها تحمل معاني ودلالات اسطورية غامضة. خُذْ مثلاً: «أُم الخشب»، «عْراق ضاحي»، «وادي الخوري»، وغيرها الكثير الكثير من أسماء الصخور والوديان والتلال والشِعاب.

في الحقيقة، هذا ما كُنت أنوي فِعْله منذ سنوات طويلة، وقد فعلتُ. فلهذه الأماكن الثلاثة ذكريات خاصة عندي وعند كل أبناء جيلي من أبناء قريتي، وكلها مشحونة بالخوف والقلق وتحذيرات الكبار. ليس هذا فحسب، فهي مسرح لمعظم الحكايات والقصص، التي يجري تداولها في القرية.

فـ «عْراق ضاحي» هو المكان الذي وُلدت فيه، وهو المكان الذي يقيم فيه «المراشدة»، عائلتي أو عشيرتي. ربما كان يجب أن أقول: «هذا الفخذ من المراشدة، الذين جاؤوا الى قرية عنْجرة..»، نعم «عنجرة». هي قريتي التي ولدت فيها. ويُقال أن هذا القسم من المراشدة (جاؤوا) قبل أكثر من قرنٍ وربع القرن، حيث «أخوالهم» في

عنجرة. هذا ما أخبرتني به أُمي منذ زمنٍ طويل. ولهذا، فإنّ كل المراشدة في عنجرة يخاطبون أقاربهم هناك حتى اليوم بـ «خالي..»، صغيراً كان أم كبيراً.

«خالي جِرْيس..»، كان أكبر أخوال المراشدة الباقين سناً، توفي قبل ربع قرن تقريباً. ما زلتُ أذكره، وله أفضال كثيرة عليّ فيما أنا بصدده. وبالمناسبة، فإن لفظة «خالي..» تُلفظ في قريتنا والقرى المجاورة بطريقة خاصة. فحرف «الخاء..» يُلْفظ مفخّماً، حيث يبقى الفمُ مفتوحاً حتى انتهاء خروج الحرف. أما حرف «اللام..»، فيُلْفظ قلقاً، عريضاً، حيث يلتصق اللسان بسقف الحلق، فيخرج الحرف كما يلفظه الاوروبيون.

«خالي جريس..»، هو من أخبرني: «.. بأن المراشدة هُم من أطلق إسم «عْراق ضاحي» على المنطقة التي يسكنون فيها، حين جاؤوا الى عنجرة قبل أكثر من قرن، بعد حريق قريتهم «دَيْر ورق...»!.

و«وادي الخوري» هو وادٍ وعر، شديد الانحدار، يفصل قريتنا عن «عجلون..» بأشجارٍ كثيفةٍ داكنة. ويستمر هذا الوادي في إنحداره غرباً حتى «نهر الاردن»، أو «مخاضة الشريعة»، كما كان يسمى قديماً..

أما «أُم الخشب»، فهي أعلى قمة جبلية شرقي قريتنا. منها، من هذه القمة يُدخل الى البلدة من الشرق. وفي أيام الصيف، كُنّا نرى قمة «جبل الشيخ» في لبنان، المكسوّة دائماً بالثلج. الغريب في «أم الخشب»، الآن، انّ نصفها الشرقي تغطيه غابات حرجية كثيفة، أما قسمها الغربي، فهو قمة كبيرة، جرداء، خالية من أية شجرة..

«وادي الخوري»، و «أم الخشب»، كانت أكثر الأمكنة التي يُحذّرنا الكبار من الاقتراب منها. وعادة ما كانت تترافق هذه التحذيرات بالكثير من قصص وحكايا التخويف والرهبة..

كما قُلْتُ، قضيت أعواماً طويلة في البحث عن الجذور الحقيقية للأساطير ولأسماء الامكنة في قريتي. كُنْتُ قد عزمت، قبل عامين تقريباً، على البدء بهـــذه

الحكايات الثلاث: عْراق ضاحي، ووادي الخوري، وأم الخشب، لولا حادثتين حدثتا معي في نفسه الوقت تقريباً. أو للدقة في الاسبوع الثاني من شهر شباط..!

الحادثة الاولى هي عثوري على مخطوط قديم بخط اليد، كتبه معلّمٌ متديّن، عايش أحداثاً حقيقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين. اختار كاتب المخطوط أن يُبقي اسمه سراً، حيث وقّعه هكذا: «لأحد المرتدين للوحدة الكاثوليكية – س.س.ن/ حُرر في شهر أيار سنة 5291». ورغم أن هناك اضافات على الكتاب، توضّح اسم صاحبه الحقيقي، إلا أنني سأُبقي اسمه كما أراد: (س.س.ن). أما اسم الكتاب المخطوط، فهو: «كتاب لمحة العيون في حصن عجلون».

في شمالي الأردن، وشماليه الغربي، حيث تقع قريتي عنجرة، وكذلك «الحصن»، وهي قرية صاحب كتاب «لمحة العيون..»، ينتشر بين الناس بشكل غريب إسْما: عُقْلةُ، وعقيل، وأسماء اخرى مشتقّة منهما. وأذكر أنه، منذ وقت مبكر من عمري، لفت انتباهي هذان الاسمان الغريبان. وحين كبرت، كبر استغرابي، حين لاحظت أن هذين الاسمين ينتشران بشكل خاص في منطقة شمالي البلاد. ورغم تندّرنا، حين كُنّا صغاراً، على هذه الأسماء، لَما فيها من جفاف وخشونة وبداوة، إلا أنها ظلّت تشغل بالي لاحقاً، لورود هذه الأسماء في معظم الحكايا الاسطورية والخرافية، التي كانت تتردد على ألْسنة عجائز القرية، وفي مجالس كبار السنّ..

أما الحادثة الثانية، فهي إنجاب زوجة أخي طفلاً ذكراً غاية في الجمال، وإصرارها بشكل غريب، على تسميته بـ «عُقْلَة!»، قبل لحظة تعميده. وعبثاً، حاول الجميع، وأنا منهم، وكلّ لأسبابه الخاصة، ثنْيها عن هذا الاسم، أو تعديله بما يناسب العصر، أو استبداله بأحد مشْتقاتهِ. والغريبُ، أنها هي نفسها لم يكن لديها سبب واضح ومحدد لإصرارها على هذا الاسم: عُقْلة..

كان هذا في (9 شباط 1002)، أي في اليوم الأربعين من القرن الحادي والعشرين..

في كتاب «لمحة العيون..»، الذي يتكون من خمسٍ وثمانين صفحة مخطوطة، وكغيره من كُتب الرهبان ورجال الدين، التي كُتبت في تلك الفترة، إنحيازٌ واضحٌ من كاتبها لإرسالية التبشير اللاتينية. وهو كتاب مرفوعٌ الى «السيد الجليل والراعي النبيل، البطريرك لويس برلسينا، الجزيل الغبطة...»، لطباعته. وهو كتاب غريب على نحو ما. إذْ يبدأ بأحْرفٍ غامضة، هكذا: «ي م ي»، ويستمر بلهجة عامية تعود الى زمانها، سارداً تاريخ إرسالية التبشير اللاتينية، في بلدة الحصن وعجلون وجوارهما، لفترة تقارب خمسين عاماً، تبدأ أحداثُها، التي عاصرها، منذ العام 3881م. وككُتّاب ذلك الزمان، يتواضع الكاتب لقارئيهِ، قائلاً في المقدمة: «... وإنني استغفر مطالعيه، صرف النظر، عن ما فيه من تعقيد الجمل، وركيك العبارات، كوني من العاجزين، وقاصري الباع بمثل هذه الامور...».

كان يمكن لهذا المخطوط أن يُطوى في مكتبتي، لأزمان أُخرى قادمة، لولا هذه الفقرة، التي قرأتها في الصفحة الثانية والسبعين: «... ويوماً ما، كان يوم أحدِ المُرفّع، الواقع في 9 شباط سنة 1091م، من تلك السنة، فكان قُدّاس بعجلـــــون. وركب

(الخوري يوسف غاريللو) فرساً وتوجّه لعنجـــرة. وكان دائماً، يوم الأحد، يُقدّس قُدّاسين، (أحدهما) بعجلـــون والثـــاني بعنجرة، ولمّا انتهى الى نصف الطريق، بمنعـــطف وادٍ، وكـــان (عُقْلا) التاعس هنـــــاك، في وســـط غابة من الأحْـــراش، فوثـــب ماسكاً بندقيته، فجفلت فرس (الخوري الى الوراء)، وعند ذلك، ضربه ذلك الطلْق الناري، وفرّ هارباً. أما الخوري (غاريللو)، فقد أسلم بدقيقة الحال روحه الى خالقه...».

حدث هذا، كما يقول صاحب كتاب «لمحة العيون...»، بعد أربعين يوماً على انتهاء القرن التاسع عشر، وبعد أربعين يوماً على بداية القرن العشرين.

بعد هذه الفقرة، صارت الاشياء، بالنسبة لي، تعني غير ما كانت تعنيه سابقاً. وكان عليّ، أن أُعيد قراءة المخطوط مراتٍ ومراتٍ بطريقة أُخرى.

كان عليّ أيضاً أن أُعيد قراءة وترتيب كل الوثائق والمخطوطات، التي حصلت عليها طوال السنوات الماضية، والتي ستكون مراجعي في هذا الكتاب، وسأشير اليها بين حين وآخر، وعلى رأسها: «يوميات البارون سيمونس»، التي أطلعني عليها أحد أصدقائي في بيروت، قبل خمسة وعشرين عاماً، بعد أن أبلغني أنه لا يمكن نشْر هذه اليوميات الآن، ولا حتى بعد أربعين عاماً قادمة...!.

أما المراجع الأُخرى، التي سالجأ اليها في هذا الكتاب، فهي أوراق الخوري عسّاف، وهو خوري المراشدة في قريتهم «دَيْر ورق»، قبل أن يرحلوا منها، وقبل أن يغادرها هو مع «فخْذ المراشدة»، الذين هاجروا الى «السلط»، حيث أخوالهم. وقد أعطاني هذه الأوراق حفيد الخوري عسّاف، الذي يعمل طبيباً في الولايات المتحدة الامريكية،

بحكم معرفته بإهتمامي، وقرابته البعيدة مني. هذا، بالاضافة الى كل ما سجلته، في حينه، في دفاتري مما كان يرويه «خالي جريس..»، أو خال المراشدة في عنجرة.

رغم إقتناعي بمصادفة ما قرأتُه في كتاب «لمحة العيون..»، عن (9 شباط)، وعن ولادة ابن أخي، وإصْرار أمِّهِ على تسميته «عُقْلَة»، فإن هذه المصادفة ساعدتني على تحديد شكل البداية لهذا الكتاب.

وحين بدَا لي أنه صار بمقدوري أن أبدأ، لأروي حكاية «عُقْلَة السعادة»، و «عْراق ضاحي»، و «أُم الخشب»، و «وادي الخوري»، عثرْتُ على وثائق جديدة غيّرت شكل البداية. كانت الوثائق الجديدة تخصّ شخصية حقيقية أُخرى، اسمها: «عَقِيل». وعقيل شخصية عاشت في المكان نفسه، والفترة الزمنية نفسها، التي عاش فيها عُقْلَة السعادة، إلا أنهما شخصيتان مختلفتان تماماً. وعلى الرغم من الاختلاف والتناقض، بين هاتين الشخصيتين، إلا أنهما توحّدتا في نفس المصير: الاختفاء..! كان عليّ عندها أن أبدأ من مكان آخر، غير عنجرة، قريتي وقرية اخوال عُقْلَة، وغير الحُصُن بلدة عقيل. وبدأتُ من هناك، من «دَيْر وَرَق»، قرية الثأر والحريق والرحيل..

القســـم الأول

«.. بقدْر ما في هذا الشرق من الجنون، فهو غارق في الغموض. وهو غموض خطرٌ، ومخيفٌ أحياناً، إلا أنه أكثر إغراءً بالاكتشاف..

وعلى إخواننا، المبشّرين بالايمان، في هذه المنطقة من الشرق، أن يعرفوا أن مهمتهم صعبة، وقاسية، الى درجة تقارب الصعوبات التي واجهها رُسُل الربّ الأوائل..

وعليهم أن يدركوا أيضاً، أن ما يبدو من سلوك الناس هنا، للوهلة الاولى، من تخلّفٍ وبدائية، أنه، في الحقيقة، ليس كذلك تماماً. وللدقة، فهو على نحو ما، فهْم مختلف للحياة، لم نعرفه أو نألفه من قبل، أو قُلْ طريقة اخرى لمعرفة الربّ والحق..

ليرحمنا الربّ، وليغفر لهذا الشرق، جنونه وجُرْأته...»

يوميات وأوراق

البارون ميخائيل سيمونس

7 تشرين ثاني 1872

إنّهم المراشدة..

قد يكونون بنظر غيرهم حذرين وقليلي الكلام، إلا أنهم ما إن تأتي سيرةُ المطر، والأنواء، والمواسم، حتى يتخلّوا عن هذا الحذر والصمت. والغريب، أنّ كلامهم عن المطر، والذي يتفتّح فيهم أنْفاساً، كتفتّح مسامات الجلْد بعد اغتسال الأجساد، لا يبدأ إلا بالحزن، أو ربما بغناءٍ حزينٍ أحياناً. لا شيء في الدنيا يُغْري المراشدة كحديث المطر والحزن.

أتعلمون «أيَّ حُزنٍ يبعثُ المطر»؟!

قد تهْمدُ النفوس، وتَنْكسِرُ، ثم تسقطُ في شقوق الروح، كشظايا مشروخةٍ من الوجع المُدبب، فتعْلق في جُدْرانها، وما انْ يحرّك الهواءُ وجعاً من هذه الشظايا، حتى تدْمى النفوس، بما تجرّح من حواف الروح وجُدْرانها. عندها، تنْفلتُ كُثْبان الحزْنِ في المراشدة، رمالاً جافّةً، تذْروها الريحُ على أجساد محروقة..

أما المطر، فما إن ينبعث هذا الحزن، الذي تكاثف فيهم، كغمامٍ أصْعدته الرمال من الأجساد المحروقة، حتى يفيض، وتدْمعَ به السماء نثّاً على ما تفتّح

من شقوقٍ في الناس والأرض والكائنات..!

واذا حضر «بُونا عسّاف» واحداً من هذه المجالس، فإن حديث المطر يزداد حزْناً، ويتحوّل من المطر الى الورد الى الحب، كخليطٍ عجيبٍ من الماء المقدّس، تتبلّلُ به نفوس السامعين، فتغرق في المطر والحزْن معاً.

والخوري عساف، وقبْله أبوه «الخوري مِزْهر»، هو بالنسبة إلى المراشدة «ونيسٌ» لضمائرهم، وبالذات حين يتأخّر الغيث، وساند لنفوسهم حين تنكسر. ويقول المسنون من المراشدة، أن الخوري مزهر، الذي كان خوري المراشدة، أيام حملة ابراهيم باشا المصري، التي اجتاحت حوران كلها وجنوبيها وما جاورها، حينذاك، وحين قُتل عدد كبيرٌ من رجال المراشدة، اثناء مقاومتهم لعسكر المصريين، فإن «بُونا مِزْهر» هو من أستطاع أن يُلملم شتات أرواح المراشدة، ويُبْقي على استقرارهم في «دير ورق»، بعد أنْ اثخنتهم بالجراح حملة باشا مصر الرهيبة.

واذا كان رجال المراشدة يتشابهون في الكثير من ملامحهم الجسدية، فإن الخوري عساف يزيد عنهم بلحيته السوداء الكثيفة والمجعّدة. ورجال المراشدة، غالباً، طوال القامة ونُحفاء، كأنهم خيلٌ ضامرة. أما وجوههم، فيغلب عليها الإستطالة والامتلاء قليلاً، بما لا يجعل عظام الوجوه بارزة بشكل منفّر. ورغم هذا، فإن عظام الوجه عند المراشدة تبقى ملحوظة من تحت الجلد، وهو ما يخفي بروز باقي ملامح الوجه الحادة، كالشفاه الرقيقه، والانوف الحادة غير المنبسطة. وربما هذا ما يجعل التمييز بين رجال المراشدة صعباً على الغرباء، إضافة الى تشابه ألبستهم، وحواجبهم ذات الشعر الكثيف والطويل، بما يجعلها كأنها مظلات للوجوه.

يختلف الخوري عساف، عن معظم رجال المراشدة، ايضاً، بلباسه الازرق

الداكن، وبشرته المائلة الى السمرة قليلاً، في حين تميل بشرة معظم المراشدة الى البياض، الذي لوحته الشمس، عند الرجال، ببقعٌ داكنة في الوجنات. ولـ «بُونا عساف» شامة سوداء، أسفل عينه اليمنى، تبدو من بعيد كأنها حبّة حمّصٍ محروقه، وحين يغرق في الصلاة والدعاء، ويُغْمض عينيه، فإن الشامة تخفي جزءاً من عينه اليمنى.

حين يحضر الخوري عساف واحداً من أحاديث المطر، أو مجلساً لتجارٍ غرباء نزلوا في «خان الدير» الشرقي، بعد أن داهمهم الظلام، فإنه يصمت، لإتاحة الفرصة لمن هم أكثر رغبة في بثّ أحزانهم المخلوطة بالمطر. وحين يتشقق الحديث، ويهرب من المطر والحزن، بما يؤدي الى صمت رجال المراشدة وملل الضيوف، فإنه يُعيد الامساك بالحديث من جديد، ليتحول بعدها حديث المطر الى ما يُشْبه الشعر والغناء الحزين، فيصمت الرجال، ويأتي صوت الخوري كأنه خارج من رمالٍ جافة:

«يا لَغيْثٍ نبتغيـــــــه   بعيون دامِعـــــــــــهْ
يا لَوَرْدٍ نجتنيـــــــــــه   بقلوب خاشعـــــــــهْ
أمَةُ الربِّ الحبيبــــــهْ   اذكري تلك العُهُـــودْ
من سَمَا اللهِ العجيبهْ   أنْزِلي غيث الورودْ»

ثم يصمت، ليرى أثر كلامه على السامعين، وحين يُلاحظ أن العيون اتّسعتْ قليلاً، في رغبة للمزيد، فإن صوته يعلو، ويزداد ضغطاً على مخارج الحروف:

«واذا قطْرُ الربيــــــع   بَلّ أكْمامَ الزُّهـــورْ
َرشاشٍ كدموعــــــي   فارتوتْ منها ثُغور
ْذَكَرتْ نفسي الكئيبة   ذلك الوعدَ الوَدُودْ»

وبعد ذلك، إنْ شعر أن نفوس السامعين قد أصبحت معلقةً بكلماته وصوته، فإنه يغيّر اللحن وايقاع الكلمات، ويخرج صوته رخيماً كأنه دعاء:

«أنْزليه من سَمَـــــــــــاكِ فهــــــــــو وردٌ للنفوسْ

ظللّيه بحــــــــــــــماكِ مِنْ أذى حَرّ الشمـــوسْ

واجعليني يا حبيبـــــــــهْ مَعْكِ في روض الخُلُـــودْ

مِنْ سما الله العجيبـــــــهْ مُنْزِلاً غيثَ الــــــورُودْ»

وحين يصل «بُونا عساف» الى هذه المرحلة من حديث المطر، من دون أن يشعر بملل السامعين، فإنه يكون قد استنْفدَ كل ما كان يريد قوله عن المطر في تلك الليلة.

أما الشيخ مرشود، فعادة ما يستمع الى الخوري عساف وهو مطْرقٌ، وعيناه تحدّقان إلى الارض في موضع واحد. واذا كان الحديث ذا شجون، ولم ينغّصه أحدٌ، من المراشدة أو الضيوف، بكلام سفيه، فإنه ينظر الى الخوري عساف، وتضيق عيناه، ثم تختفي شفتاه الرقيقتان اسفل شواربه الكثيفة، في حركة يعرف منها الخوري أن الشيخ يريد أن يستمع الى نشيد خاصٍ وذي مغزى. وهو نشيد يحفظه المراشدة، جميعاً، وحتى صغارهم فانهم يرددونه في ألعابهم في طرقات دير ورق وحاراتها. والحقيقة، أنه نشيد يعود الى «الخوري مِزْهر»، الذي قاله في شُهداء المراشدة، الذين قُتلوا في حمْلة ابراهيم باشا. حينها، يعتدل الخوري عساف، ويستقيم جذعه، ويبدأ بالانشاد كأنه في حضرة مقدّسة، وعيناه مفتوحتان بشكل كامل، حتى أن شامة عينه اليمنى تختفي احياناً ما بين جفنه ووجنته:

«ما أجَلّ الشهداء غادروا دارَ العَنَاءْ

وغَدَت أرواحُهـــــــــم		بين سكّانِ السماءْ

لم يبالوا بالـــــعذابْ		واستهانوا بالذئابْ

واستخفّوا بالحــــراب		فـــي ميادين البلاءْ»

ثم يصمت الخوري، وينظر الى الشيخ مرشود، فتحثّه عيناه على الاستمرار، فيكمل:

«حسْبهمْ ربُّ العبـــــادْ		مِنْ نصيرٍ في الجهـــــادْ

فبهِ نالوا المــــــرادْ		وجــــــزاءَ البُســـــلاءْ

كيف يخشونَ الاســودْ		ويهابــــــــونَ القيودْ

ولهمْ ربُّ الجنــــودْ		سَنَدٌ وقْــــــت الشقاءْ»

عندها، يكون حديث الحزن والمطر قد وصل الى آخره، فلا حديث بعد هذا، ولا حزن، وهو ما يعبّر عنه الشيخ مرشود بوضوح، إذْ يحملُ عباءته، ويلقيها بحركةٍ سريعة على كتفه، ثم يخرج مسرعاً، من دون أن ينْبس بحرف واحدٍ، وكأنّه ذاهبٌ الى امرٍ داهمه على عَجَل.

واذا كان الشيخ مرشود يشْعر بحنين خاص الى هذا النشيد، الذي صار يُردد عند المراشدة كغناء أحياناً، فان للشيخ طبيعة ومزاجاً يختلـــف بهما عن الكثير من رجال المراشـــدة. فملامح الشيـــخ، دائماً، تبدو جدّية واقرب الى التجهـــّم، وهو الأقل كلاماً بين رجال المراشدة، الذين هم بطبعهم أقرب الى الصمـــت منهم الى الثرثرة. وحين يتكلم الشيخ، فإن كلامـــه، عادةً، يكـــون مختصـــراً ومقتضـــباً، وغالبـــــاً ما يلجأ الى استخــــدام الأمثال والشعر في التعبير عن رأيه وما

يجول في خاطره. أما عيناه الصغيرتان، فلا تبدوان أن لهما علاقة بوجهه، ذي التقاطيع الجادة، فهما دوماً توحيان بالفرح، كما يقول الخوري عساف. وعينا الشيخ مرشود، اللتان تشبهان عيني طفل «مدهوش»، هما ما يفضحان مزاجه عند من يعرفونه. فإذا ضاقت عينا الشيخ فهذا يعني انه حزين، اما اذا اتّسعتا، وصار بالإمكان تمييز لونهما العسلي، فهذا يعني أن الشيخ في مزاج رائق. واذا غضب الشيخ، وهو نادر الغضب، فإن جفن عينه اليسرى يرفُّ في حركاتٍ سريعة، تجعل من يشاهده يشعر بالمهابة وشيء من الخوف والترقب لما قد يصدر عن الشيخ من سلوك غير مألوف وهو في حالةٍ كهذه.

لا أحد يعرف، حتى على وجه التقريب، متى استقرّ المراشدة في «دير ورق»، واذا سُئلوا عن هذا، فانهم يعيدونه الى عهد آدم. والحقيقة، أن المراشدة لا يحبون حديثاً كهذا، اذْ إنهم لا يشعرون أنّ علاقتهم بالمكان موضع شكٍ من احد، فكما نبتت هذه الاشجار، التي تملأ سفوح الدير، وتناسلت، يرون أنهم نبتوا في هذا المكان ومعه منذ بدء الخليقة. واذا كانت علاقتهم بالمكان ليست موضع شك، فإن تركيبتهم الاجتماعية وانسابهم، ايضاً واضحة. فهم يتكونون من ثلاثة فروع رئيسية هم: «آل رْشود» ومنهم الشيخ مرشود، و «آل السعادة» ومنهم ضاحي السعادة، و«آل سلطي» ومنهم الخوري عســاف..

هؤلاء اذن هم المراشدة..

وُجِدُوا منذ أن وجدت دير ورق.. والغريب أن فروع المراشدة الثلاثة هذه لا تقوم على أساس أنساب متصلة، من جهة الأباء، كبقية العائلات والعشائر، بل هم يتميزون بينهم بأخوالهم. فآل رْشود يعتبرون أخوالهم في الحصن، وآل السعادة يعتبرون اخوالهم في عنجرة، أما آل سلطي فيعتبرون أخوالهم في السلط. بمعنى آخر، فإنهم، جميعاً،

يعتبرون أنفسهم مراشدة وأقاربَ، وحين يريدون التمايز فإنهم يتمايزون بأخوالهم. وهو تمايز، عادةً، لا يكون إلا من أجل المداعبة، أو البحث عن خصال الأبناء، التي هي في نظرهم «ثُلْثينْ الولدْ لخاله».

واذا كان المراشدة يرون أنفسهم بهذه البساطة، ويعتدّون بأنفسهم من دون افتعالٍ أو تكلّف، فإنهم بنظر الاخرين شيء آخر تماماً. فأهالي القرى الغربية لدير ورق، بعائلاتها وعشائرها، وكذلك عشائر العربان، الذين تقع مضاربهم الى الشرق منهم، كلهم يرون في المراشدة وقريتهم، أشياء غير عادية، أو على الأقل غير مألوفة، في هذا المحيط الذي يقيمون فيه. فقرية دير ورق، تبدو كلسان طويل من الخصب يمتدّ الى الشرق، في محيط من مضارب العُربان الرحّل. أما من الغرب، فهي بعيدة عن كل القرى الغربية، التي تربطها بها علاقات قرابة ومصالح. ولعل الأكثر غرابة، وهو ما يراه العابرون لدير ورق، من تجار، أو زوّار، وعابري سبيل، هو كيف استطاعت هذه القرية البقاء والصمود في مكانها، على الرغم من الخضّات والحملات العسكرية، التي اجتاحت المنطقة كلها، طول عشرات السنين الماضية.

لا يتوقف شعور القادمين، الى قرية دير ورق، لأول مرة، عند الاستغراب. بل يتعداه عند بعضهم الى ما يشبه الحسد، خصوصاً التجار، وبالذات حين يلحظ أحدهم خصوبة الأرض، ووفْرة المياه. أما اذا رأى واحدٌ من هؤلاء كهفاً، أو بئراً من الأبار، وهي كثيرة، التي يخزّن فيها المراشدة الحنطة والحبوب وباقي المحاصيل الاخرى، فإن الغيرة والحسد يسيلان من عيني الرجل، عندها ينتبه مرافقه من المراشدة إلى أنه سمح للغريب بالاقتراب اكثر مما يجب من أسرار دير ورق، فيسارع الى انهاء الجدل اذا كان ينوي بيع أو مقايضة شيء مع هذا التاجر.

والحقيقة، أن الدير والمراشدة لهم اسرار كثيرة، تمتد من محاصيلهم

واماكن تخزينها، وتصل الى عهودهم وتحالفاتهم مع العربان. وعلى الرغم مما يبدو للآخرين أو يقدّرونه، فإن المراشدة ليسوا أثرياء، وهم ليسوا فقراء أيضاً. فأحوالهم، وطريقة إدارتهم لحياتهم، تجعلهم، تقريباً، في حالة وسط، ويمكن أن يقال أن «عيشتهم رضية». فأراضيهم الغربية والشرقية، التي يزرعونها حنطة وشعيراً، هي أراضٍ مشاع، وتتم فلاحتها بطريقة «المرابعة». أما كرومهم الداخلية، على السفح الشرقي للوادي، من العنب والرمان والزيتون والحمضيات، فهي أملاك للعائلات، كلٌ على حسب كرومه. ولعل أشهر ما ينتجه المراشدة هو تخمير النبيذ، الذي يحمل شهرة واسعة في الجوار كلّهِ، بجودته وتعتيقه.

واذا كانت سفوح الدير الشرقية مزروعة بالأشجار المثمرة، فإن كل بيوت المراشدة، باستثناء بعض البيوت المتفرقة، تقع على السفح الغربي للوادي. وفي اسفل السفح الشرقي، وقرب مدخل القرية من الشرق، يقع خان البلدة، الذي يقيم فيه التجار والغرباء وعابرو السبيل، وفيه يجري تبادل البضائع وشراؤها، بينهم وبين أهل الدير، وبجواره يقع «الياخور»، الذي تربط فيه حيوانات نازلي الخان. وفي الطرف الشمالي للقرية، هناك طريق ترابي ضيق، يسمى «طريق الجبّانة»، وهو المؤدي الى المقبرة، التي تلاصق الاشجار الحرجية، قرب السفح الشمالي. ومقابل هذه الطريق هناك طريق العين، وهي المؤدية الى «عين علْيا». أما الطرقات، بين البيوت في السفح الغربي، فهي متوسطة، وتتسع لحركة الجمال والخيول والحمير والبغال، لنقل المحاصيل وتخزينها في كهوف

ومغارات الدير الكثيرة، ومعظمها ملاصق لبيوت المراشدة، أو للدقة فإن هذه البيوت بنيت بالقرب منها أو فوقها.

في الصباح، وبعد أن يملأ ضياءُ الشمس فضاء الدير، فإن اكثر ما يلفت

الانتباه هو مشهد السفح الغربي، الذي تتجمع فيه بيوت المراشدة. في هذا الوقت من النهار، تتصاعد في الافق أعمدة الدخان، من أفران الطابون والتنور، المنتشرة في «الحواكير» واحواش البيوت، استعداداً لنهار جديد، تبدأ فيه النساء بتحضير الوجبة الرئيسية، وهي عادة، ما تكون من «الكشك». وهو طعام يُطبخ من اللبن والبرغل المجفف. أما اللحم، فإنه لا يؤكل يومياً، بل في مناسبات محددة كالاعياد وحضور الضيوف، أو حين تجتاح الرجال رغبة عارمة في تناول الشواء.

واذا كان الخوري عساف «ونيساً» لضمائر المراشدة، وسانداً لنفوسهم، فإن الجدة «حنّه» هي بئرُ ارواحِهم، وبصيرتهم النافذة على الأنواء، والمواسم، والأقدار. وعلى حافة تلك البئر وجدرانها تحدث الجروح والشقوق، وفي قاعها يتجمع المطر المعجون بالأحزان.

على كتف الطريق الغربية لدير ورق يستند بيت الجدة «حنّه»، كأنه شجرة زيتون رومية. وبالرغم من أن باب بيتها الخشبي العتيق، غالباً، ما يكون مفتوحاً أو نصف مشرع، إلا ان الجدة تحمل دائماً مفتاحه الطويل، معلقاً في عنقها، مع عقودها وخرزاتها وتمائمها. وبالرغم من هذا، فإن المفتاح يبقى متدلياً عن «دناديش» الجدة حنّه، ليصل الى ما بعد فتحة جيب ثوبها الاسود الطويل، الذي تسميه نساء المراشدة «شرْش».

وللجدة حنّه رأي في كل شيء يخص المراشدة، خصوصاً الشؤون العامة، التي تخص الجميع. وعلى الرغم من نحف الجـــدة، وبروز عروقهـــا من تحت الجـــلد، فإن ملامـــح جمالٍ قديم لا تزال باقية على تقاطيع وجههـــا وعينيها المتهـــدلتين. لا أحد يستطيـــع أن يخـــالف رأياً أو شيـــئاً طلبـــته الجـــدة، فالاحتـــرام الـــذي تحظـــى به بين الجميع يقترب عند بعض المراشدة من الخوف. وحين

استشارها الشيخ مرشود، ذات يوم، في زواج «ضاحي السعادة»، وفيمن يخطبون له، قالت الجدة حنّه يومها، بلا تردد:

– «العيوف. ما إلُهْ غير عيوف عنجرة».

وهو ما حدث بالفعل زمانها. حتى ان ضاحي، الذي لم يكن حينها قد رأى «العيوف» بعد، لم يستطع الاعتراض على ما قطعت به الجدة «حنّه»..

قبل أن تنتهي سهول حوران في الجنوب، تنعطف نحو الشرق بسهلٍ ممتدٍ فسيح. وفي نهاية هذا المدى المنبسط، ترتفع الأرض، فجأة، لتصير تلّةً عالية، تشبه سنام جمل عريضٍ وضخم.

هناك، في جوف ذلك الجبل، حفرت الطبيعة والزمان، قرية «دَيْر وَرَق». يمتدُّ هذا التلّ الكبير، الى الشمال والجنوب، ثم يبدأ بالانخفاض تدريجياً، ليلتحم من جديد بالسهول، التي تكمل امتدادها نحو الشرق، بعد أن تكون قد أحاطت بقرية الدير وتلالها، كإحاطة السوار بالمعصم.

لا يخيّل للقادم الى دير ورق، من الغرب، أنّ هنالك حياة في بطن هذا الجبل العالي. وما انْ تصعد الخيلُ أو الجمالُ هذا السفح، عبر طريق متعرّج وطويل، بعد أن قضت ساعات طويلة في السير عبر السهول، ما ان تجتاز صفّ الأشجار الكثيف، حتى تنحدر القرية أمامها، وادياً طويلاً، عريضاً، يعجّ بالناس، والحركة، والمواشي، والمياه..

على مسافة ميل ونصف الميل، تقريباً، تمتدّ، وتترامى أطراف دير ورق

ووديها، شمالاً وجنوباً. وما انْ يُنهي الوادي انحداره الخفيف، حتى يستدير، ويضيق بسفْحيه نحو الشرق، مشكّلاً بوابة أُخرى للقرية، من جهة الصحراء الشرقية.

لم يُقدّر لـ «عُقْلة السعادة»، أن يتحدث عن دير ورق. وإنْ كان قد تحدّث عنها ذات يوم، فإن أحداً لم يسمعه. ولو قُدّر، أو أُتيح له ذلك، لقال كلاماً معجوناً بالحزن والفرح والملح المحروق. كلامٌ، تبدأ الحياة فيه وتنتهي في دير ورق. فلا شيء يستحق العيش إلا فيها وبها، ولا جدارة للموت، ولا مذاق، إلا بها ولها...!.

أما الآخرون، من أهل دير ورق، من عشيرة «المراشدة»، فكلٌ له طريقته في الحديث عنها، وعن أزمنتها، وزمان العيش فيها. وبرغم بعض المبالغة في أحاديث هؤلاء، فإنّ ما هو ثابت، أنّ الزمان والحياة في هذه المنطقة، كانت زمن المراشدة وعقلة السعادة شيئاً، ثم صارت شيئاً آخر تماماً..!.

وللدقة، والى حدٍ كبير، فهم يميزّون بشكل غامض، بين زمن المراشدة ودير ورق، وبين زمن عقلة السعادة. وحين تريد تحديد هذا الزمن الفاصل يبدأ الغموض. تلتوي الكلمات، تغوص في الأحشاء، في رغبة لأن تجفّ في حلوق أصحابها، أو تتلاشى الكلمات، وتُراوغ، لتعني أشياءَ أُخرى، غير ما تعنيه دلالاتها المباشرة..!.

القادمون الى دير ورق لا يأتونها إلا من الشرق أو من الغرب. أما أطرافها الشمالية والجنوبية، فأرضٌ وعرة، وأشجار كثيفة، من الصنوبر والخروّب، ثم يبدأ سنامُ الجبل بالانحدار من الناحيتين، حيث تكثر أشجار الإثْل والبلوط، القصيرة نسبياً، الى أن يتّصل هذا السنام بالسهول الفسيحة من الجهتين.

تبدو فوهة وادي قرية الدير من الشرق، الذي ضاقت أطرافه بشكل كبير،

كأنها فم وحش ضخم. ومن فم الوادي هذا يمكن رؤية السهول الشرقية، التي تمتدّ لمسافات بعيدة الى أن تتصل بالصحراء. أما من الغرب، فإن الطريق الضيّقة، التي تتسلق سفح القرية الغربي، عبر أشجار السنديان، تنتهي بنخلتين كبيرتين، تشكلان بوابة اخرى لقرية الدير.

عند بعض المراشدة، وخصوصاً الخوري عسّاف، فإن دير ورق هي «هبة اللّه»، ورضاه، حتى الآن، على المراشدة. أما الآخرون من المراشدة، على اختلاف أفخاذهم، فهم يرون، أنهم لم يُخْلقوا إلا لهذا المكان، ولولا هذا الوادي، لما كانت هناك حياة، ولا عشيرة المراشدة..

بعض المسنين، يُبْدون إرتياحاً خفيفاً وحذراً، أمام هذا الكلام المنْدفع. ولتخفيف حدّته، يبدأون بالحديث عن البحر، الذي يبعد مسيرة خمسة أيام، تقريباً، نحو الغرب، وعن القرى والبلدات الجميلة، التي تقع على الطريق الى البحر والساحل الكبير.

صحيحٌ، أنّ حديث المسنين هذا يخفّف قليلاً من حماسة الشباب واندفاعهم، غير أنه يُفجّر فيهم رغبات وأحلاماً جامحة نحو السفر. وتبدأ، عندها، الرؤى والاحلام تتصاعد، كأبْخرةٍ حارة، في رؤوس الشباب لأيام طويلة. أما الأمّهات، فإن رحلة القلق والخوف، من رحيل الأبناء وسفرهم، تبدأ، ولا تنتهي إلا بسفر أحدهم نحو الغرب أو الشمال. بعدها، تهدأ حمّى الرحيل، في دير ورق، تماماً، لتعود ثانية من جديد، بحديث عابر للمسنين، أو مع مجيء موسم جفاف مفاجيء. وحين يعود أحد هؤلاء المسافرين، بعد أن يكون قد قضى وقتاً، لا يتجاوز العام، عادة، خارج القرية، وهي غالباً، ما تكون عودة محمّلةً بالفشل والخيبات الكثيرة، إلا أنها تكون ممتلئةً بشحنةٍ من

الإثارة والمغامرة والغموض، حينها، تسري ثانية، في دير ورق وواديها، حُمّى السفر والرحيل والقلق..!

لم يكن رحيل الأبناء، وحْدهُ، هو ما تخشاه دير ورق. فالأتراك، وغزوات العُربان، وتذبذب المواسم، والجراد، والأوبئة، كلها أمور، لا تغيب قط عن بال المسنين، خصوصاً الشيخ مرشود، شيخ المراشدة، وكبيرهم.

واذا كانت حكمة الشيخ مرشود قد جنّبت المراشدة سطوة الحكام الاداريين، وعسكر الأتراك، فإن موقع القرية، المتطرّف، والنائي باتجاه الشرق، ساعد أيضاً على عدم قُدرة الولاة في بسط نفوذهم الدائم عليها، إذْ كانت أقرب الى مضارب العُربان منها الى القرى الجنوبية في حوران. وحين تشاءم المراشدة، بتعيين متصرف جديد لحوران، أُشْتهر بشدته، اكتفى الشيخ مرشود بالقول «لا اتْسِبْ انْهارَكْ، لما يْفوت كُلُّه». وبعد اسبوعين، حين أخبره الخوري عسّاف، أن المتصرف قد غيّر قائم مقام إربد، وزاد عدد الدرك فيها، وأنهم يريدون بسط سيطرة الدولة على عُربان بني عسران، الذين تقع مضاربهم شرقي دير ورق وجنوبيها، ربّتَ الشيخ مرشود على كتف الخوري، وقال:

– وكّل اللّه، يا أبونا «الغُربال الجْديد، إلُهْ شَدّه».

وبالفعل، ما ان جاءت نهاية الموسم، وبدأ «العشّارون» بجمع الضرائب من القرى، حتى وصلت طلائعهم، مبكراً، الى دير ورق، وهو ما لم يحدث منذ سنوات طويلة. فاكتفى الشيخ مرشود بالحفاوة بهم، وتزويدهم بضريبة «العُشْر» وكمية بسيطه من محصول القرية، بعد إخْفاء اكثر من نصف المحصول، في كهوف القرية الرومانية، التي لا يعرفها إلا المراشدة. ولم يمض يومان، على وداع الشيخ مرشود للعشارين والجباة الأتراك، عند بوابة القرية الشرقية، قاصدين تحصيل «ضريبة المواشي» من عُربان بني عسران، حتى جاء ثلاثة فرسان، ومعهم ما أخذه المتسلمون من المال والحنطة والشعير من دير ورق. وحين أُنزلت الأحمال عن الجِمال، اقترب أحد الفرسان من الشيخ مرشود، بعد أن غمزه بعينه، وهمس في أُذنه، بصوت سمعه الخوري عسّاف:

– الشيخ يسلّم عليك، ويقولّك «الله أخذ وْداعْته».

رفع الشيخ مرشود صوته، بشكل قصد أن يكون مسموعاً:

– اللّه يحيّيهم. تِسْلَم يا وليدي. «قول للشيخ: ما ظَنّيت عُمُرْ عوّاد يعيدها»!.

وبالفعل، لم يأت أحد، في الموسم التالي، من هؤلاء الجباة والعشّارين، بعد أن إنْحسر نفوذ متصرف حوران الجديد باتجاه الغرب، حيث القرى الأقرب الى قصبة إربد.

أما غزوات العُربان، فقد تعوّد المراشدة على التكيّف معها منذ أجيال طويلة. إذ تربطهم عهود ومواثيق، منذ عقود، بعدم الاعتداء، مع عربان بني عسران، وهم اكبر العربان وأقواهم في الجوار كله. لم تكن هذه العهود تخصُّ المراشدة وحدهم، بل تشمل أقاربهم في قرى الحصن وعنجرة وعجلون.

وعلى الرغم من أنّ هذه العهود ليست أحْلافاً، إلا أنها كانت كافية لحماية

قرية الدير من أخطار تخشاها كثير من القرى المجاورة. وفي الوقت نفسه، فقد أتاحت هذه العهود للمراشدة أن يعقدوا شكلاً من الاتفاق مع عرب السوادي، وهم خصوم عرب بني عسران، بعدم الاعتداء على أراضيهم.

لم تخلُ هذه العهود من المنغصات والامتحان. فبين الحين والآخر، كانت تتعرض دير ورق الى غارات من اللصوص، وقطاع الطرق، وبعض فروع العُربان، التي تخرج عن قبائلها الكبيرة، لسبب أو لآخــــر. إلا أن فرســـــان المراشدة، كانوا كفيلين برد هذه الشراذم، وتأديبها.

قلّةٌ من رجال المراشدة هم من يعرفون تفاصيل هذه العهود وما يطرأ عليها من تغييرات بين الحين والآخر. ومن هؤلاء الرجال كان ضاحي السعادة واحداً من الذين أطلعهم الشيخ مرشود على تفاصيل هذه العهود، وما يترتب عليها من التزامات. حدث هذا بعد أن نجح ضاحي، مع عدد من الفرسان، بصد إحدى غارات قطاع الطرق، الذين داهموا الدير بشكل مفاجيء.

كانت هذه الغارة واحدة من الاسباب التي قرّبت ضاحي السعادة من الشيخ مرشود. اقترح ضاحي، بعدها، على الشيخ مرشود إيقاف حراس على الجهة الشرقية والغربية لـ «عْراق القرية» الشمالي، بحيث يمكنهم رؤية كل القادمين الى القرية من الغرب أو من الشرق، أعداء كانوا أم أصدقاء.

راقت الفكرة للشيخ مرشود، وبالفعل، كان موقع الحراس يتيح لهم رؤية مديات واسعة تصل حتى اطـــــراف القرى الغربية وحــــــدود الصحراء من الجهة الشرقية. المهم، في هذا كله، أن موقع الحراس كان قريباً من بيت ضاحي، الذي يقع فوق الصخور التي تنبع منها «عين علْيا».

في البداية، لم يألف المراشدة وجود حراس على أطراف القرية، واستشعروا اخطاراً لا يرونها. وبعد أسابيع، أُهملت فكرة الحراس، وبالتدريج لم يعد هناك

وجود لهؤلاء الحراس، وظل وحْدَه بيـــت ضاحي السعادة، يبدو من بعيد، حارساً لعين علْيا.

وفي الحقيقة، فإن «عين علْيا» لم تكن بحاجة الى حراسة، وحتى بيت ضاحي لم يكن هناك بقصد حراستها. إلا أن هاجساً، خفياً، ظل يربط الناس بالخوف على عين القرية الوحيدة، ومصدر الحياة فيها، إذ بدونها يصعب أن تكون الحياة ممكنة هنا. وحين يَسْأل البعض عن سبب هذا الخوف، أو حتى عن سبب تسمية العين بـ «عين علْيا»، فإن الكبار يروون قصصاً كثيرة عن جفاف الينابيع، والخطايا، وغضب الرب. وتضيف بعض الجدّات حكايا عن حروبٍ كان سببها عيون الماء. وهو ما تؤكده الجدة «حنة»، بأن حرباً قديمة حدثت بسبب عين القرية، وبسبب فتاة إسمها «علْيا». وحين تُسْأل الجدة «حنة» عن التفاصيل وبقية الحكاية، فإنها تتنهد وتقول:

«يا هَمّ قلبي كُبُر (حوران)   كُلّهْ مِنْ (علْيا) خلاوّيهْ!»

***

إنتهى الخريف، وتسلل البرد الى أول ليالي كانون...

وفي واحدٍ من مساءات كانون الباردة، أسْرجت «معْصرة دير ورق» قناديلها، إعلاناً بأوان عصر الزيتون. وفي الوقت الذي كان فيه الخوري عساف والشيخ مرشود يقفان عند أول مزراب المعصرة، لحضور أول «عصْرة من خير السنة»، كان «العم توما»، يتفقد أحواض وقنوات ومزاريب المعصرة الحجرية.

وانْساب أول الخير. وتهلّل وجه الشيخ مرشود بِشْراً. ثم مدّ سبابته تحت خيط السائل الاخضر الضارب الى الصفار، فانقطع خيط الزيت الشفّاف عن الانسياب. كان اصبع الشيخ طويلاً، مُعقّلاً، كعِرْق شجرة زيتون دهرية. إنْساح

الزيت على الإصبع، تسلل الى شقوقه وأثلامه المفتوحة، حتى غمره. ثم بدأ زيت المزراب يتحول الى خيط أرفع تحت إصْبع الشيخ، الذي بدا كأرض فتّح العطش شقوقها، فارْتوت من أوّل دفْق الزيت، ولم تتركه إلا بعد أن امتلأت به، ثم تركته ينساب حولها ثانية، خيطاً أخضر رفيعاً، ليصبّ في جُرْن المعصرة العتيق. أما الشيخ مرشود، فحين أحسّ بدفء السائل المُشْتهى أغمض عينيه، وشعر بأن الزيت بدأ يغمر كامل كيانه، ثم بدأ مزراب الزيت يصب دفْقاً، دافئاً، هادئاً في قلب الشيخ.

عبرت هذه اللحظة السريعة وجدان الشيخ مرشود وجسده كأنها حُلمٌ طويل. وهي لحظةٌ لا تمر على الشيخ، عادة، إلا في مواسم الزيتون الوفيرة. إجتاحت الشيخ هذه المشاعر، كلها، وهو يضع إصبعة تحت مزراب الزيت، لتذوقه. وحين أحسّ بالزيت يَدْفُق في قلبه فتح عينيه، ورفع سبابته الى فمه. تغلغل الطعم في حلقه، وصار جزءاً من ريقه، الى أن وصل الى أحشائه، فتهلل وجه الشيخ المعروق استبشاراً، وقال:

– «على بركة الله يا ناس، خير السنة رزْق جْديد، باركها يا بُوْنا».

غمر «بونا عسّاف»، يديه الاثنتين في جرن المعصرة، فتغير لون أصابعه، الرقيقة الناعمة، صارت اقرب الى اللون الأخضر. لم يسمع أحد، أدعية الخوري، وابتهـــالاته الخافتة، على موســـم الزيت لهذا العام. بعد لحظات سحب أبونا عساف، يديه من وعاء الزيت الدافيء، ومسح وجهه بكفّيه، وترك أصابعه، تتسلل الى لحيـــته، الكثة

الطويلة. وبهدوء، ترك اصابعه، التي غمرها الزيت، لتتخلل لحيتـــة، التي ازداد شعرها الابيض هذا العـــام. بدا الخـــوري، بعد أن مســـح الزيت وجهه ولحيته، لامعـــاً، مشرقـــاً، غير انه بدا أيضـــاً، شارد الذهن، حتى انه نســـي أن يتـــذوق الزيـــت، أو أن يملأ الوعاء الخشبي الخاص، للاحتفاظ به لعيد العام الجديد الذي اقترب، والذي يُحتفل بأول أيامه على عين القرية في «صباحية العين».

لم ينتبه الخوري عساف لهذا، إلا حين جاءه صوت «العم توما»، مداعباً:

– «يا بُونا. دَخْلَت الشمس في برج الجدي ولّا بعد؟»

كان دخول الشمس الى برج الجدي يعني عند الخوري عساف أن عيد «صباحية العين»، وأول العام الجديد، قد تبقى لهما عشرون يوماً تماماً. أما عند العّم توما، فإنه يعني ابتداء «نَوْءِ الثُوله»، وأن أوائل «مربعانية الشتاء» قد صارت على الأبواب.

لم ينتظر العم توما إجابة «بونا عساف» على سؤال كان يعرف إجابته. بل سارع الى إحكام إغلاق الوعاء الخشبي، الذي ملأه الخوري بالزيت المبارك بعد انتباهه، ليصار بعدها إلى إرساله، مع احد صانعي المعصرة، إلى بيت الخوري في الصباح، كما هي العادة في كل عام...

* * *

سقطت أوراق الشجر. وابتدأ «أول ليالي السْعُود». وغطّى البنفسج سفوح قرية الدير. أما ما زاد القرية اشراقاً، في هذا الوقت من السنة، فهو أزهار النرجس، التي ظهرت قبل اوانها بكثير، فأضافت على السفوح الخضراء، بهاءً واشراقاً، زاد عن الاعوام الماضية.

البنفسج، والظهور المبكّر للنرجس، غيّر قليلاً من مزاج نساء المراشدة، قبيل «صباحية العين». تفاءلت الصبايا، وخصوصاً الأقل سناً، واللواتي يحملن عادة أحلاماً مغامرة الى «صباحية العين» وأول العام الجديد.

وصل الخوري عساف الى «عين علْيا» قبل الجميع. وجلس، كعادته، في هذا

الوقت من السنة، على «صخرة علْيا»، كما تسميها صبايا القرية. ثم خلع حذاءه، ووضع قدميه العاريتين في حوض العين الواسع، وبدأ يبتهل بصوت خافت. امتلأ المكان، في هذا الوقت الباكر من الصباح، برائحة البخور، ودخل «بُونا عساف» في طور عميق من المناجاة،والرجاء الى الرب، «بحفظ عين الماء من العين الخبيثة، وزيادة غزارتها ونقائها». ولم يفق الخوري من قُدّاسه وابتهالاته إلا على صوت ضحكات الصبايا والنساء، اللواتي جئن للمشاركة في «صباحية العين» وقداسها.

سحب أبونا عساف قدميه من ماء العين البارد، وانتعل حذاءه، ولملم أطراف ثوبه الأزرق، التي بلّلها الماءُ قليلاً. كانت نساء القرية، والصبايا وبعض الصغار، قد حفّوا به وبحوض العين الواسع. بارك الخوري الحضور، وحمل وعاء الزيت الخشبي، الذي ملأه قبل أسابيع من أول «عصْرة زيتون» في قرية الدير. ثم حنى الوعاء على جانبه، فانسكب الزيت الأخضر ببطء في حوض العين الواسع. اختلط الزيت بالماء، ثم بدأ ينفصل الى دوائر متباعدة، باتجاه القناة الخارجة من العين. وألقت النساء على حوض الماء، وفقاعات الزيت، ما أحضرنه من حفْنات الحنطة والشعير والبقوليات. أما الصبايا، فبدأن بنثْر حفنات من الزبيب واللوز والجوز.

وحْدها العيوف، زوجة ضاحي السعادة، ألْقت من أعلى الصخرة، التي تنبع منها العين، «ضُمّة» كبيرة من النرجس والبنفسج. تناثر النرجس، وتبعثر البنفسج، في حوض العين، وعلِقتْ بعض قطرات الزيت على أوراق النرجس، وابتدأ العيد...

كان على «عين علْيا» أن تقنع بهذا الشكر، وأن تستجيب لأماني وأحلام صبايا الدير. وكان على الجان والعفاريت أن تغادر هذا المكان.

أغمضت الصبايا عيونهن، وحلُمن، وتمنين على العين. أما الصبايا الأصغر سناً، فهمسْن للعين بأسرار لا تُقال. وأصغت العين للجميع، وكتمت اسرار الصغيرات، ووعدتْ..!

تراشقت الصبايا بالنرجس والبنفسج المبلول بالماء المقدس، وعاد من حضر «صلاة العين»، من النساء، الى القرية. وبدأت «صباحات الخير» تتناثر بين أهل الدير. أما الصغار، فصاروا يتسابقون بـ «التصبيح» على اقاربهم الكبار، للحصول على عيدياتهم:

– «صباح الخير، صباحيتي عليك»!.

أما الموسم، هذا العام، وكعادته، فلم يبخل على أهل الدير، ولم يرد دعوات الخوري عساف، ولا ابتهالات النساء. فقد كانت الأمطار، في هذا الوقت من السنة، قد أشبعت الأرض، التي تنبع منها «عين علْيا»، فازدادت غزارتها، وصارت أكثر دفقاً وصفاءً..

أما أماني واسرار الصبايا، فظلّت ترحل مع أجسادهن الصغيرة، التي كانت تزداد اكتمالاً وبروزاً، عاماً بعد عام..

في واحد من تلك الصباحات البعيدة، التي يُسميها المراشدة «صباحية العين»...

في ذلك اليوم البعيد، وُلِدَ لضاحي السعادة، مولودٌ ذكرٌ..

كان الخوري عسّاف قد أنْهى قُدّاسه على «عين عليا»، وكانت نساء القرية قد قدّمن شكرهنّ وأدعيتهن على عين القرية، في صباحية العام الجديد. واختفت الشمس خلف التلال الغربية، مُعلنة انتهاء أول أيام العيد.

في هذا الوقت من المساء، كان ضاحي عند الشيخ مرشود في «ليوانه» الشتوي، الذي يُطلّ على كامل السفح الشرقي للقرية. كانت «مضافة» الشيخ مليئة بوجوه القرية ورجالها، حين دخل عدد من الصبية، راكضين، لاهثين، على غير ما هو مألوف. توقف الصبيان عند

باب الليوان، باستثناء واحد منهم، ظل راكضاً، الى أن سقط على وجهه أمام ضاحي والشيخ مرشود، وهو يصرخ:

– البشارة يا عَمْ ضاحي. البشارة يا عَمْ ضاحي. «إجَاك ولد».

منذ خمسة أعوام، وهو ينتظر خبراً كهذا. لم يعد ضاحي يسمع شيئاً. ازداد الطنين في أُذنيه، وبلا وعي، سرح بصره الى الجهة الشمالية، حيث موقع بيته، الذي بالكاد كان يُرى، في هذا الوقت من الغروب، من ليوان الشيخ مرشود

المُشْرف. خُيِّل اليه، أنه رأى شيئاً يلمع، فوق عين علْيا، قرب بيته.

ومضةٌ، ساعةٌ، أيامٌ، مضت على اللحظة التي سمع فيها ضاحي بولادة ابنه الأول؟.. لا أحد يعرف. كان الشيخ مرشود هو الأكثر انفعالاً، فما ان سمع الخبر حتى قفز، بلا وعي، وتناول بارودته العصملية، المعلقة، وصوّب نحو الفضاء، فدوّى صوت البارود، ثم سحب الترباس وأطلق ثانية، ثم سحب الترباس ثالثة وأطلق. حينها، أفاق ضاحي، وامتلأ صدره برائحة البارود...

أول شيء فعله ضاحي، حين أيقظه صوت البارود، هو حمْل الصبي، الذي سقط أرضاً، وأعطاه كل ما كان في جيبه، من النقود، له ولأصحابه. ثم التفت الى الشيخ مرشود.. إلتقت عيونهما، كأنهما كانا على موعدٍ مع هذه الالتفاتة، لا هو حُزْن، ولا هو فرح. شيء كالوهج، لم يهدأ، إلا حين تعانق الرجلان بصمت طويل، لم يقْطعه سوى صوت الخوري عساف:

– «إيشْ نويت، تْسميه يا ضاحي».

لم يفكر في هذا من قبل، غير أن صوت الخوري كان كافياً لإنهاء لحظة العناق، الحارة والغامضة، بين الشيخ وضاحي. ساد صمت عميق، وغريب، قطعه صوت الشيخ

مرشود، بعد أن جلس، ووضع بارودته أمامه، وماسورتها تتجه نحو السماء، ودخان البارود ما يزال يتصاعد منها، وتملأ رائحته المكان وصدور الرجال:

– «اذا كُنْتْ أمون والله...».

قاطعه ضاحي قبل أن يكمل:

– «يا شيخ مرشود، إنْت بتْمون عَ رْقاب رجال، والله ما يسميّه أحد غيرك».

إنفرج وجه الشيخ مرشود، بغبطة مكتومة، وقال بصوت أراد أن يكون عالياً:

– «إسْمعوا يا رْجال. إسْمُه: عُقْلَه. عُقْلَه ضاحي السعادة. وعَشَا المراشدة كلهم، بُكْرة، عِنْدي».

بدت وجوه الرجال واجمة، ولا تحمل إلا التعجب والاستغراب، فالاسم لم يكن مألوفاً، وبدا بلا معنى خاص، إلا أن أحداً لم يُعلّق بشيء. أما ضاحي، فما ان نطق الشيخ بالاسم حتى ملأ عينيه بريق غريب، وقال:

– «وْهو عِنْد قولك يا شيخ مرشود. إسْمه: عُقْلَه. والعُقْلَه من العقل. وعْقال الرجال من عْقولها. والرجل ما ينْعقل غير من لسانه وراسه».

فوجيء الرجال بهذا التفسير، غير أن الكلام بدا معقولاً للكثيرين. وانصرف الحديث الى شكل وليمة الغد، التي أُتفق على أن تكون شواءً، وعلى «عين علْيا»، قرب بيت ضاحي، وذلك كي «يشمّ الوليد الصغير، عُقْلَه، رائحة الشواء»، منذ الآن، كي لا يقنع في حياته بشيء دونها، كما قال الخوري عسّاف، ممازحاً الشيخ مرشود..

وفي اليوم التالي، إشتعل السفح، قرب بيت ضاحي، بنيران أضاءت وادي الدير كله. وامتلأت بطون الرجال بالشواء، ورقصوا في ليلة بدت وكأنها عرس حقيقي، وخصوصاً حين جاد ضاحي بكميات كبيرة من خوابي نبيذ الدير المعتق. أما الوليد الصغير

عُقْلَه، الذي اريد له أن يشتّم رائحة الشواء، فقد تشمم معها وقبلها رائحة النار، التي ملأ لهيبها ودخانها فضاء القرية...

تعثّرت فرس «بونا عساف»، إلا أنها لم تسقط. فسارع اليه ضاحي، الذي كان على مقربة منه، الى أن تحاذت فرساهما:

– «خير يا بُونا، إيشْ بَلا الفرس؟».

رد الخوري، بعد أن عدّل جلسته، وأمسك بلجام الفرس، الذي تراخى قليلاً في يده:

– «خير الحمد للّه. يمكن صابتني غَفْوه».

إلْتفت الشيخ مرشود نحو الخوري وضاحي، وكانت فرسه متقدمة عنهما، ورفع صوته ممازحاً:

– «الدار غبْرا، والمزار بْعيد».

وتابع الشيخ، بعد أن لوى عنق فرسه، عائداً اليهما:

– «العُمُر إلُه حُكْمُه، يا بونا. والسلط ما هي قريبة».

وبالفعل كانت الطريق طويلة ووعرة. ولولا «المرْسال المُستعجل»، الذي

وصلهم من أخوالهم في السلط، لما تجشموا عناء هذا السفر الآن. ولأن «نَفَس الرْجال يحي الرْجال»، فقد كان عليهم أن يمرّوا، في طريقهم الى السلط، على اخوال المراشدة في الحصن وفي عنجرة. وهو ما جعل الطريق أطول، وأكثر مشقة، على الخوري عساف.

لم تكن هذه هي المرة الاولى التي يتدخل فيها المراشدة لنُصْرة أقاربهم، والتشاور معهم، في قضية «عَرْض» أو «خَطْف». إلا أنّ شيئاً غريباً في الأمر، بدا للشيخ مرشود، هذه المرة. فالمرسال الذي وصله كان مستعجلاً ويحثّه على عدم الإبطاء: «إغْسل راسك في الدير، ولا ينْشف إلا عنْدنا». وبالرغم من هذا، فقد كانت الرسالة أقرب الى «المشورة» منها الى «طلب العُونِه» المباشرة. والأغرب من هذا، هو ضرورة أن يرافقه «الخوري عساف» و«ضاحي السعادة»، أشهر فرسان المراشدة.

لماذا لم يطلبوا مالاً، ولا سلاحاً، ولا فرساناً..؟!

العرض والثأر (!) كيف تعمى قلوب الرجال وبصائرهم؟ ما الذي يجتاح أجسادهم، لتصير كُتلة مشحونة بالنار واللهب؟ يسْتعرُ الرجال، وتضيق حدقات العيون أكثر، لتصبح مواقد جمْرٍ يقدح. وما هي إلا «فَوْرة دمٍ»، ضاقت بعروق صاحبها، حتى

تشتعل الدنيا «ناراً وسُعاراً»، يُعمي دخانُها ما تبقّى من عيون. ثم ينْساح الرماد، ليصبح الهواء ثقيلاً، مرّاً، فتجفُّ الحياة..!

طوال الطريق، كانت هذه الرعشات تجتاح جسد ضاحي، وهو يفكّر فيما يمكن أن يكون عليه الأمر في السلط. أما صاحب كتاب لمحة العيون فيقول عن تلك الأيام:

«... كانت بلاد شرق الاردن بحالةٍ همجية، متْعبة جداً، ومخيّم عليها الجهل العميق. وكان يسود على الجميع عشائر العُربان الرحّالة. (ويجْبون) الأموال

من الأهالي (خاوة)، (وقائمين) بالنهب والسلب والغزو، (والفوضى) ضاربة أطنابها، والأمن مختلٌّ ومفقود، والديانة (خرافات). ولا كان من يعرف (شيء) من أمور الديانة. فلا كنايس، ولا معابد، ولا مدارس، ولا كهنة. (والبلاد غير مأهولة)، ولا محكومة، ولا تخضع إلا (بعض) لحكومة الترك، وقل بالنتيجة مقاطعة لصوص متوحشة».

«واينما جُلْت نظرك، ترى جُثث (قتْلى) بالطرقات، وقُطّاع الطريق، (وأية) سابلة تمرّ بها تجد، في كل ثلاثين متراً، جثوة من التراب والحجارة، وإذا (سألت)، لماذا تُكوّم هذه الحجارة، قالوا لك الجواب، بأن هنا حدث قتل، وبرجم هذه الحجارة يدل على انه علامة ثابتة لأخذ (الثأر). وبعد أخْذ الثارات، تكثر الرجوم. ويا ما يجري من الحقد والضغائن».

«ومِنْ ذلك تجري المخاوف من قطّاع الطرق. حتى متى حضر رجل من سفر، ومن مسافة قريبة، (يحضر) أهالي القرية، ويهنئونه بوصوله سالماً، ويعودون الى مغايرهم، ويختبئون فيها من هجمات العربان، وقاطعي السابلة. ولأجل ذلك تتحد كل عشيرة أو (حمولة)، كتلة واحدة، لتحفظ كيانها».

«وللعرب عوائد، يسمونها السوادي، أو حكم العشائر. وهي ثقيلة جداً، بحكم المجرم من السوادي (...)، (وبحق) الذين يجرون القتل، ويدنّسون العرض (أي الطهارة)، ويفْدون كل ما لديهم من المال، وحياتهم ذاتها، خوفاً من أن يصير اختلال بالعرض والدين، لأن نفوذ العشائر، لا يكون إلا بهذا الأمر، وهو ما (يدْعونه) الشرف العربي».

«فالعار ثم العار على تلك الأسرة، أو الحمولة، التي تشذُّ منها الإبنة عن دين أبيها وأهلها، وإتفاقها مع غير الملل بالزواج والايمان. وحينما يحدث أمرٌ من أمثلة ذلك، وأهل الإبنة لا ذات عشيرة قوية معاضدة بعضها، فيلزمها أن تلتجي (تدْخل) الى عشيرة قوية، ذات سطوة، تستند عليها، وتدْفع (مبلغ معلوم) من الدراهم، ويدْعونه (حق الدْخاله)، لكي تُخلّصهم من هذه الورطة، أو تلك المصيبة، إنْ كانت بالعرض أو بالدين أو بالدم. وهذه عوائد متينة العُرى، لا تزول ما دام الأهالي يتلقون عوائدهم أباً عن جد».

«لأجل ذلك، (فإن المرأة)، ولو أنها تباع بيع العبيد، إلا أن إكرامها، بهذا النوع، أعني لو إنفردت بالطريق، خارج البلدة، أو وقعت بين أيادي اللصوص، فلا خوف ولا بأس عليها. واذا (كان برفقتها) رجال، فيسلبون الرجال، (والنساء) لا أحد يدنو منهن. لذلك اذا سافر أحد الرجال برفقة امرأة، (ودّعها) كل ما معه من النقود، لأنه يعلم بأن اللصوص لا تقرب من (النساء) ولا يفتشون المرأة. وعار على الرجال أن يدنوا من (النساء)، أو يقرّبوا (نحوهن). حتى لو (أن المرأة) تضرب الرجل، فلا يقابلها، ولو سبّته وشتمته، فلا يمكنه أن يماثلها، وإلاّ يكون (بأدنى المروءة) والعقل. وهذه شهامة الرجل، وإنْ كان خالي الشهامة، فلا له حق يجالس الرجال، ولا له حق يشرب القهوة».

«اذا التقى الرجل بامرأة عدوّة، فلا يجسر أن يتعرض لها، لا بكلام ولا خلافه، والكل يتبادلون هذه العوائد الشماء، إنما لا تخلو الامور من حدوث بعض شذوذ عن هذه الخطة..»!!

هكذا رأى، صاحب كتاب «لمحة العيون..»، البلاد والاشياء، في تلك الأيام. أما الشيخ مرشود وضاحي والمراشدة عموماً، فقد كانت الرؤية بالنسبة لهم مختلفة تماماً.

واخيراً، وصل وجوه المراشدة الى السلط، بعد أن نال التعب كثيراً من أبونا عساف. لم يكن الشيخ مرشود معنياً بالحفاوة البالغة، التي قوبل بها مع رفاقه، من قبل أقاربه ووجهاء عشائر السلط. تفرّس في عيون الرجال، بحثاً عن ضالته، ولكن عبثاً، كانت عيون الشيوخ تهرب، تختفي خلف عبارات الترحيب والمجاملة. باقتضاب، كان الشيخ مرشود يرد على هذه التحيات: «القلوب شواهد، يا جماعة». أما عيناه، فبقيت تُلاحق وجوه رجال السلط وشيوخها، بحثاً عن تفسير لما كان يسيطر عليه طوال الطريق، بأن هناك شيئاً غريباً ومختلفاً هذه المرة. وفجأة، تسمّرت عيناه على وجهٍ دون غيره، وسط هذه الجموع المرحّبة. وجه أحمر لامع، وعينان زوقاوان تدوران في محجريهما، كعيني قط، والقلنسوة السوداء، التي كانت تعلو الرأس، أبْقت خصلة من الشعر الأصفر، تنسدل على جبين الرجل، الذي توقفت عنده عينا الشيخ مرشود. كانت هذه الملامح كافية ليدرك الشيخ مرشود أن الرجل: راهب أجنبي!.

أحسّ الشيخ مرشود أن رعشة باردة سقطت في أحشائه. وحين وصل دور «الراهب الأجنبي»، للسلام على الشيخ مرشود، بدا مرتبكاً، وتوقف على بُعد خطوات من الشيخ، ومد يده من بعيد، مع إحناءة في الرأس الى الأمام، فبدا وكأنه في حضرة أحد الملوك العظام. وحين مدّ يدة، للسلام على ضاحي، الذي كان يقف الى جوار الشيخ

مرشود، شدّه ضاحي قليلاً، فإذا الرجل بكلّيته يتعثر، ليصبح وجهاً لوجه امام ضاحي، بحيث أن جسديهما كادا يتلاصقان. تأمّله ضاحي، فتّش كل ملامح وجهه، قبل أن يخاطبه:

– «أهلاً يا بُونا».

رد الراهب التحية بعربية مكسّرة:

– «أهلاً. أهلاً بالرْجال».

كان هذا كافياً، كي يتأكد الشيخ مرشود من مخاوفه وأفكاره القلقة، التي راودته طوال الطريق.

والحقيقة، أن هذا الراهب الفرنسي لم يكن هشاً، بالشكل الذي بدا عليه، عندما سلّم عليه ضاحي. بل كان اكثر جرأة وتهوّراً واندفاعاً من الانطباع الذي تركه في رجال المراشدة. «وهو ثاني مبشّر ترسله البطريركية في القدس، بعد أن بدّد المبشر الاول، الذي أرسلته الى السلط، الاموال في بناء كنيسة ومدرسة للمضاربة على سوق العقارات المحلي، الذي بدأ ينتعش في تلك الفترة». وهو ما اضطر البطريركية، الى استدعائه، وارسال هذا الراهب الفرنسي بدلاً منه.

في الواقع، لم يكن الراهب الفرنسي مجرد مبشر «كاثوليكي»، كما يقول البارون سيمونس في أوراقه، بل كان «مثالاً للمبشر المحارب والمتحمس لعقيدته، بشكل مبالغ فيه، اذ كان يرى في العثمانيين الأتراك، وكذلك الاسلام، والمسيحية الشرقية، تهديدات تتساوى في خطورتها أمام انتشار المذهب الكاثوليكي».

ويقول البارون سيمونس، الذي زار الراهب في السلط، في تلك الفترة، وسجّل ذلك في يومياته في حينه «إن هذا المبشّر اللاتيني كان غريباً وأجنبياً، بكل معنى الكلمة.

وبالرغم من هذا، فقد كان معمارياً بارعاً، اذ اشترى مقلع الحجارة في البلدة، وقام بشق ممر، باستخدام الديناميت والبارود، من المحجر الى موقع بناء الكنيسة، في حي السلالم في السلط. وقام بشراء أكبر جرسٍ استطاع الحصول عليه، وقام بتحميله على بغل، ونقله من القدس الى السلط، وثبتّه فوق سطح بيته، وكان يدقه ثلاث مرات يومياً، بحيث يسمع صوته في جميع انحاء السلط. وهو ما أغضب المسلمين فيها، الذين اشتكوا الى الحاكم العثماني في السلط وكذلك متصرف نابلس. لقد أثبت هذا الراهب قدرة هائلة على تخريب وتفسيخ العلاقات الاجتماعيـــــة في البلدة، واحْدث توترات طائفية لم يُسمع بمثلها من قبل. وهو يطمح الى تحويل معتقدات جميع من في السلط وما حولها من القرى، من مسلمين ومسيحيين، الى «المذهب الكاثوليكي»، وهو ما أوصله الى الاصطدام مع الحكام الاتراك وقسم كبير من الأهالي. ففي عيد القربان، في العام الماضي، قام باحتفال مهيب، رفع فيه صليباً ضخماً، فوق موقع البناء الذي يبني فيه الكنيسة، وزين الطريق الممتد من بيته الى المحجر، بالاضافة الى رفع الاعلام الملونة وغيرها من أشكال الزينة. وهو يرى في هذا «انتصاراً للعقيدة!» في وسط من الأهالي، يراهم «يوناناً منشقين!» و«مسلمين في صحاري بلاد العرب!». واذا لم تسارع البطريركية، باستدعاء هذا الراهب وعزله أو نقله، فستخسر إرساليتها التبشيرية، في بلدة السلط، والقرى المجاورة لها. اذ أن زيادة أعداد طائفة اللاتين هنا تحتاج مبشّراً يكسب عواطف الناس ومحبتهم، لا محارباً يقاتل الناس وينتصر عليهم!».

أما الشيخ مرشود ورفاقه، الذين ناموا ليلتهم في حي السلالم، عند اقاربهم، فقد سمعوا منهم كل هذا الكلام وأكثر، إلا أنهم لم يصدقوا ما سمعوه تماماً. وفي اليوم التالي، حين دوّى صوت جرس الراهب الاجنبي الهائل، وصمّ آذان كل من في السلط، عندها،

خرج المراشدة واقاربهم، وعلى رأسهم الشيخ مرشود، راكضين الى بيت الراهب الاجنبي. وحين رآهم مقبلين، نزل مهرولاً للقائهم، وحين وصل، صرخ الشيخ مرشود فيه بغضب، متسائلاً عن صوت الجرس، ويبدو أن الراهب لم يفهم تماماً ما قاله الشيخ، بسبب غضبه وسرعته في الحديث، إلا انه أدرك أن المقصود هو دق الجرس وصوته المزعج، فقال بتبجح:

– «سأوقف دق هذا الجرس، عندما يتوقف المسلمون عن رفع الآذان من هذه المئذنة هناك!».

ما ان سمع الشيخ مرشود هذا الكلام حتى استشاط غضباً، ولاحظ ضاحي

أن عين الشيخ مرشود اليسرى قد بدأت ترفُّ، بشدة، فأنزل بارودته من على كتفه، وأسند كعبها الى الارض، في وضعية استعداد. وحين نطق الراهب بعبارة الجرس والمئذنة، تناول الشيخ مرشود الراهب من عنقه، ورفعه عن الأرض، بغضب، فسيطر الخوف والرعب على وجه الراهب، الذي صار معلقاً في الهواء في يد الشيخ، وروحه تكاد تخرج من حلقه، وخرج كلام الشيخ سريعاً، كأنه رصاص بارود، في وجه الراهب:

– «اسْمع يا أجنبي. هذي الديرة ديرتنا. والناس اللي تقول عنهم مسلمين أهلنا وربعنا. وهذا كلام ينْقصْ لسانك عليه. وإحنا بعدْنا نسمي شجر الزيتون اللّي حواليك هذا رومي. يعني إحْنا واياهم هانْ مثل هالشجر، ومن قبلْ ما تنْولِدْ إنْت واللي ودّاك».

ثم ألقى الشيخ بالراهب على الأرض، الذي كان يتنفس بسرعة وشراهة، كأنه عاد للحياة من جديد، بعد أن كاد نفسه ينقطع، وهو معلّق في يد الشيخ مرشود. أما مساعدو الراهب ومرافقوه، فلم يتحرك احدٌ منهم من مكانه، بعد أن لاحظوا توثّب ضاحي وبعض أقاربه، الذين كانوا بجواره.

لم تمض سوى سنوات قليلة، على آخر زيارة للشيخ مرشود الى السلط. غير أن زيارته بدت هذه المرة مختلفة وغريبة. الناس فيها غير الناس الذين يعرفهم. العشائر فيها صارت شظايا، والشظايا صارت «طوائف»!. كيف يتغير الرجال بهذه السرعة؟! ما الذي حوّل البلدة الكبيرة الى نُتفٍ وحارات من «الإيمان»؟! كيف للمسيحيين أن يصيروا الى هذا الحال؟! تنهّد الشيخ مرشود، وتمتم كأنه يخاطب نفسه:

– يا حسرتي، «ثَار الدّفِقْ مِنْ مانْعات الصناديق»!

أما العيون الزرقاء، فقد ظلت تدور في محاجرها، تحت قلنسوة الراهب الاجنبي السوداء، وعيون الشيخ تطاردها على جُدران بيوت السلط الصفراء..

لم يُقم الشيخ مرشود ورفاقه في السلط سوى يومين. كان الشيخ أكثرهم تأثّراً وتغيراً، وبدت طريق العودة، بالنسبة اليه، أطول بكثير من طريق القدوم. أما القلق، الذي استبدّ به، طوال الطريق من دير ورق الى السلط، فقد أخذ شكلاً آخر.. شيءٌ أبعد من الخوف والإحساس بالقلق.

لم يُدرك ضاحي، أو «أبونا عساف»، تماما، ما الذي أصاب الشيخ بعد رحلة السلط. فكل الأمور بدت عادية. وحتى الشيخ كان واضحاً ومتوازنا، حين أبدى رأيه في قضية «خطف البنت»، التي «دخلت» عائلتها على عشائر السلط، من أجل انقاذها وإعادتها. بل وأكثر من هذا، فإن المشكلة بحد ذاتها لم تكن تخص أقاربهم هناك، أو حتى احدى عشائر السلط، بل تخص إحدى العائلات الصغيرة، وفي بلدة تبعد كثيراً عن بلدة السلط نحو الغرب. ومما زاد الأمر غموضاً، هو أن الشيخ مرشود أدى الواجب وزيادة، إذ ترك مبلغاً كبيراً من المال، عند اقاربهم في السلط، للمشاركة في أي حلٍ يمكن ان تتفق عليه عشائر السلط، بالنسبة لمسألة «خطف الفتاة» وعائلتها، التي «دخلت» عليهم، وطلبت حمايتهم.

ما لم ينتبه اليه ضاحي وأبونا عساف هو أن الشيخ مرشود، حين أبدى رأيه، فإنه لم يقترح حلاً محدداً، بقدر ما كان يحاول معرفة آراء وجهاء وشيوخ العشائر، وخصوصاً الراهب الأجنبي، الذي كان يجلس قرب أحد الشيوخ، في صدر المجلس. وحين اقترح احد الشيوخ اللجوء الى «المرسل اللاتيني»، وأشار الى الراهب الأجنبي، الذي يجلس الى جواره، حيث أنه يستطيع الاتصال «بالقنصل الإفرنسي»، و«القنصل الطلياني»، و«والي الشام»، واذا اقتضى الأمر، يمكن أن يطلب مساعدة «بطركية اللاتين» الجديدة في القدس، حينذاك، تغيّرت ملامح الشيخ مرشود، وضاقت عيناه، ورفع صوته، بشكل أراد ان يكون صارماً:

– «نِضْحَكْ ونْعَاشِر، والعَرض ما هُوْ داشر»! والقصة بَعِدْ ما وصّلت هالمواصيل يا جماعة.

تغيّر شكل الحديث، بعد كلام الشيخ مرشود. وازدادت همهمات الرجال في المجلس، الى أن صارت كأنها خلية نحل. لم يعد الكلام موحداً، كعادة المجالس، التي يجتمع فيها الشيوخ لأمر هام كهذا، وبدا الناس منقسمين بشكل كبير، وإنْ كان القسم الأكبر منهم يميل الى طلب معونة «المرسل اللاتيني الأجنبي».

أحس الشيخ مرشود أنه في المكان الخطأ، وبدا له أن طلبه كان بقصد «رفع العتب»، اكثر منه بقصد المشورة الحقيقية، وهو ما دفعه الى الانسحاب بهدوء. وحين سأله الخوري عساف، خارج المجلس، عن رأيه فيما سمع، تنهد قائلاً:

– «كل فرخ من بيضه، وبيضة البومة، يا بُونا، ما تِطْلعْ صقر!». يا ريت الخيل تْعرقبت في دير ورق، وما جينا. أدرك شيخ المراشدة أنّ السلط لم تعد كما كانت، وأن العشائر انْقسمت، وأن شيئاً غريباً وجديداً يجري هنا منذ سنوات.

لم يكن الحُزن وحْده هو الذي سيطر على الشيخ مرشود حين غادروا السلط. كان يشعر أن ظهره قد صار مشروخاً. فالسلط لم تكن مجرد بلدة يسكن فيها اقارب المراشدة وحسب، بل كانت السند الأكبر والعزّ، الذي تشعر به كل القرى والعشائر المسيحية، في جنوبي حوران.

صحيح، أن دير ورق كانت هي أبعد القرى باتجاه الشرق. وصحيح أيضاً، أن المراشدة لم يكونوا يحتاجون السلط وعشائرها في حياتهم اليومية، أو حتى في علاقاتهم مع عشائر العُربان المجاورة. إلا أن السلط كانت بمثابة القلب لكل هذه القرى، التي تقع الى الشرق من «مخاضة الشريعة..».

والغريب، أن احساس الشيخ مرشود، الذي عبّر عنه بغريزة فطرية، بعد زيارة السلط، حين سأله ضاحي، «بأنه يحسّ أن ظهره اصبح مشروخاً»، لم يكن بعيداً عن الحقيقة. وكان عليه أن ينتظر سنوات قليلة، كي يرى حدود هذا الشرخ، في دير ورق، وبين المراشدة أنفسهم، وربما بشكل اكثر فجائعيةٍ ومأساوية مما تخيّل أو قدّر...

هاجت ريحُ الصَبَا، ولاحت في الافق غيوم خفيفة، فتفاءل المراشدة بأمطار الموسم، التي اقترب أوانها. صار الهواء اكثر برودة، فاختفت الهوام والحشرات في باطن الارض، بحثاً عن الدفء...

وغادر تشرين الأول آخر أيامه حين ابتدأ المراشدة موسم تنشيف العنب لعمل الزبيب. وحين بدأوا بموسم «قطاف الزيتون»...، فجأة ظهرت أسراب الحمام البّري، في الأراضي الغربية، فتشاءمت الجدة حنه، وقالت: «سَنْةِ الحمام افْرُشْ وْنَامْ»!.

وعبثاً، حاول الشيخ مرشود اشاعة التفاؤل بالموسم الجديد، وبأن «تشرين الثاني بعْدُه بأوّلُه»، وأن سرب الحمام، الذي ظهر قبل أيام، ما هو إلا «سرب حمام عابر وطيّار». غير أنه لم يمض اسبوع، على ظهور سرب الحمام الأول، حتى غطّى الفضاء الغربي، لقرية الدير، أسراب لا تُحصى من الحمام البري، وهو ما كان ينذر بافلاس الموسم الزراعي، كما كانت تقول الجدة حنه.

وبالفعل، لم يأت المطر في موعده. وعلى الرغم من أن المراشدة قد حرثوا

الارض ثلاث مرات، قُبيل الأوقات المتوقعة لسقوط الامطار، إلا أن الامطار الخفيفة، التي جاءت هذا العام، لم تكن مفيدة للزرع والمحاصيل.

تغيّرت نفوس الرجال، وثارت فيهم «أنواء القلب»، التي يُخشى ما وراءها من عواصف. تجهّمت الوجوه، وصارت اكثر انْقباضاً وجفافاً.

أما النساء، فبدأْن بتفقد مخزون البيوت، من الحنطة والبقوليات وحلوى الفواكه المجفّفة. صار الحرص والتقنين اكبر، على ما يُطبخ ويستهلك يومياً من هذا المخزون، فما يؤخذ منه لن يعود أو يُعوّض في موسم الجفاف هذا. وبدت النساء اكثر حرصاً على إبعاد الصغار عن آبائهم، الذين أصبحت صدورهم تضيق بابسط الأشياء. وفي الليل، فإن المهمة كانت أصعب على النساء من أي شيء آخر. فأجساد هؤلاء الرجال صارت باردة، مُتخشبة، كجذوع أشجار بلّلها برد كثير. والأقسى من هذا، أن هذه الأجساد لا تستجيب لأي دفء أو مداعبة. حتى أن بعض هذه الاجساد كانت تظل مشدودة وباردة حتى الصباح، كما كانت تقول العيوف، زوجة ضاحي السعادة، الى زوجة الشيخ مرشود. وحين تبدي بعض الزوجات، الأكثر ذكاءً وحنكة، رغبة في التسرية، بالحديث مع أزواجهن، فإنهن يصطدْمن بصناديق مقفلة بطلاسم، يصعب على الزوجات الاقتراب منها، أو حتى الإلحاح في الحديث عنها.

أما ضاحي، والشيخ مرشود، فإن ضيقهما كان يزداد كل يوم، عند رؤية عائلة من العائلات المستورة في الدير، اثناء تجوالهما اليومي في القرية، لتفقد أحوال الفقراء، والذين لا يملكون مخزوناً كافياً لعام الجفاف هذا.

في هذا العام، وربما اكثر من أي وقت مضى، تواترت الأخبار من السلط والحصن وعنجرة، وغيرها من القرى، عن المرسلين والمبشرين اللاتين الأجانب، الذين يتحركون

بين العشائر المسيحية، في تلك القرى. وهي أنباءٌ تتحدث، في معظمها، عما يفتتحه المبشرون من مدارس وكنائس، وعن الهدايا التي تقدم للأطفال والعائلات.

لم تكن هذه الاخبار متداولة بين رجال المراشدة إلا قليلاً. أما بين النساء، فقد اصبحت هذه الأنباء أهم الأحاديث لنساء قرية الدير، بعد إضافة القليل من المبالغة والتجميل على بعض القصص والحكايات. وحين يجاهر أحد الرجال باحدى هذه القصص أو الأنباء، أمام الشيخ مرشود أو في مجلسه، فإن الشيخ يشيح بوجهه متهكماً:

– عدم المؤاخذه، يا بُونا عساف «لَوْ الخَوَرى بَعْطوا، ما سمّوهم أبّهات». ويُشدّد الشيخ على آخر كلمة قالها، بحيث تبدو «أبوهات»، أي أنهم يأخذون ولا يعطون. أما حين لا يفهم المتحدث ما رمى اليه الشيخ، من عدم رغبةٍ في هذا الحديث، فإنه يسأل المتحدث بشكل مباشر وصارم:

– مِنْ شان شو هالمدارس والكنايس والهدايا؟ مو مِنْ شان الناس تغير دينها وعاداتها، وتصير لاتين؟ «إلكنيسهْ بدْها خوري، والخوري بدّهْ دير، والدير بدّهْ غلَبهْ!». والخوري يا جماعة أجنبي..!

ويضيف الشيخ مرشود، بعد أن يصبح صوته اكثر عصبية وتهدّجاً : «نْسيتوا المذابح، اللّي صارت شمال، مِنْ وراهم، قبْلْ اكثر مِنْ عشر سْنين»!. في إشارة إلى المذابح التي حدثت في الشام ولبنان عام 0681م، وادت الى مقتل وهجرة الكثيرين، بما فيها مقتل عدد من الرهبان الفرنسيين، بالاضافة الى اغلاق السلطات التركية لمدارس اليسوعيين، على إثرها.

الجفاف، واخبار المرسلين اللاتين في القرى المجاورة، وما أدت اليه من انقسامات في العائلات والعشائر، تحوّلت الى جبل ثقيل من الهموم يُطبق على صدر الشيخ مرشود. وما زاد الأمر سوءاً هو أخبار العُربان، التي بدأت تتوالى من الشرق، عن غزوات بين عرب بني عسران وعرب السوادي. كان الشيخ يعرف أن هذه الحروب والغزوات بين العربان سببها كيد الحاكم التركي، ومؤامراته، بهدف تفتيت هذه العشائر، وإضعاف قوتها، للوصول الى بسط نفوذه عليها.

تنهد الشيخ مرشود بحرقة، وهو يشرح لضاحي، سياسة المتصرف الجديد رشيد باشا، وقال بصوتٍ بدا مخنوقاً:

– لازم نْسوّي شِيْ يا ضاحي. لازم.

لم يكن ضاحي مقتنعاً، تماماً، بهذه المهمّة، التي أوكلها اليه الشيخ مرشود. إلا أنه كان مستعداً لفعل أي شيء يريده، حتى لو كان هذا لمجرد إراحة ضمير الشيخ، الذي بدا في الآونة الأخيرة مهدوداً ومتعباً، اكثر من أي وقت مضى. وحين رد ضاحي على الشيخ، «بإن الذهاب الى عربان السوادي وبني عسران، وشرح سياسة الوالي ضدهم، لن يفيد في منع انقسامهم، بعد أن انقسمت عربان بني عسران الى أربع عشائر»، أصرّ الشيخ بأن «المرُوّه ما قتْلتْ صاحبها، يا ضاحي». ثم أضاف بصوت بدا أقرب الى الرجاء، حين لاحظ تردد ضاحي وعدم اقتناعه:

– ما نِقْدر، يا ضاحي، نْغمّض عيونّا ونْقول «لا قلْب يحْزنْ، ولا عين تشوف».

حينها، لم يجد ضاحي بُدّاً من القول «أمْرك يا شيخ»، بعد أن أحسّ بنفْسِ الشيخ مرشود تسيل من عينيه، لتسبق كلامه الذبيح..

مراتٍ قليلة هي التي رافق فيها ضاحي الشيخ مرشود الى مضارب عُربان بني عسران. أما هذه المرة، فعليه أن يسافر وحده، وبما يحتاجه ذلك من حذر

ويقظة، خصوصاً، بعد أن بدأت الغزوات تشتد في الفترة الأخيرة، بين عرب بني عسران وعرب السوادي. أما ما كان يشغل باله، فهو كيف سيستدل على عرب الشيخ عسران، كما أوصاه الشيخ مرشود، بعد أن انقسموا الى أربعة عُربان.

كان على ضاحي أن يقطع مسيرة نصف يوم، تقريباً، الى الشرق من دير ورق، حيث تبدأ الصحراء ومضارب العُربان. وفي اليوم التالي، شرّق ضاحي، وعيون الشيخ مرشود تلاحقه مودعة، من أعلى عْراق الدير الشمالي. ولم ينزل الشيخ عن الصخرة، التي يسميها المراشدة «المرقب الشرقي»، حتى اختفى ضاحي وفرسه عن ناظريه.

أما ضاحي، فبعد أن قطع آخر سهول حوران، شرقي قريتهم، بدأ كل شيء يتغير. اختفت الاشجار، تماماً، وبدأت تتحول الى أكمات شوكية جافة. وحين أمعن في السير، لم يعد يرى سوى بعض أشجار الإثل، وشجيرات الشيح والقيصوم.

تغيّر لون الأرض، إصْفرّ، ثم بدأت شقوق الارض تظهر ببطء، الى أن صارت أثلاماً عريضة، يملأها الظلام، والأفاعي، وزواحف الصحراء الشاردة من الشمس. وما ان إختفت الشمس حتى بدأ عالمٌ آخر بالظهور.

إنها الصحراء...

قيعانٌ من الرمل الرخو، ما ان تمعن فيها سيراً حتى تمتدّ، وتميد. كلُّ شيء مختلفٌ، هنا، الأفق والمدى والسماء. لا شيء يُشْبهها سواها، والأصوات فيها عوالم من الكائنات، التي لا تُرى. أما الخوف، فشيء معجونٌ بهواء الليل، يمكن أن يتكاثف كائنات حية، في ليل برودتها، في أية لحظة.

أشرق القمرُ، ساطعاً، في هذا الليل الموحش. وفجأة، توقفت الفرس، وكأن شيئاً سمّرها في الأرض، وبدأت تصدر أصواتاً غريبة، وتحرّك رأسها ورقبتها بعنفٍ الى الأعلى والى الأسفل. قفز ضاحي، بسرعة، عن ظهر الفرس، وتناول بندقيته من سرجها. وما ان حدّق في الارض، التي ساعد ضوء القمر على رؤيتها بوضوح، حتى شاهد أفعى ضخمة، تطوّق قوائم الفرس الخلفية الى ما فوق كاحليها. أدرك بسرعة أن هذا الوضع لا تُفيد فيه البندقية، فألقاها بسرعة، واستلّ سيفه، وقفز الى ما وراء الفرس مباشرة. وبهدوء شديد، أدخل نصل السيف بين قوائم الفرس الخلفية، وشَرَطها بحركة خاطفة نحو الأرض، فانقسمت الى نصفين. وما ان سمع صوت اختراط السيف لجسدها حتى انتفض القسم، الذي فيه رأسها، بعيداً عن الفرس، فلحقه وعاجل رأسها بضربة اخرى، فَصلتْه عن القسم الذي علق به، فهمدتْ.

عاد ضاحي الى الفرس، التي هدأت، وتفقّد جسدها، وقوائمهما. كان رأس السيف قد اصاب بطنها، فجرحها جرحاً خفيفاً، فخلع كوفيته البيضاء، وحزمها على الجرح، ثم ربطها على ظهر الفرس. ولم يُعد البندقية الى السرج، إلا بعد أن تأكد أن الافعى لم تلدغ الفرس، التي حضن رأسها، وداعب وجهها وشعرها بيديه، في حركة بدت أقرب الى التشمم، والتهنئة بالسلامة، منها الى التحسس.

ما انْ اعتلى ضاحي ظهر فرسهِ، بعد قتل الأفعى، حتى سرت في جسده قشعريرة خوف باردة، أحسّ بها في حلْقه. أما الأصوات، التي تشقُّ صمت الليلِ، عادةً، فقد تحوّلت في أُذنيه الى فحيحٍ لا يتوقف. وما زاد من حدّة الخوف، ووحشة الأصوات، هو ما قفز الى ذهنه من تساؤل: لماذا لم تلدغ الأفعى الفرس؟! هل لدغتها، ولم يستطع أن يتبين الموضع؟ ماذا لو أنها لدغتها، وماتت الفرس، ماذا سيحل به؟ ماذا سيفعل؟

انْطلق عنان الخوف هذا، في وجدان ضاحي، ولم يتوقف، حتى رأى لهيب نارٍ، يلوح من بعيد، فبدأ الخوف يتحول الى قلق وتوجّس. ماذا لو لم تكن هذه مضارب الشيخ عسران؟ ماذا لو كانت مضارب خصومه؟ أزاح عن ذهنه هذه الأفكار، بسرعة، ولكز الفرس، فهبّت باتجاه النار والمضارب.

لم يكن صعباً على ضاحي، أن يتعرف، بسرعة، على أن هذه المضارب ليست مضارب الشيخ عسران، وأنها مضارب إحدى عشائر بني عسران، التي انْشقّت عنه. وبحديث سريع، وغير مباشر، مع الفرسان الذين لاقوه، عند أول المضارب، استطاع أن يعرف منهم موضع مضارب الشيخ عسران، دون أن يكشف لهم عن نيته أو وجهته. وما ان تعرف الرجال عليه، وانه من المراشدة، ومن دير ورق، حتى رحّبوا به بحفاوة، وقادوه الى «ديوان» شيخهم. نزل عن الفرس، وأمسك بلجامها سائس الشيخ، للعناية بها، بعد هذه الرحلة الطويلة. كان إسْمُ ضاحي، وسُمعة المراشدة، قد سبقاه الى الشيخ، فما ان ترجّل حتى فتح الشيخ ذراعيه مرحباً، وسائلاً عن الشيخ مرشود، وباقي وجوه المراشدة. ولم يكد ضاحي يستقر في مكانه حتى جاء السائس راكضاً، ولهاثه يسبق صوته:

– الحمد للّه على سلامتك يا حبّاب. واللّه ربْنا سلّمك من موت أحمر.

حملْق الشيخ في وجه السائس، مستغرباً كلامه. أما ضاحي، فلم يكن أقل من الشيخ دهشة واستغراباً من هذا الكـــــلام، الذي فاجأه به هذا السائس ذو البشرة السوداء.

وحين رأى السائس الدهشة في وجه الشيخ وضيفه، فرد يده التي كانت مضمومة، فبدت على ضـــــوء السراج الخـــافت، بيضاء معروقه، وفي وسطها لمع نابان أبيضان كبيران، كان الواحد منهما بحجم عقلة الأصبـــــع تقريباً. وما ان

وقع بصر ضاحي عليهما حتى قفز من مكانه، نحو السائس، كالملدوغ، صارخاً بصوتٍ بدا ملهوفاً:

– وينْ لَقيتهم، يا وجْه الخير؟

أجاب السائس، وقد أدرك سبب لهفة الضيف:

– كانوا مغروزين، في حافر الفرس. ولولا ربّك، كان مُتْ إنْت والفرس. كان على الحديث أن يندفع بعدها حول ما حدث مع ضاحي. وما ان قصّ عليهم حكاية الأفعى والفرس، وما لاحظه من طولها وضخامتها، حتى تعالى صوت الشيخ، مكبراً ومهللاً:

– الله اكبر. هذي الحيه أعْرفها. والله ما يقدر عليها خمْس رجال. أمِنْتِ بالله. والله يا وليدي، إنّكْ فـــارس من ظهر فارس. والقلْب اللي بين جنابك، مقْدُود من صخر.

أما السائس، الذي ساعده ضوء القمر الساطع في تلك الليلة على تفقد جسد الفرس، فلمعت عيناه ببريق غريب، وقال بصوت خافت:

– إنيابها انْغرزت في الحافر البرّاني، ولّا كان لاشفْناك، ولا وْصِلتْنا.

ثم حفر بيده في التراب، حيث كان يجلس، وألقى النابين في الحفرة، وطمر عليهما التراب، وتتمم:

– إنْدفن الشر، والرحمن سلّم.

غادرهم ضاحي، بعد أن تنـــــــــاول «قِرَاهُ»، وبعد إلحاح شديد من «المعزْبين» بالبقاء الى الصباح، استطاع التخلص منه بصعوبـــــة. وبعد ساعة، تقريباً، كان في مضارب الشيخ عسران، وقضى هناك ليلته. في صباح اليوم التالي،

امتطى فرسهُ مغرّباً، الى دير ورق، بعد ليلة طويلة ومضْنية، اقتربت من الفجر، وحديث أطول مع الشيخ عسران...

كان كلام الشيخ مُرّاً ومثقلاً بالألم والحسرة. في البداية، عبّر الشيخ عسران عن إكْباره للشيخ مرشود على هذا الحرص، وقال وهو يشيح بوجهه نحو عتمة الليل «اللّه يمسّيكْ بالخير يا شيخ مرشود، وينْ ما دِرتْ وجْهك. واللّه لوْ في مثايلك اثنين، ما يقْدر علينا لا التركي ولا غيره، ولا يظل في حوران كلها واحِدْ منهم». وحين أخبره ضاحي، عن محاولات الوالي رشيد باشا، رشوة بعض الشيوخ، للقيام بغزوات وغارات مجهولة عليهم، قال الشيخ عسران بصوتٍ بدا مليئاً بالحسرة «أعْرف يا وليدي. لكنْ إيش نْسوّي في النْفوس الهايْفه. والرجل يا ضاحي، اللّي تُعْصُبْ إيدو عالسلاح، ما يُطُخْ».

كان الكلام ثقيلاً، واشفق ضاحي على الشيخ مرشود، حين سينقل اليه كلام الشيخ عسران. صحيح أنه حمّله أخباراً مشجّعة ومتفائلة، ولكنه تفاؤلٌ أقرب الى العجز منه الى واقع الحال. ولعل الشيء الأهم، الذي انتبه اليه ضاحي، في هذه الرحلة، هو مدى سعة بصيرة الشيخ مرشود، وبُعْد مداركه. وفوجيء بحجم الثقة والاحترام اللذين يحظى بهما الشيخ عند الشيخ عسران، وقد لاحظ ذلك حين نقل له مخاوف الشيخ مرشود بالتفصيل، إذ لاحت على أهداب الشيخ عسران بعضُ دموعٍ، حبسها في اللحظة الأخيرة، قبل أن تنحدر على جفنيه المجعّدين.

إجْتاحت هذه الصور خيال ضاحي، طوال طريق العودة. وما ان قاربت الصحراء على الانتهاء، ولاحت سهول حوران من بعيد، حتّى خيل له أنه يراها للمرة الاولى. بدتْ له الصحراء والبادية كسيفٍ يحيط بهذه السهول، وأن دير ورق في موضع يقع على نصْل هذا السيف تماماً. وأمْعن خياله في التحليق،

في هذا المشهد، الذي صار يتضح كلما اقترب منه اكثر، الى أن وصل الى ما كان يردده الشيخ مرشود، بين الحين والآخر بأن حدّ هذا السيف الاحدب من الشرق هو استدارة الصحراء، بمناخها، وجفافها، وعُرْبانها، وحروبهم وغزواتهم. أما الحد الداخلي لهذا السيف، فهو القرى التي تقع الى الغرب من دير ورق. وما ان يصيب القلق والتوتر أحد هذين الحدّين حتى تحسّ دير ورق بذلك. تتوتر، يتغير مزاجها، لتعود الى الاستقرار حين يعود هذا السيف الى الهدوء ثانية...

انْتهى الصيفُ، وفَتَر الحرُّ، وابتدأ آخرُ الليل يصبحُ بارداً...

في هذا الوقت، من الأيام الاولى لأيلول، يلوح عادة في الافق، ما يُسميّه المراشدة، «نَوْءُ الصّرْفة». وهو موسم ينحرف فيه الطقس قليلاً، حيث «يهيج الدم» في الرؤوس، كما تقول «الجدة حنّة»، وهو ما يؤدي الى إصابة بعض الفتيان والصبايا بُرعافٍ مفاجيء. في هذا الوقت بالذات «يطيب الرُمّان»، يصبح أكثر إشْتهاءً، وتبدأ في دير ورق لعبة تسّميها الصبايا الصغيرات «جلْنار»، أو لعبة «يمكنْ إجَتْ جلْنار..». وهي لعبة تقوم بها الصبايا، اللواتي اقتربن من سن البلوغ، في كروم الرمّان الشرقية للدير. وعادة، لا يشارك في اللعبة إلا الصبايا اللواتي يتحسسن البلوغ، ببروز بعض الاجزاء في اجسادهن، وعلامة ذلك هو «الرعاف المفاجيء»، الذي يغطي الصدر بقطرات من الدم القاني، حين «يهيج الدم»، و«يطيب الرمان» في كروم الدير. واللعبة تقوم على تخبئة الصبايا للرمان الناضج في صدورهن، بالحجم الذي يتمنين ان تكون عليه صدورهن في المستقبل، ثم يغمضن عيونهن الى أن تأتي «جلْنار»، وهي الفتاة الأكبر سناً، لتفقد أجسادهن، ثم تُخْرج من الصف من فازت من الصبايا، وبلغت سن البلوغ. أما من لم تفز من الصبايا، فعليها الانتظار للعام المقبل، حتى تنضج،

ويطيب الرمان. وما ان تنتهي، «جلْنار» من مهمتها، حتى يبدأ الرقص والغناء، تُكلّلُ بعده الفائزات بأكاليل من زهر الرمان. وحين يبدأ الغناء تحتلّ الفتيات، اللواتي لم يفزْن، دور الفتيان، وتبدأ أدوار العتابا والميجنا. وتبدأ الغناء، عادة، جلْنار، التي تكون أكاليل زهر الرمان قد غطت شعرها ومعظم جسدها، وتقول:

– «ضِحْكتْ حجار الدار، رجْعوا حْبابنا»

عندها، ترفع احدى الفائزات صوتها، وتقول:

– «نسّمْ هوا الوديان بَردوا حْبابنا».

فترد واحدة من غير الفائزات:

– «روحي بْسبيلكْ واتْركينا بْهمّنا،

بُستان قلْبكْ كان ملْعبْ خيلنا».

ثم تأتي فائزة اخرى، لتقول بصوت حزين، محاولة تهدئة الوضع:

– «يا ليل خبرّ عن حنينْ قلوبنا».

فترد اخرى من غير الفائزات، بصوت اكثر هدوءاً:

– «خلّي الليالي يْخبْروكِ بحاْلِنا،

ظلّي وفيّه واذكري سهراتنا». وعادة، يختبيء بعض الفتيان، الأكثر جُرأة ومغامرة، في كروم الرمان، لرؤية اللعبة والصبايا، وسماع العتابا، التي تَصْدح بها الصبايا الصغيرات.

ولا تنتهي لعبة موسم الرمان إلا حين تزفُّ «جلْنار» إحدى الفائزات، عروساً

للموسم ولزهر الرمان، وتُغني ما يُسمّيه المراشدة «حِداءً» في ليلة «سامر العروس»:

– «يا بنْتِ شيخَ العَرَبْ، يا تُرْكُمانيّهْ،

والثُوبِ جَرّارِ، والحَزْمِهْ لَوَانديهْ»

في هذا العام، وحين طاب الرّمان، لم تسمح الامهات للصبايا الصغيرات بالذهاب الى كروم الرمان الشرقية، للعب «جلْنار». كان الحزْنُ والجفاف قد غيّر مزاج الجميع. أما «رشيدة»، ابنة «العم توما»، فقد كانت أكثر الجميع حُزْناً وألماً. فقد جاءها الرعاف مبكراً، وبلل الدم صدر ثوبها الزاهي، وكان أول عام تحلم فيه أن تأتي «جلْنار»، وتتوجها عروساً للموسم ولزهر الرمان. ومن فرط فرحها وسعادتها، فانها ذهبت بالأمس الى كرم الرمان، واختارت حبتي رمان، هما الأكثر نُضْجاً في الكرم كله. وحين عادت الى البيت، واخبرتها امها، انها لن تسمح لها غداً بالذهاب الى كروم الرمان الشرقية، انفجرت «رشيدة» بالبكاء، ثم ألقت بجسدها بحرقة على الفراش، فتمزقت قشور الرمان الناضجة، في صدرها، وسال عصير الرمان الشهيّ، وبلّل ما تبقى من ثوب «رشيدة»، التي حلمت بيوم عيد مشتهى، ولم يأتِ..!

أقبل الخريف، وأمْعن أيلول في لياليه، إلا أنه لم يصل الى «عيد الصليب والزبيب». فالشمس لم تدخل بعدُ «برج الميزان»، بحسب تقويم أبونا عساف. وفي احد الايام، وبعد أن عاد الجميع الى بيوتهم، والمواشي دخلت حظائرها، وقبل أن تغطس الشمس خلف التل الغربي، علتْ أصوات النواقيس، في دير ورق، فذهل الجميع. لم يكن وقت صلاة، ولا حتى يوماً يجتمع فيه الناس لها. وحتى الشيخ مرشود، استغرب، فأبونا عساف لم يفْعلها منذ سنوات طويلة، وليس هناك شيء طاريء يستدعي قرْع الاجراس.

ازداد قرع الأجراس، فتقاطر الناس الى بيت الخوري عساف، وهو ما يسميه المراشدة «دير بُونا عساف». وفي الحقيقة، فهو لم يكن ديراً تماماً. كان عبارة عن بيت صغير من الحجر، وهو بيت «بونا عساف»ايضاً، ويتصل به، بشكل منفصل، قاعة واسعة من العقد الحجري، ويرتفع قرب احدى زواياها برج حجري صغير، يتدلى من داخله حبْل طويل، يصل الى الأجراس المعلقة في اعلى قبة البرج. وفي القاعة، ترتفع منضدة خشبية عن الأرض، قرب الباب، الذي يفضي الى بيت الخوري عساف. وعلى جانبي القاعة هناك مقعدان حجريان طوليان، يمتدان من اوّل القاعة الى اخرها، وفي الوسط تتناثر مقاعد خشبية، من صنع يدوي، بشكل غير مرتب. وقرب المنضدة هناك «جُرْن العماد»، و«المركعة» و«بلاطة المذبح» الصغيرة. وهناك خزانتان صغيرتان قرب الباب الخلفي، بالاضافة الى بعض الصور المعلقة على الجدران لمريم العذراء وطفلها، وليسوع المسيح مصلوباً، وعلى رأسه اكليل الشوك، بالاضافة الى صورة جانبية للقديس (جورجيوس)، يمتطي صهوة جواده، ويقتل التنين برمحه.

ما ان وصل أهل الدير الى بيت الخوري، وعلى رأسهم الشيخ مرشود وضاحي، حتى توقف قرع الأجراس. ثم توافد الناس الى داخل القاعة، بينما انتحى الخوري عساف بالشيخ مرشود جانباً، حيث أخبرهُ «أنه رأى أن يقيم في الناس صلاة طارئة»، وذلك لما يراه «من تهافت وتعب في نفوس اهل الدير»، بسبب الجفاف، الذي طال، والذي لم يُقدّر أحد «أن يهدّ حيل الناس ومعنوياتهم بهذا القدر». تهلل وجه الشيخ مرشود، حين سمع هذا الكلام، وربت على كتف ابونا عساف، وقال بصوت بدا مفعماً بالحنان:

– الله يديمك إلْنا يا بونا.

ثم عاد الى مكان الرعية، حيث بقي الجميع وقوفاً طوال الصلاة، وابتدأ

الخوري عساف صلاته وعظته:

«يا قلب يسوع المُنْسحق لأجل آثامنا إرْحمنا إرْحمنا

يا قلب يسوع المطعون بالحربة إرحمنا إرحمنا.

يا قلب يسوع ضحية الخاطئين إرحمنا إرحمنا.

يا قلب يسوع رجاء مَنْ به يموتْ إرحمنا إرحمنا.

يا حَمَلَ اللهِ الحامل خطايا العالم إغفر لنا يا رب.

يا حمل اللهِ الحامل خطايا العالم إرحمنا إرحمنا».(1)

ثم توقف «بونا عساف»، بعد أن تصبب جبينه عرقاً غطّى ما تبقى من وجهه، وتناول منديلاً من جيب سترته، ومسح وجهه، وبدأ يرتّل بصوت رخيم، كأنه آت من واد سحيق:

«أيها الإله الضابط الكلي، السّرمدي، انظر الى قلب ابنك الحبيب، والى المجد والوفاء اللّذين يؤديهما إليك عن الخُطاةْ، وهدّيء غضبك، واغْفر لنا نحن الطالبين رحمتك...».

دوّى في القاعة صوتٌ جماعي عميق، بدا رنّاناً وخارجا من جوف رجل واحد:

«آمين».

أشرق وجه الخوري عساف، وطوى الكتاب الكبير، الذي كان يقرأ منه، ثم رفع أكمام ثوبه الأزرق الطويل، وضم يديه الى صدره، وحدق في سقف القاعة العالي، وانساب صوتُه، رقيقاً، ناعماً، دافقاً كنهر:

«تعالَ أيها المسيحْ، أشْرقْ لنا وجهاً صبيح

بهِ القلوبُ تستريح، تعالَ إرْحمْ تعالْ.

هاحُسْنُكَ الأسْنى استحالْ، الى البِلىَ بعد الجمالْ،

هيّا فلا تُبطيء تعالْ.

قد عمّ جِنْسَنا الفسادْ، وعاثَ إبليسُ وسادْ

إنْ لم تَدَاركْنا نُبادْ، تعالَ إرحم تعالْ».(1)

ثم صمت فجأة، واخذ نفسا عميقاً، وأبصار الناس معلقةٌ بصوته، ثم أنزل يديه المضمومتين عن صدره، وظل بصره شاخصاً الى الأعلى، وأنطلق صوته بايقاع متهدّج، بدا كانه خبب خيل راكضة:

«يا ذا المسيحُ المنتظرْ

متى تُخلّصُ البشرْ

هلمّ وانزلْ كالمطرْ

بدّلْ شقانا بالنِعمْ

واكشف دُجى الليلِ البهيمْ

صُنّا بهدْيكَ الوسيمْ

تعال ارحمْ تعالْ

تاه الملا عنْكَ وحادْ

ضاع الهُدى والكُفْر زاد

تعالَ نوراً للعبادْ

إنّ الزّمانَ قد حضَرْ

كما تنبّا مَنْ غبرْ

عجّلْ فقلبُنا انفطرْ

تعال إرحمْ تعال»(1).

في اليوم التالي، لم يكن احد سعيداً كما كان الشيخ مرشود. اذْ لم يكن يتخيّل أن صلاة كهذه يمكن أن ترفع معنويات وهمم أهل الدير هكذا. ولو كان يعرف، لطلب من «بُونا عساف» ذلك، منذ زمن طويل. وحتى هو، فقد أحس أن همّته قد تغيرت بعد صلاة الدير، وما أشاعه الخوري عساف في الناس من تفاؤل وحيوية. تغير مزاج القرية، ودبّت الحركة فيها من جديد، وحتى الرجال صاروا اكثر ميلاً للخروج الى الصيد...

وما زاد الشيخ مرشود انشراحاً هو انه بعد يومين، من صلاة الدير، ثار غبار بعيد في الجهة الشرقية من البلدة، فجاء من يخبره بذلك، وما هي إلا ساعة، حتى كان الشيخ عسران وزوجته وثلاثة فرسان ضيوفاً على الشيخ مرشود والمراشدة.

مضتْ أيام الراحة والضيافة، وتبادل الشيخان أخبار «الديرة»، والعربان، والقرى الغربية، والمرسلين الأجانب. فسأل الشيخ مرشود عن الذي يجري بين العربان من غزوات وانقسامات، وعما يفعله رشيد باشا، حاكم حوران، بين شيوخ العشائر الشرقية. وسأل الشيخ عسران عن أحوال السلط، والحصن وعنجرة وعجلون، وما الذي يفعله

المرسلون الأجانب، بين أهل القرى والعشائر والعائلات. ثم توقف الحديث طويلاً عند موسم الجفاف وانحباس الامطار في العام الماضي، وأثره على العربان ومواشيهم، وعلى قرية الدير ومحاصيلها.

وبعد أن مضى اسبوع على مجيء الشيخ عسران، الى دير ورق، قال للشيخ مرشود «البلاد طلْبتْ أهلها»، فأصرّ الشيخ مرشود على ابقائه يوماً آخر للخروج الى الصيد. وبالفعل، خرج الشيخان، في اليوم التالي، الى الصيد. وما ان انتصف النهار حتى جاء من يخبرهم بأن زوجة الشيخ عسران وضعت مولوداً ذكراً، حيث كانت في اسابيعها الأخيرة من حملها، وتعاني من اوجاع ثقيلة، خشي فيها على حياة من في بطنها، وهو السبب الذي جاء بالشيخ عسران في هذه الزيارة الطويلة.

ما ان سمع الشيخ مرشود الخبر حتى تلفّت حوله باحثا عن البندقية. كانت بندقيته في سرج الفرس التي تبعد قليلاً عنهما. فتناول بندقية الشيخ عسران، من على كتفه، وصوب نحو الامام، وأطلق. ثم استدار نحو الشيخ عسران وعانقه، والبندقية بين صدريهما، ودخان البارود ما يزال يتصاعد منها. وما ان انتهى عناق الرجلين حتى كان الرجل، الذي جاء بالخبر، يقف أمامهما، حاملاً أرنباً بريّاً من اذنيه، وقال:

– يا شيخ مرشود، طلقْتك صابت هذا. ابتسم الشيخ مرشود، وقال:

– هذا بشارتك يا وليدي. إسْبقنا عالدير.

في اليوم التالي، بدا الشيخ عسران غريباً، وغارقاً في افكارٍ بدت مبهمة للشيخ مرشود. وحين ألحّ عليه، لمعرفة سبب شروده، أخبره الشيخ عسران بأنه لا يعيش له أولاد، وأنه يتمنى أن يُعمّد إبنه هذا عند الخوري «بلْكي الله يعطيه عُمر». وبالفعل، استطاع الشيخ مرشود اقناع الخوري عساف بتعميد ابن الشيخ عسران، بعد أنْ مانع

الخوري في البداية. وحين سأل أبونا عساف الشيخ عسران، ماذا يريد أن يسميه، أجاب على الفور: مرشود. فتهلّلت اسارير الشيخ مرشود، وأكمل «وأنا عرّابه، الله يْجعلُه من طويلين الاعمار».

حين أمسك الخوري عساف الطفل الصغير مرشود تردّد، ارتعشت يداه.

(4.3.2.1) – كتاب الاناشيد الروحية/مصدر سابق

كيف يمكن أن يُعمّد طفلاً غير مسيحي بحسب تعاليم الدين المسيحي؟ وارتعش ضميره الديني، خوفاً من أن يموت الطفل نتيجة هذا العماد المسيحي. وبسرعة، لمعت في ذهنة فكرةٌ، راقت له كثيراً. وهي أن يغطّس يدي الطفل ورجليه في جُرْن العماد، أي تغطيساً جزئياً، وليس تغطيساً كاملاً، كما يفعل مع أطفال المراشدة. هدأت مشاعر الخوري، واطمأن ضميره على الطفل، وارتاح الى انه لم يُحرج الشيخ مرشود أمام ضيفه وصديقه الشيخ عسران.

رحل الشيخ عسران، بعد عماد ابنه مرشود الصغير بيومين، وبقيت زوجته وطفلها في دير ورق، باصرار من الشيخ مرشود «حتى تستعيد عافيتها»، ثم تعود اليهم «معزّزة مكرمة».

اقترب أيلول من أواخر أيامه، و«اعتدل الليل مع النهار». وصار آخر الليل يزداد برودة، حيث «يُكْره النوم تحت السماء». وحتى الشيخ مرشود، الذي يكره النوم تحت الاسقف، ويبقى حتى أيام الشتاء الاولى ينام في العراء، اضطر نتيجة برد ليالي أيلول الأخيرة الى النوم في الليوان. وهو ما زاد الأمل والرجاء في شتاء مبكر، وموسم أوفر حظاً

من العام الفائت، بعد أن اصفرّت أوراق الشجر، قبل أوانها، وصارت أقرب الى السقوط...

(1) – جميع الاناشيد الروحية الواردة مأخوذة من كتاب الأناشيد الروحية للأب كراس ينْ الكرملي / ميتم الاباء الكرمليين في بغداد / العراق، مطبعة المساحة – بغداد 1946 / وتعود كتابة هذا المخطوط إلى العام 1931 م.

وجاء تشرينٌ آخر، وابتدأ المراشدة بزراعة الشعير، في الحقول الشرقية، تفاؤلاً ورجاءً بموسم غيث وفير. أما أبونا عساف، فقال ان «الشمس دخلت في العقرب»، وان «القمر سينخسف بعد يومين، وسيشرق مخسوفاً»، وهو ما حدث بالفعل، فتشاءَم المراشدة، من الموسم، حين أشرق القمر مخسوفاً. حتى ان معظمهم تباطأوا، عن جمع

الزيتون، الذي جاء أوانه. وفي الحقيقة، فهو لم يكن يستحق الجمع، ولا التعب الذي يحتاجه، فقد أضرّ به بشكل كبير شُحُّ الأمطار، وقلة غيوث العام الماضي.

وعلى الرغم من هذا التشاؤم، الذي احدثه شروق القمر مخسوفاً، وعدم مجيء الرياح والغيوم، التي تبشّر بالأمطار، فقد زرع المراشدة «القمح البدري»، في الحقول الغربية، وربما كان هذا بسبب بقايا ما أحدْثته صلاة «بُونا عساف» وقدّاسه، في نفوس المراشدة. وبعد أيام، وحين ظهرت أسراب القطا، في حقول الشعير الشرقية، قالت الجدة حنة «سَنْةِ القطا، بيْعِ الغطا»!، عنْدها، أيقن المراشدة باخفاق الموسم الزراعي، وأنّ عاماً جديداً من القحط ينتظرهم، وينذر ببيع الزُرّاع لمفروشات بيوتهم، تداركاً للقوت والغذاء. حينها، ثقُلتْ أبدان الرجال، وفترت الهمم، وأنهت «طيور القطا» آخر شُحنة ايمانية، احدثتها صلاة ابونا عساف الأخيرة، في نفوس وقلوب المراشدة.

قبل أن يتيقن المراشدة من انحباس الامطار، وموسم الجفاف الثاني، الذي كان ينتظرهم، كانت الأخبار والمراسيل قد تواترت على الشيخ مرشود والخوري عساف، بقرب وصول «بَطْرك القدس اللاتيني»، عن طريق حوران، قادماً من بيروت ودمشق. وفي الأشهر الماضية، حين كان ابونا عساف يُلحُّ على الشيخ مرشود، بضرورة الموافقة على الذهاب الى «الرمثا»، لملاقاة «البطرك» واستقباله، كان الشيخ مرشود يماطل ويسوّف، مبدياً عدم الاهتمام، وعدم الرغبة في المشاركة في استقبال هذا «الراهب الأجنبي». وحين كان «بُونا عساف» يشرح له «بأنه ليس راهباً»، ولا «خورياً»، بل هو اكبر شخصية دينية، عيّنها «البابا بيوس التاسع»، بابا الفاتيكان في روما، وانه أعاد تأسيس «بطريركية اللاتين الاورشليمية» الاولى في القدس، منذ ما يقارب خمسة وعشرين عاماً، وهي أول بطريركية للاتين منذ الحروب الصليبية، فإن الشيخ مرشود، كان يرد بشكل مقتضب وغامض «إحْنا ما نِعْرفْ خوري

غير بُونا عسـاف، وربْنا نِعرْفُهْ بقلوبنا، وما نحتـاج أجنـبي يْدلْنـا علـى (عَ) بْواب السمـا».

لم يكن الشيخ مرشود، برغم ذكائه، وحرصه على متابعة ما يجري حول دير ورق، سواء في القرى الغربية، أو بين العُربان الشرقية، يعرف أن مصير ومستقبل دير ورق لم يعد يُقرّر فيها، لا هي ولا القرى الغربية، ولا حتى حوران والشرق كله.

وبالفعـل، فمنـذ اليـوم الأول، الذي عـين فيـه البابـا بيـوس التـاسـع، في رومـا، البطريـرك «جـوزبّـه فـاليركـا» عـام 1847، لإعـادة «البطريـركيـة اللاتينيـة الاورشليميـة» الى الوجـود، ازدادت وتيـرة الصـراع السياسـي بين فـرنسـا وروما

على مصالحهما في الشرق. فهذا البطريرك السرديني المولد والجنسية، قبل أن تُضم لاحقاً سردينيا الى المملكة الايطالية، لم يُعجبْ فرنسا، التي ترى أنها حامية الكاثوليكية في الشرق. وبالرغم من أن قرار البابا تم بناء على تنسيب بالاجماع، من «مجمع نشر الايمان»، إلا أن الحكومة الفرنسية ظلّت ترى فيه، شخصاً وُلد في جنوه، ويشكل خطراً على مصالح فرنسا في الشرق. وما أكّد مخاوف الفرنسيين من «فاليركا» هو أنه أصبح اكثر استقلالية، في السنوات الأخيرة، وصار يتعامل مع تركيا مباشرة، وفاوض الأتراك أيضاً، دون الرجوع الى الفرنسيين، على «حماية الكاثوليك في الشرق». وهو ما كان يرى فيه الفرنسيون اضراراً وتغييراً في هذه الحماية، التي كانت تتولاها بمعاهدات مع الدولة التركية، وهو ما سيحوّل أيضاً «مصالح اللاتين، في الشرق، الى لُعبةٍ بيد الاتراك»، وفي نهاية المطاف بيد «الروس». وقد أشارت الى شيء كهذا يوميات واوراق البارون «ميخائيل سيمونس»، الذي عاش مع

البطريرك «فاليركا»، في تلك الفترة، ورافقه في الرحلة الأخيرة لرعاياه في بلاد الشام، قبيل وفاته بأشهر.

أما على الأرض، في القرى الغربية لدير ورق، فإن هذا الصراع السياسي لم يكن ملحوظاً. وهو ما جعل الشيخ مرشود غير آبه بالمراسيل، التي كانت تصله، لحضّه على المشاركة في استقبال البطريرك. فقد كان يرى أن هذا البطريرك وكهنته هم مَنْ أدى الى شقّ العشائر والعائلات في القرى الغربية، باسم «توحيد الكاثوليك» والكثلكة، أو ما يُسّمونه «اللتننة».

منذ أنْ لاحت طيور القطا، في حقول الشعير الشرقيــة، تغير ضاحــي السعادة تماماً. ضــاق صــدره، وصــار أكثــر انفعالاً، واقل قــدرة علــى تحمــل أبســط المداعبــات. وحتــى الصيــد، الذي كان يشغل به معظم الوقت، عزف عنه. واصبح اكثر ميْلاً الى العُزْلة والبقاء وحيداً، حتى انه لم يعد يرى الشيخ مرشود، إلا قليلاً، أو حين يُرسل الشيخ في طلبه.

وفي أحد المساءات، أرسل الشيخ مرشود في طلبه. كان هذا حين ألحّ عليه الخوري عساف، مرة اخرى، بضرورة مشاركة وفد من الدير في استقبال البطريرك في «الرمثا»، حيث لم يبق على الموعد إلا أيام. وحين جاء ضاحي تغيّرت كفة الحديث لصالح الخوري، وهو ما فاجأ الشيخ مرشود، ولم يكن يتوقعه. وخطر بذهن الشيخ أن الجفاف، والرغبة في السفر، ربما كانا هما السبب فيما قاله ضاحي، فقد كان يعرف نفوس رجال المراشدة وشبابهم، تماماً، ويعرف أن السفر والرحيل هو ما يفكر فيه الرجال حين تبخل السماء بمائها، وتجفُّ الارض، أما أن يفكر ضاحي بهذا(!) فهو ما لم يخطر بباله قط.

ما ان جاء اليوم المحدد لوصول البطريرك حتى انطلق الشيخ مرشود والخوري عساف وضاحي، يرافقهم فارسٌ آخر من المراشدة، نحو شمالي حوران، حيث قرية «الرمثا». وفي الطريق، سأل الشيخ مرشود الخوري عساف، دون أن يلتفت اليه:

– «ايش قلْت إسْمه يا بُونا»؟

فأجاب الخوري عساف، بحماس بطيء، كي لا يُخطيء في نطق الاسم: – «جوزبّه. البطريرك جوزبّه فاليركا، يا شيخ».

فرفع الشيخ مرشود حاجبيه، وهزّ رأسه قائلاً، بعد أن لكز فرسه لتُسرع في سيرها:

– «آه. البطرك يوسف، يعْني»!

بعد أن حسم المراشدة أمْرهم، بالمشاركة في استقبال البطريرك، فضّل الشيخ مرشود، الذي وافق على مضض، أن يخرجوا من دير ورق عند الفجر، وذلك «لأنّ سُلْطان النهارْ، أوّلُهْ».

أما قافلة البطريرك، فقد باتت ليلتها الماضية في الرمثا، وعند الفجر، انطلقت باتجاه جبال جلعاد، قاصدة قرى الحصن وعجلون والسلط، بعد أن انضمت اليها وفود من هذه القرى. في ذلك اليوم، كتب «البارون ميخائيل سيمونس»، الذي كان يرافق البطريرك، في يومياته:

«عند الضحى، وقبل انتصاف النهار، شاهدنا ثلة من الخيّالة، من بعيد، تقترب من موكب البطريرك، وفجأة، ثارت رياحُ الخماسين، وهبّت عاصفة رملية، حجبت

الرؤية، وجرّحت الوجوه. حتى أنها قلبت بعض الأمتعة المحمّلة على ظهور الجمال، فانتابنا خوف شديد، ولم نعد نرى الفرسان الذين رأيناهم قبل العاصفة».

«وما هي إلا بُرهةٌ من الوقت، حتى بدأت العاصفة تنحسر تدريجياً، ولم يبق منها سوى زوابع، وأعمدة من الغبار الطويل، تزحف بسرعة باتجاه الجنوب الغربي، وكلمح البصر، شق أعمدة الغبار أربعة فرسان، ملثمين بكوفياتهم البيضاء، وبدا لنا، وأبصارنا شاخصة الى بقايا العاصفة الرملية، أن هؤلاء الخيّالة قد خروجوا من زوابع الغبار واعمدته. والصحيح، أنهم كانوا الخيّالة الذين اختفوا عن انظارنا قبيل العاصفة. وما هي إلا لحظات، حتى كانت خيلهم تنهب الارض نهباً، وتضعهم أمام القافلة، وكأنهم سقطوا من السماء. ثم تعالت أصواتهم، مهنئين لنا بالسلامة من العاصفة الرملية».

«تقدم واحد منهم، ويبـدو أنه شيخهم، وحسر لثامه الأبيض عن وجهه، واقترب من البطريـرك، وحيّاه من بعيد بكلمـات مقتضبة، ملوّحـاً بيده، وانْضـم الى القافلـة. ثم تلاه رجل دين، بلباس راهب أزرق اللون، واقترب من البطريرك

اكثر، وصافحه بيده، وحنى رأسه قليلاً، باتجاه يد البطريرك، ثم تراجع بسرعة، بعد رمقه الرجل الاول بنظرة غريبة. أما الرجلان الآخران، فقد ألقيا التحية على البطريرك من بعيد، ولوّحا بيديهما، وانضما للقافلة. وعند اقترابهما مني، عرفت أنهم من دير ورق، وهي قرية مسيحية، لم اسمع بها مِنْ قبْل. ويبدو أن لهم طبيعة مختلفة عن أهالي القرى الأخرى، وهو ما أثار فضولي، ودفعني، الى زيارتها. وعزمت على ذلك، منذ تلك اللحظة».

«وما ان بدأت القافلة تمعن في سيرها حتى تقاطرت وفود الفرسان، القادمة من القرى الأبعد، علينا. وكانوا يحيّون البطريرك، ويقّبلون يده، ويرحبون به لزيارة قراهم، ويطالبونه بفتح إرساليات تبشيرية فيها. وحْدهم، فرسان دير ورق، لم يُقبّلوا يد البطريرك، ولم يطلبوا شيئاً، وهو ما أثار استغرابي وفضولي..!».

«حين وصلت القافلة الى مفترق الطرق المؤدية الى بلدة الحصن، انفصل فرسان دير ورق، بهدوء، عن القافلة، واتجهوا شرقاً، بينما اكْملت قافلة غبطته طريقها غرباً. في تلك الاثناء، كنت قد تعرفت على هؤلاء الفرسان. وعرفت أنهم من المراشدة، وقد أثار إعجابي أحدهم، واسْمه «ضاحي»، واتفقت معه أن أعود الى قريتهم، بعد شهر تقريباً، حين تنتهي زيارة غبطته في بلاد عبر الاردن، ويعود الى القدس. أما شيخهم مرشود، فقد ظل صامتاً طوال الطريق، وكذلك فعل الخوري عساف، الذي بقي قريباً من الشيخ طيلة الوقت».

أما الخوري عساف، فقد كتب في اوراقه، عن ذلك اليوم، انه «حين رأينا قافلة البطريرك، من بعيد»، هاجت رياحُ الصبا، وهي رياحٌ شرقية، عاتية وجافّة. ولأن «الامطار لم تسقط بعد»، فإن الأرض كانت رخوة، فأثارت ريح الصبا، في طريقها، عاصفة من الرمال، وهي «ما جعلنا نُلَثّم وجوهنا بكوفياتنا»، ونحثُّ الخيل على السير بأقصى سرعة، وبعكس اتجاه العاصفة، كي نخرج منها بأسرع وقت».

حين انضم وفد المراشدة الى قافلة البطريرك، وسار الركب مسافة، سأل الخوري عساف الشيخ مرشود، «عن رأيه فيما يرى ويسمع»، فأجاب الشيخ مرشود، بلهجة مقتضبة، وبصوت حرص ألاّ يسمعهُ إلا الخوري:

– «شياطين دِيْرتْنا، ولا ملايكةْ بْلادْ جُوّى!».

بعد زيارة البطريرك، ازدادت الأخبار القادمة الى دير ورق، من القرى الغربية، عن وعود بفتح مرسليات ومدارس فيها، في الوقت المناسب. وحين جاءت الأنباء، بأن البطريرك دشّن في زيارته كنيسة في السلط، وأن القائم مقام ورجال الحكومة قد رحبوا به بحفاوة، وكذلك فعلت اكبر عشائر السلط ورميمين والفحيص، ظل الشيخ مرشود: يردد «صيّور المخبّا، يا حبيب يْبانْ!».

لم يمض شهر على مجيء البطريرك الى حوران وقراها، حتى وصلت الأخبار من القدس الى دير ورق، بأن البطريرك «يوسف فاليركا» مات. وبعد اسبوعين تقريباً، من خبر الوفاة هذا، وصل الى دير ورق البارون «ميخائيل سيمونس»، يقوده دليل من أقارب المراشدة في الحصن.

خرج الرجال لاستقبال الضيوف على الطريق الغربية. وما ان وصل البارون «سيمونس» ورفيقه الى بيت الجدة «حنه»، الذي يقع بالقرب من منعطف الطريق الغربية، حتى وقع ما لم يخطر لأحدٍ على بال. كانت الطريق الترابية ضيّقة ومتعرجة، وخيلُ القادمين تسير على مهل، خوفاً من التعثر والسقوط، نتيجة لانحدار الطريق الحاد. وما ان وصل القادمون الى المنعطف، حيث بيت الجدة حنه، حتى سدّ الطريق الضيّقة كائن غريب، أثار فزع الخيل، فجفلت وبدأت بالصهيل، قبل أن ينتبه القادمون الى ما حدث. وحين استعادوا روعهم رأوا عجوزاً، تُمسْكُ بعصى رفيعة، وتلوّح بيديها في الهواء، وتصرخ. كان شكلها، الغريب، يخلع القلوب من الصدور، اذ كان جبينها معصوباً بنسيج أحمر، يتدلى من تحته شعرها الأشيب منفوشاً، ويغطي جزءاً من وجهها وصدرها، وعيناها كانتا شاحبتين وشاخصتين نحو الغرب، ويتدلى من رأسها، وصدرها، اجراسٌ صغيرة، تُصدر رنينا كلما تحركت. وحينما جفلت

الخيل، وبدأت بالصهيل، جلست المرأة على الأرض، وبدأت تئن وتصرخ وتتوجع، وتحثو التراب على رأسها، وبعد قليل بدأت تُزْبد، ويسيل لعابها على صدرها، الذي كان مكشوفاً. تسمّر البارون «سيمونس» ورفيقه، في مكانيهما، من هذا المشهد، ولم تستطع خيلهم أن تتقدم، إلا أنها توقفت عن الصهيل.

ما انْ إنتبه ضاحي والرجال، الذين كانوا في آخر طريق القرية، من جهة الوادي، الى هذا الوضع، وكانوا في طريقهم لاستقبال الضيوف، حتى أسرعت خيلهم الى هناك. كانت الجدة «حنه»، في حالة يُرْثى لها، ولم يرها أحدٌ بهذا الشكل من قبل. وحتى الخوري عساف والشيخ مرشود، اللذان وصلا بعد قليل، فإن الدموع ترقرقت في عيونهما، وبدءا برفعها من كتفيها، لحملها الى البيت.

رافق ضاحي الضيوف، وانصرف الجميع، وبقي «بونا عساف» والشيخ مرشود عند الجدة حنة في بيتها. الغريب، أنها ظلّت فترة طويلة في حالة من الهذيان واللطم على صدرها، حتى بعد أن قام الخوري بتنظيفها وتهدئتها، والدعاء على رأسها، واضعاً يده بقوة على جبينها.

لم يفْهم أحدٌ شيئاً، مما كانت تقوله الجدة حنة، في الحالة التي كانت فيها. أما الشيخ مرشود، فقد انتبه اليها، حين وقعت عيناها على البارون «سيمونس»، وبدأت تصرخ وتولول : «طرابيش حُمُرْ، ووْجوهْ صُفُرْ، اللّهْ يْساعدنا على باقي هالعُمُرْ!». أما حين كان «بُونا عساف» مشغولاً بالدعاء على رأسها، فقد كانت تتمتم بصوت بدا كالأنين، سمعه الشيخ مرشود بصعوبة، «كُلْ ما طالتْ، ترمي غْمورْ، انْتبْهُوا يا مراشدهْ!».

أما البارون «سيمونس»، فلم يتوقف طويلاً عند هذه الحادثة، بالرغم من أنّها خضّته، بشكل كبير، منذ لحظة وصوله الى دير ورق. وفي اليوم التالي، بدأ بالتجول في القرية، والالتقاء مع الناس، والتعرف على عاداتهم وتقاليدهم. ولم يمض اسبوع، على زيارته للدير، حتى كان قد تعرف وزار كل مكان فيها، وفي نهاية كل يوم، كان يسجّل، في دفتر صغير يحمله، كلّ ما رآه وسمعه.

نام البارون «سيمونس» ليلته الاولى في خان القرية الصغير، الذي يقع قرب سوق الدير، في نهاية الوادي. وحين رافقه ضاحي، في تجواله، في اليوم التالي، أصرّ عليه أن يقيم في بيته، قُرْب «عين علْيا»، على سفْح القرية الشمالي، وهو ما رحّب به بحماسٍ البارون «سيمونس». ولم تمض عشرةُ أيام، على إقامته، عند ضاحي، حتى عادا لا يفترقان ليلاً أو نهاراً. وبدا لمعظم المراشدة أن الأمر ليس مجرد ضيافة، وأن اقامة هذا الغريب طالت اكثر مما يجب. اما الخوري عساف والشيخ مرشود، اللذان أبديا نفوراً ملحوظاً من البارون «سيمونس»، منذ حادثة الجدة حنه، والذي فُسّر بين المراشدة بنذير لأحداث مشؤومة قادمة، حتى هؤلاء فقد أبدوا امتعاضاً من هذه الزيارة الطويلة، التي لم يعدْ لها ما يبررها.

صحيح، أن المحْلَ والجفاف ما يزالان مخيمّين على احوال المراشدة ونفوسهم، إلا أن الشيخ مرشود لم يتخّيل أن نبوءة الجدة حنه وتشاؤمها قد تكون سريعة حتى هذا الحد. فبعد اسبوعين، حين أخبره ضاحي، على استحياء، برغبته في الرحيل مع البارون «سيمونس»، حضرت في ذهنة صورة الجدة حنه بكامل هيئتها، حين دخل هذا الضيف الأجنبي القرية لأول مرة.

تهالك الشيخ، وغامت الاشياء في عينيه، حتى ان ضاحي، الذي كان يقف أمامه، لم يعد واضحاً، صار خطوطاً شاحبة، ثم تبخّرت.

كان سفر ضاحي قد ألح به اليه البارون «سيمونس»، حين التقاه لأول مرة، في موكب البطريرك. وهو السبب الذي جاء به الى قرية دير ورق، بالاضافة الى رغبته في معرفة المزيد عن المراشدة وقريتهم، التي سمع عنها الكثير، في القرى الاخرى، التي زارها. وخلال الايام العشرة الاولى، التي أقامها في الدير، اتّفق مع ضاحي، ان يرافقه في رحلاته، التي ستطول، نحو الجنوب، حيث العشائر والقرى المسيحية، ثم الى يافا والناصرة، وقد يرافقه الى «ايطاليا»، إنْ رغب، بعد أن تنتهي جولته في القرى البعيدة. والهدف من هذه المرافقة هو أن يكون دليلاً له، في هذه البلاد، وحامياً من أي أخطار قد يواجهها، بعد أن رأى وعرف ان ضاحي أهم فرسان المراشدة، مقابل أجرٍ كان مغرياً لضاحي، بعد عامين من الجفاف وضيق الصدر.

لم يترك الشيخ مرشود ولا الخوري عساف وسيلة لثني ضاحي عن قراره بالسفر، إلا وجرّباها، ولكن بلا جدوى. وفي يوم رحيل ضاحي، خيّمت أجواء غريبة من الحزن على المراشدة... كان الجميع يودّعونه، وكأنه لن يعود! وحتى ضاحي بدا متأثراً، في هذا اليوم، بشكل لم يقدّره من قبل، حين اتّخذ قراره بالسفر. وحين عانق الشيخ مرشود، مودّعاً، أحس كُل منهما بدموع الآخر على كتف صاحبه، وتهدّج صوت ضاحي، خافتاً، تسبقه أنفاس كتمها الدمع:

– «وْداعتْكْ، عُقْلهْ، يا شيخ مرشود».

عندها، أمسكه الشيخ مرشود، من كتفيه، وابعده عنه قليلاً، وقال بصوت أراد أن يكون صارماً ومتماسكاً:

– «ديرْ بالكْ على حالكْ، وبسْ. وارْجع إلْنا بالسلامة، ولا تْطوّلْ غيبتكْ».

في تلك الأثناء، لم يكن يشغل بال البارون «سيمونس» سوى المرأة العجوز، التي أرْعبته في اليوم الأول لوصوله الى دير ورق، وكيف سيمر قرب بيتها ثانية؟ وما الذي يمكن أن يحدث عندها؟ وظلّ باله مشغولاً، حتى بعد أنْ ربّت ضاحي على كتفيه، مطمئناً، بأنه لن يرى الجدة حنه، ثانية، وأنها امرأة مبروكة..

وبالفعل، حين مرّت الخيل، قرب بيتها، على الطريق الغربية الوحيدة، لمن يريد الاتجاه غرباً، فإن شيئاً لم يحدث. ولم تخرج الجدة حنه، إلا أن فرس البارون «سيمونس» أسرعت قبل الاقتراب من بيتها، أما فرس ضاحي فقد تباطأت، وحين اقتربت من بيتها، سمع ضاحي صوت الجدة حنه، قادماً من بعيد، مكتوماً وكأنه «ترويد» او «تعديد»: «إنْ غابْ سرحان البلادْ، قيّلْ فيها يا ابُو الحْصينْ ونام!»، فسرتْ في بدنِهِ قشعريرة، ثم سالت في عظام ظهره، كانها خيط ماء طويل..

أما الشيخ مرشود، فلم يشأ أن يرافقهم، الى خارج القرية، وصعد على ظهر الليوان، وظلّ يراقبهم، حتى اختفتْ خيلهم بعد نخلتي الطريق الطويلتين.. في ذلك النهار البعيد، الذي لا يُشْبه نهاراً قبْله، أصاب الشمس نُعاسٌ مبكرٌ، وأفاقت العتمة في الدير، وغاب ضاحي..

.. ومضى عامٌ آخر.

وبعد أن جاء «عيد مولد العذراء»، بأسابيع، هبّت ريح صَبَا، جفّفتْ رطوبة الجلد، وتلوّحتْ الوجوه، بـ «قشب» كالح. وما هي إلا أيام، حتى تقاطرت من الغرب غيومٌ جِهام، لا ماءَ فيها، عندها، ظهر في حقول الدير الغربية، سربٌ من طيور الزرزور، فقالت الجدة حنّة، التي أصابها الوهن، وعمي بصرها : «سنْةِ الزرزور، احرثْ في الْبُورْ». أما نساء المراشدة، فخرجن الى الحقول الغربية واحْضرن خشبتين، رُبطتا بشكل صليب، وألبسنها ثياباً نسائية مزركشة، وقلّدن عنقها بالقلائد والحليّ، ثم حملتها العيوف، زوجة ضاحي، ورفعتها الى السماء. اكتملت زينةُ «ام الغيث»، عروساً للسماء، تزفّها نساء المراشدة، استسقاءً للزرع والضرع والامهات. ثم تصاعدت اصوات النساء، غناءً ورجاءً:

«ام الغيثْ يا دايمْ بلّي زْريعْنا النايم

بلّي زَرْع الشيخْ مرشود اللّي للكَرَمْ دايم

ام الغيثْ يا دايم اسْقي زْريعْنا النايم»

ثم انقسم جمْع النساء الى قسمين، والتفّ قسم حول الجدّة حنه، وارْتفع الأمل وحماس النساء، حين بدأت الجدة حنه بغناءٍ متهدج، فيه رضى السماء واستجابتها، للأصوات العطشى. ورددت النساء وراءها:

«راحتْ ام الغيثْ تجيبْ الزلازلْ ما جَتْ غير الزرعْ طول السنابلْ

راحت ام الغيثْ تْجيبْ رْيــــــاحْ ما جَتْ غير الزرع طـــــول رْماحْ

راحت ام الغيثْ تْجيبْ رْعودْ ما جَتْ غير الزرع طول قْعودْ»

وما ان انتهتْ الجدة حنه، من هُتاف السماء، ووعدها لنساء المراشدة بـ «الزلازل والرياح والرعود»، التي تجلب الغيث، وتجعل الزرع القصير طويلاً كسنابل القمح، أو بطول الرماح أو «القعود»، ما ان انتهى هذا الوعد، على شفاه الجدة المتشققة، وردّدته النساء وراء ها، حتى احسّت بعض النساء ببعض قطرات المطر تسقط في القلوب العطشى، فتعالت الأصوات ثانية، طمعاً في المزيد، وحثّاً للسماء:

«ام الغيثْ يا دايمْ خلّي سيلْها يدْعجْ

ام الغيثْ يا ربّي إسْقي زْريعْنا الغرب

ام الغيثْ يا دايمْ إسقْي زْريعْنا النايمْ»

تفرقتْ النساء في الحقول الغربية. أما الجدة حنه، فبقيتْ في مكانها، وظلّت زوجتا ضاحي والشيخ مرشود بقربها. جَثتْ الجدة على ركبتيها، ثم قعدتْ تماماً على الأرض. كان وجهها نحو الغرب، وغطــى زرع القمــح الصغير، الذي كانت تجــلس عليــه، ركْبتيهــا وجــزءاً من جسدهــا، فبــدا صدرها ورأسهــا من فــوق الــزرع وكأنها نبتــتْ لتوّها من الأرض. بان شعرهــا الأشيب، وعصبتهــا الحمــراء، التي تعصم جزءاً من جبينها وشعرها الى الخلف، وتدلى من ذوائب الشعر الاشيب قراميل

وفتائل من الشعر والصوف المخضب بالألوان. وبدأ جذع الجدة يهتزُّ، الى الامام والى الخلف، وصوتها همهمةٌ تتصاعدُ ببطءٍ، وكأنها تستجمعُ شيئاً خفياً. اختلجت عضلات وجهها النحيل، ورفعت يديها الى السماء، وجذْعها يهتز بكامله، فانزاحت أكمام ثوبها العريضة والطويلة الى آخر ذراعيها. بدا ذراعا الجدة نحيلان، يتدلى منهما جلدٌ نفرتْ عروقه الخضراء بشكل بارز، وطوّق معصميها سواران عريضان من الفضة. وفجأةً، توقفتْ عن الحركة والهمهمة المكتومة، وبدأت تقطع الزرْع الصغير امامها بكفيها، كأنها تحْصد، ثم اخذت تنثر ما تحصده من الزرع على رأسها وجسدها. وما ان غطى الزرع الأخضر رأسها وثوبها الاسود، حتى رفعتْ يديها الى السماء، وبدأت بالهمهمة وتحريك جذعها، ثانية، الى الامام والخلْف.

في تلك الأثناء، كانت زوجتا الشيخ مرشود وضاحي قد انشغلتا بالقرب منها، بترتيب بعض أوعية الطعام، التي أُحضرت لطقوس الاستمطار. وحين ارتفع صوت الجدة حنه، بابتهالٍ، بدا كأنه خارجٌ من بئر سحيق، انتبهت زوجة ضاحي اليها. كانت الجدة قد تحولت، هي والارض والزرع، الى كتلة واحدة، خضراء داكنة، يخرج منها ذراعان طويلان، نحو السماء. وبحركة الجدة، في صلاتها الغريبة، بدا أن الارض والجدة والزرع، قد تحولوا الى كائن حي واحدٍ، يرفع ذراعيه الى السماء. ولولا حركة الجدة حنه، وصوتها، لتحول المشهد الى ذراعين صغيرين غُرسا في تلة تراب صغيرة، غطاها زرع أخضر.

علا صوت الجدة والارض والزرع، معاً، كأنّه ريحٌ ملهوفة:

– «حيلَكْ يا عْجامْ. غيثَكْ يا عْجامْ.

حيلَكْ يا عْجامْ. غيثَكْ يا عْجامْ».

ثم تهدج صوتها قليلاً، وصار اكثر توتراً ونبراً:

«ربيّ يجْعلْها بدْري.. وعْجام يْفرّج كرْبي

جيت لْعنْدكْ يا ربيّ.. والزَرْعْ يْغطيّ قلْبي

والدير ينادي قبْلي.. غوثكْ، غوثكْ، يا ربّي».

ثم هدأ صوتها ثانية، وصار اقرب الى النواح والرجاء:

«عجّام، يا عجْام، حيلَكْ يا عْجّام».

عادت نساء المراشدة الى الدير، عند العصر، بعد يوم طويل من صلاة الاستمطار. في الطريق، كانت الجدة حنه متْعبة ومنهكة، فاتكأت على زوجة ضاحي، طوال الطريق، اذ كانت تربطهما علاقة خاصة، منذ أن قامَت الجدة بخطبتها من أهلها، في عنجرة، قبل سنوات طويلة. في الأصل، لم تكن «العيوف»، زوجة ضاحي، من المراشدة، وحين تزوجت ضاحي السعادة، بدأت تعرف الكثير عنهم، وعن طبائعهم. أما الجدة حنه، فكانت اقرب نساء المراشدة اليها، ومنها، كانت تتعرف على المراشدة، وعلى دير ورق. وحتى ضاحي، حين كانت تغضب منه، أو يخاصمها لسبب غامض، ويبدي خشونة وقسوة، غير مألوفة فيه، كانت الجدة حنه تقول لها:

– «طوّلي بالك، يا بْنيتيْ. اسْتنيْ للمسا، وشوفي. زعلْ المراشدة عَ نسْوانهم ما يطوّل. بسْ ديري بالِكْ منْ عرضهمْ».

وبالفعل، ما ان يأتي المساء، ويعود ضاحي، حتى تفيض رقّته، حناناً ودفئاً، ترنّ بعدها ضحكات «العيوف»، في جنبات الدار، بعد أن تحول الحنان والرضى بينهما الى مداعبة ومرح. وما ان يأتي الفجْر حتى تكون الأجساد قد ارْتوتْ، بعد أن تحول فيها الغضب والخصام الى حنانٍ دافىء، لا يلْبث أن يصير

اشتهاءً، وعسلاً طافحاً في عيونٍ لا ترتوي إلا بشهدِ الرضاب. في صباحٍ كهذا، تصحو العيوف، قبل ان يسقط أول شعاع للشمس، على عين علْيا، بعد أن ارتوت روحها، بعشقٍ أوهنتُ الأيام حرارته ولهيبه، وبعد أن أعادت ليلة الامس، إلتهاب جمْره من جديد. عندها، تنتقل هذه النارالى «فرن التنور» ويتحول «روثُ المواشي» والحطب الجاف في «التنور»، الى نارٍ يعلو لهيبها ودخانها، فتضيء فجر الدير قبل الشمس. عندها، تكون العيوف، قد «قطّعت» عجين الامس، و«رقّتْ» واحدة منها، لتلْصقها في «بطن التنور»، الذي التهب بنارٍ مكتومة، فتحوّل باطنه الى سطح ساخنٍ وملائم، لانْضاج خبز التنور على مهل. وما ان تشُمّ الذكورة النائمة في ضاحي رائحة النار وخبز التنور، حتى يتمطى فيه الجسد الطويل، المنْهكِ من عشقٍ غامرٍ، استيقظ فيه فجأة ليلة البارحة.

في تلك الأثناء، وبعد اشعال النار، تكون العيوف قد بدأت بـ «حلْب» البقرة، في «البايكهْ» الشرقية. وما ان تسمع صوت ضاحي، القادم من «الدار الغربية»، منادياً:

– «صباح الخير يا عيوف. وين إنتِ».

حتى يعلو صوتها، ممتلئاً بالرضى، وفيه شيءٌ من دلال الامس:

– «صباح النور، جيتكْ يا ابن عمّي».

على صخرةٍ، منبسطة، تقع خارج «حوش» دار ضاحي، ويمكن منها رؤية الشقّ الصخري، الذي تنبع منه عين علْيا، وكذلك كل بيوت الدير وسفوحه، على هذه الصخرة، تكون العيوف قد فرشتْ بساطاً خفيفاً، وأمامه باطية فيها قليلٌ من الحليب الطازج، واللبن الذي يغطي سطحه دوائر الدسم، الذي لم ينزع منه، وقليل من الزبدة والعسل، بالاضافة الى زيت الزيتون والزعتر، وحبّات من الزيتون الاخضر، والزيتون الأسود «المرصوص»، أو ما يسميه المراشدة

«الرصيع».

عندها، يكون ضاحي قد سبقها الى «المصطبة»، كما كان يسمي هذه الصخرة، وجلس ينتظر. وحين يمسك أول رغيف تنور ساخن، ويشقّه إلى نصفين، يعود ويلقي بالخبز على «الباطية»، بشيء من النزق، اعتراضاً على عدم وجودها على المائدة، قائلا بصوت عالٍ:

- «واللّه يا عيوف، صباحْنا صباح رضا. يلّلا يا بنْتْ الحلالْ. اقولّكْ، خلَصْ، بطّلتْ أفْطر».

في تلك الأثناء، تكون العيوف مشغولة بلصق آخر الأرغفة في بطن التنور، وانتظار اخر رغيفين ألصقتهما فيه قبل قليل. وعند سماعها لصوته الغاضب، تخرج يدها من بطْن التنور بسرعة، فيلسعُ أصابعها سقف التنور الحار، فيخرج منها صوت مكتوم، يسحب الهواء الى داخل جوفها، وبشكل عفوي، تنتقل أصابعها الى فمها، ليبلل الريق الباردُ، حرارة ما انتقل اليها من لهيب. وتبرد الأصابع، ما ان تصل الى الريق الرطب، عندها «تكزّ» العيوف بأسنانها على اطراف الأصابع الرقيقة، وتصرخ مجيبة، وفي البال بعض من ريق ورضا البارحة:

- «عونكْ يا ابن الحلال، هيْني إجيت».

وتحمل خبْز التنور الطازج، ملفوفاً بقماش ثقيل، وتقْعد قربه على مائدة «الفطور»، بعد أن تكون الشمس قد ملأت سفوح الدير، ضياءً، ليبدأ ضباب الفجر بالانقشاع عن رؤوس اشجار سفوح الدير.

عبرتْ هذه المشاهد، الحالمة، خيال العيوف، وهي تسند الجدة حنه، طوال الطريق من الحقول الغربية وحتى بيتها. وحين فتحت باب «الحوش» الخشبي

لدار الجدة، كادت تتعثر وتسقط هي والجدة، على عتبة الباب العالية.

قعدت الجدة بتهالكٍ، واسندت ظهرها الى جدار الغرفة الحجري، وشدّت العيوف من ذراعها، فجلست بقربها، والتعبُ بادٍ على الاثنتين. وبعد قليل، سألت العيوف الجدة حنه، سؤالاً ظل ببالها، منذ سمعتها وهي تصلي وحدها:

- «يا جدّة حنه، مين هو عْجامْ، اللّي كُنْتِ تناديه بصلاتك اليوم».

إتّسعتْ عينا الجدة، استغراباً، ثم تذكّرت أن العيوف من عنجرة، وليست من المراشدة، فتنهدت وقالت:

- «يا بْنيتيْ، عْجامْ، رجلْ مبروك من عنْد اللّه. عْجامْ، يا ميمتي، ولي من أوليا اللّه الصالحين، طاهر ومطهّر. وسيفْ عْجام، يا عيوف إنْ صفْ مع ناس، ما ينهزمون أبد، اللّه يرحمنا ويْنجينا برضاه».

لم تذهب دعوات نساء المراشدة عبثاً، فقد جعلت الصلاة القلوب اكثر قرباً من اللّه، ورجاء رحمته، الذي زادته صلاة الجدة حنه، حثاً واستعجالاً للغيث، في موسمٍ لم يبدأ بعد، غير انه مسبوقٌ بعامين متواليين من الجفاف القاسي..

وبالفعل، فقبل الموسم بأيام، فاضت السماء بغيوثها. وغابت سيول السماء في أثلام الأرض، الظمأى منذ أعوام، ولم تبخل السماء، فجادت، الى أن شَرِقتْ التجاويف العميقه بالماء، وترجرج التراب. أما الشيخ مرشود، فما ان انْهمرت الأمطار، حتى خرج الى العراء، وبدأ يرقص بشكل هستيري، وهو يصْرخ:

- «جُودْ. جُودْ يا ابو الجْواد، جود».

ولم يدخل الى البيت، في هذا الليل الدامس، إلا بعد أن أعياه التعب، فأدخلتْه زوجته الى الداخل، وهو يْقطرُ ماءً. ثم لفّته بأغطية كثيفة، بعد أنْ بدّل ملابسه المبلولة، وجلس قُرْب الموقد، غير أن صوت سقوط الأمطار، في أُذُنيه، ظل أقوى من احتراق الخشب اليابس، الذي كانت تضعه زوجته في الموقد.

وبعد قليل، جاءت زوجته بكوب من الفخار، مليئ بنبيذ الدير المعتق، وقالت:

– «دفّي قلْبكْ، يا شيخ. ترى البرد وصلْ لعْظامكْ».

تهلّل وجه الشيخ، حين رأى النبيذ، وتناول كوب الفخار بيديه الاثنتين، ورفعه الى شفتيه، وجرع ببطء نصف الكوب دُفْعة واحدة، ثم وضعه على الارض، تسبقه زفْرةٌ طويلة، وقال بصوتٍ خرج من قاع جوفه:

– «يا اللّه، يا نْبيدْ الدير، ما أطيب ريحتكْ.

أيّ هُوْ مِنْ قليل قالوا: ما نْبيدْ، غير نْبيدْ الدير!؟».

ثم عاد الشيخ الى الاتكاء على وسائده قرب الموقد. وبعد لحظات، سرى دفء النبيذ في أوصاله، فاستند، ثانية، وجرع باقي كوب النبيذ، ومدّ الكوب الى زوجته، قائلاً:

– «اللّه يسندْها بيكِ، يا بنت الحلال، مثل ما سندْتي روحي».

قامت زوجة الشيخ، لملء الكوب ثانية من جرةٍ أخرجتها، قبل أيام، من المغارة الغربية، التي تقع تحت الليوان الذي بُني فوقها. أما هو، فظل الدفء يسري في بدنه، الى أن وصل الى أطرافه الباردة. ومع سريان دفء النبيذ في جسده وروحه، سرح بصره من الجمر، الذي يتحول الى رمادٍ في الموقد، الى سقف الليوان، المحمول على عقودٍ حجرية.

ثم امتدّ الى العوارض الخشبية المتصالبة، التي تحمل السقف الطيني لليوان. وهناك، في مكان ما، من العوارض الخشبية، ثبت بصره، وأمْعنَ. تخيّل الشيخ، أو تمنّى، أو حلُم، لو أنّ هذه القطعة من السقف تسقط، ويدخل المطر منها، شلالاً دافقاً، ثم يمتليء الليوان بالمطر، ويطفو بفراشه والموقد على سطح الماء، ثم ينحدر هو على سطح الماء، الى السفوح الشرقية، حيث كروم العنب، ويرويها داليةً دالية، ثم ينتظر هناك، على الماء، حتى ينتهي الصيف، وينضج العنب ويطيب، ويأتي موسم تخمير النبيذ في أوائل أيلول، ليصنع نبيذاً لم يذقْه أحدٌ من المراشدة من قبل.

والحقيقة، ان نبيذ الدير، أو النبيذ الذي يقوم المراشدة بعمله، هو أجود انواع النبيذ في الجوار كله، بل وفي حوران، وكل القرى المسيحية في جبال جلعاد، التي تقوم بصنع النبيذ. حتى ان الكثير من الميسورين، في هذه القرى، والذين يميزون بين انواع النبيذ، لا يستسيغون إلا مذاق نبيذ دير ورق، ويرسلون كل عام للتمون من الدير بالنبيذ المعتّق، الذي مضى على صنعه سنوات. وحتى الشيخ عسران، فإنه حين تتأخر عليه هدية الشيخ مرشود، من جرار النبيذ، يبدأ بالتلميح الى علاقة الشتاء بالنبيذ، وحين ينفذ ما وصله من نبيذ، قرب نهاية الشتاء، فإنه يرسل الى الدير، لشراء جرارٍ اضافية، وهو ما يرفضه الشيخ مرشود، عادة، ويقوم بارسال عددٍ اضافي من الجرار على سبيل الهدية. والصحيح، ان نبيذ الدير هو من أهم ما تنتجه دير ورق، وعادة ما يكون لديها كميات كبيرة من المخزون، وذلك بسبب حرصهم على تخزينه سنوات طويلة لتعتيقه، وهو واحدٌ من أهمّ اسباب شُهرة نبيذ الدير.

أما شهرة نبيذ الدير، وجودته، فلا تعود الى تعتيق المراشدة له لسنوات طويلة فحسب. بل الى عناية المراشدة، غير العادية، بأشجار الكرْمة طوال العام، فمنذ أن تُبرعم العناقيد، يبدأ فرز الدوالي، التي تحمل عناقيد خالية من اية شوائب. وبعد أن تنمو

العناقيد، وتقترب من النضج، يبدأ المراشدة بتلبيس العناقيد الجيدة بأقمشةٍ، لحمايتها من الحشرات والآفات. وفي العادة، تكون هذه الدوالي هي أجود أشجار الكرمة، في كروم الدير كلها.

وما ان يأتي أيلول، حتى تكون العناقيد قد سال نضجها عسلاً. عندها يبدأ «فرْط العناقيد». ثم تُغسلُ، وتجففُ في الشمس، حتى لا يبقى عليها قطرة ماء. وفي أحواض حجرية واسعة، يبدأ عصر العنب، بأقْدام النساء المغسولة. في تلك الأثناء، يبدأ العصير بالخروج من مزاريب صغيرة، متصلة بالأحواض، ليصب في أوعية كبيرة. ثم يُصفّى بعدها السائل، مراتٍ ومرات، لتنقيته من كل شائبة. يُحفظُ السائل، بعدها، في جرار فخارية، جُففتْ تماماً، من أي أثر للماء، ثم تُغلق الجرار بقطع خشبية، ملفوفة بالقماش، بشكل محكم، يمنع دخول أو خروج الهواء منها. ثم توضع الجرار في اماكن مظلمة ورطبة، هي عبارة عن كهوف رومانية قديمة، متصلة ببيوت المراشدة. وبعد أشهر، يقوم العارفون المسنون، من المراشدة، بتذوق الجرار، لاختبار فيما اذا فسدت احدى الجرار أم لا، جراء وصول الماء أو الرطوبة الى عصير العنب المخزّن. فإذا وصله ماء أو رطوبة صار العصير خلاًّ، ويميز طعمه، فتعزل الجرة عن غيرها، ولا تكون نبيذاً. ثم توضع الجرارالسليمة في امكنة بعيدة من الكهوف، لتُعتّقْ لسنوات طويلة. وبتخزين جرار العام من النبيذ، يكون الوقت قد حان لأقدم الجرار، التي تم تخزينها، للاستهلاك.

كان الشيخ مرشود قد عصر نبيذ السنة، بعد أن نام وغرق في حُلمٍ طويل. وحين أشرق الصباح، كان المطر قد توقف، وعندما أفاق الشيخ، كان جمر الموقد قد تحوّل الى رماد. أما كوب النبيذ الثاني، الذي احضرته زوجته، فقد انْدلق على الفراش، الذي كان ينام عليه، وبلّله، حتى وصل الى اطرافه التي امتلأت بدفء النبيذ.

وما ان هلّ شباط، حتى ابتدأ ما يُسمّيه المراشدة «نوء سعْدْ بَلَعْ»، فكثرت الألبان. و«سقطت الجمرة الاولى»، و«ابتدأ الربيع» وحين سخن الهواء قليلاً،

وصار دافئاً «جرى الماءُ في العود»، وسقطتْ «الجمرة الثانية».

ماجت السفوح والسهول الشرقية والغربية بالعشب والربيع الأخضر، فأُخرجت الخيل الى مراعي الدير، وسقطت «الجمرة الثالثة».

أعوام كثيرة مضت على رحيل ضاحي وسفره. ومن دون اتفاق، صار المراشدة يسمون عْراق القرية الشمالي بـ «عْراق ضاحي»، وأحياناً كانوا يسمون «عين علْيا»، التي تقع في هذا الجرف الصخري، بـ «عين عْراق ضاحي». لم يسافر أحد من المراشدة، قبل ضاحي، إلا وعاد قبل أن يمضي عام على رحيله. وحْده، ضاحي السعادة، رحل ولم يعد. أما الشيخ مرشود، فقد ظل يربط بين رحيل ضاحي ومجيء الأجنبي الى الدير، وما أصاب الجدة «حنّة»، في ذلك النهار المشؤوم.

ماتت زوجةُ ضاحي، بعد عامين من رحيله، حين جفّ رجاؤها من عودته على دُروب الغرب البعيدة. أما الشيخ مرشود، فحين كان يرى ما آلت اليه حالها، من الهم والكمد والانتظار، فإنه كان يرفع صوته، مداعباً ومواسياً:

– «وكّلي الله، يا ام عُقْلهْ، الغايب حِجّتُهْ معاهْ».

وبالرغم من أنها وكّلت أمرها لله، إلا أنّ للغياب، أحياناً، حضوراً أكثر من صاحبه. تُرى كيف تنتظر النساء رجالهن؟ أيّ حنين هذا الذي يتفتح في الروح، ليلْجُم غرائز الانسان؟ لا. ليس الحُب. كأنها أشياءٌ اكبر من ذلك بكثير. أشياءٌ تنبتُ كالزغبِ

الناعمِ على حوافّ الروحِ، وما ان يُداعبَ أحدٌ هذا الزغب، أو تلك الحواف، بقصدٍ أو بدونه، حتى تحضر أحزان الدنيا كلها، لتنفجر بكاءً مُرّاً، صامتاً، على حواف تلك الروح، التي صارت كالحريق..!

جفّتْ روحها، ويبستْ عروق الانثى فيها، وذبُل في الجسد النحيل ما تبقّى

من حياة. وحين سمعتْ المراشدة، لأول مرة، يُسمّون «العْراق الشمالي» بـ«عْراق ضاحي»، أيْقنتْ أنه لن يعود.. فرحلت!.

ودُفِنتْ العيوف، هناك، في بيتها، في «عْراق ضاحي»، حيث تمتد عروق الحياة لـ «عين علْيا».

في الشرق، شرقي دير ورق، تغيّر كل شيء. صحيح ان الأرض ظلّت في مكانها، والصحراء بقيت صحراء، إلا أن كل ما على وجهها من ملامح قد تغيّر. كان «رشيد باشا» يعرف ما يفعل، ويعرف ما يُريد، ايضاً. فمنذ أن أصبح حاكماً ومتصرفاً لحوران، أدرك أن هذا التماسك، في عُربان بني عسران، وعُربان السوادي، وغيرهم، هو ما يجعل هذه المنطقة، التي تقع على طريق الحجّ الشامي، مستعصيةً عليه. فقررّ أن يُفتت هذه العُربان، أن يحوّلها الى مجاميع بلا قوة، أن يفْرط هذا العِقْدْ المتماسك، منذ سنين، في حوران. وهو نسيج معقّد، ظلّ يربط العُربان بفلاحي القرى، لأعوام طويلة، بعهود ومواثيق شفهية، ظلّت فيه معظم حوران الجنوبية، وباديتها، خارج سلطة الدولة العلية.

أغدق الاموال على من يغريهم المال من رجال العُربان. أما الشيوخ المترددون، فدفع اليهم بعض العشائر الصغيرة، بغزوات مجهولة وخاطفة، ثم أعاد عرض أمواله عليهم

من جديد، فلم يكن أمامهم سوى القبول بسياسته، ولحقوا بالركب. فتّت عُربان السوادي الى ثلاث عشائر صغيرة، ودفعهم باتجاه الغرب. أما عشائر بني عسران، فانقسموا الى أربع عشائر، دفع الموالين منها أيضاً باتجاه الغرب، ليحيطوا بعشائر السوادي المنقسمة من الشرق. أما من استعصى عليه، من الشيوخ والعربان، كالشيخ عسران وغيره، فقد دفعهم قسراً الى التوغل شرقاً، في عمق الصحراء، ليكونوا أبعد عن طريــق الحج الشامي، وعن قرى حوران الغربية، بما فيها دير ورق. وهو بالفعل ما فعله مع عرب الشيخ عسران، مؤخراً، حين طالبهم بالجمال لنقل القوات التركية، وقد رفض الشيخ عسران هذا الطلب، الذي يجرد عشيرته من كل اسباب الحياة، واضطر نتيجة ذلك الى الهجرة شرقاً، في عمق الصحراء، خوفاً من حملة يشنها عليهم رشيد باشا، نتيجة هذا الرفض، وهو ما اضطر الحاكم العثماني الى الحصول على هذه الجمال من عربان آخرين، يقيمون الى الشرق من بلدة السلط.

أدرك الشيخ مرشود هدف سياسة رشيد باشا، بفطنته، مبكراً. ولكن هيهات، فمعرفة الاخطار والسياسات شيء، والقدرة على منعها وردها شيء آخر تماماً. صار الشرق بالنسبة لدير ورق رخواً، رجراجاً، واكثر خطراً من أي وقت مضى. أما الرجال، الذين يمكن تدارك الامور وإياهم، كالشيخ عسران، فقد صاروا أبعد، في عمق الصحراء، ويصعب الوصول اليهم بمرسال سريع. واشتدّت فوضى العُربان في الشرق، و«ضاع فيها الخيّالْ برُمحُهْ!»، كما كان يردد الشيخ مرشود بحسرة احياناً. أما القرى الغربية، فلم تكن أحوالُها وعشائرُها بأفضل حال من العربان. فمشكلاتهم وانقساماتهم، وشكاواهم الى حاكم اربد ومتصرف حوران ووالي سوريا، كانت تتوالى مع القادمين الى دير ورق، باستمرار،

فضلاً عن الأخبار،التي تأتي بين الحين والآخر، عن تدخل «قنصل فْرانسا»، أو «قنصل ايطاليا»، أو حتى جنرالات المراكب الحربية، الراسية في ميناء بيروت، حول تدخل هذا او ذاك، لفض نزاع بين عائلات، في الحصن او السلط او رميمين، بين اللاتين وبين الروم، أو لبناء تلك الكنيسة، أو لفتح ذلك الدير، الذي اغلقته قوات الدرك، نتيجة لشكوى طائفة اخرى على المرسلين والمبشرين اللاتين الجُدد.

ببطء، كانت دير ورق والمراشدة يتحولون الى ريشة في مهب الريح. لم يكن باستطاعة أحدٍ ان يمنع ما يحدث، حتى الخوري عساف، أدرك أن الزمن يتغير بشكل عميق، كما كان يعبّر عن ذلك بحسرة أحياناً، عندما يأتي خبر عن غزوة أو مشكلة، من الشرق او من الغرب، قائلاً «زمان أوّل حوّل! اللّه يعينّا عَ اللّي جاي». أماالشيخ مرشود، فحين يسمع كلاماً كهذا، فإنه يقول بأسىً واضح، في تحسسٍ لاخطارٍ يراها قادمة على المراشدة:

– «مْرافَسَةْ البْغال، إجتْ في دقِن الْكاري»!

ثم يتنهد بحُرقة، حتى ان كلامه يخرج زفراً حينها :

–«يُوم ينْجنُّوا ربْعكْ، عقلكْ ما يْفيدكْ» ..

بين اعوام الجفاف، التي مضتْ، وأعوام الغيث والخير، التي توالت، ظلّت أزْهار النرجس والبنفسج تنمو وتظهر في مواعيدها كل عام، فتزين السفوح والدير والنفوس. صحيح، ان ألوانها تأثّرت قليلاً بشُح الرطوبة في الأرض، إلا أنها لم تُخلِفْ مواقيتها، ولا ما تُسيلُه على وجوه المراشدة، وفي نفوسهم، من بهجةٍ ما أن يتعمشق النرجس والبنفسج عْراق ضاحي والصخور المحيطة بـ «عين علْيا». أما الرّمان، وإنْ تأخّر زهره عن ايامه المألوفة، فقد ظلّ ينضج في أوائل أيلول، مكتنزاً، شهياً، مُشبعاً بالعسل اللذيذ. لا أحد

يعرف من أين يأتي الرمان بمائه، في أزمان الجفاف،ولا حتى الى أين تمتد جذورُه، لتعثر على الماء، الذي يجعل أغصانه طريّة، تتمايس كلّما هبّت أيُّ ريح..!

و «رشيدة»، التي فاتها أوّل رمّان عمرها، وفاتتها لُعبة صبايا المراشدة المُشتهاة، «يمكنْ إجتْ جُلْنار..»، فقد ظلُّ الرمّان يشرِّب بشْرتها ولون خدّيها. أماعيناها، فسَلْ حقول القمح الغربية للدير، عندما جاء أوّل غيثٍ بعد الجفاف، عن خضرتهما واتساع المدى فيهما.

نضجت رشيدة، واكتنزت بالحياة، قدّاً ممشوقاً، كرمحٍ يتمايس، كلما امتدّت

جذور الرّمان أبْعد، لتشـرب من خوابي النبيذ والزيت، التي يُخبئهـا «العم توما»، في الكهـوف الرومانية، خلف المعصرة. ومضت كالريح،جريئةً، تشـربُ الحيـاة بشغفٍ واشتهـاء. أما العم توما،أبو رشيـدة، فريفُ العين فيه تـارةً يفرشه لخطـاها، واخـرى هواءً يلاحقها، كفراشـة تُحلق في كروم الدير، أو تستحـمَّ بالرذاذ المتطاير مـن «عين علْيا».

كان الدير يُزهر بصباياه،وفتيانه، ورمّانه الذي يزداد طيبّاً كل عام. أما الكبار، فكان العُمر يمضي بهم وفيهم، كسعف نخيل ما حَنَتهُ الأيام بعد..

في تلك الأثناء، وربما في غفلة من الشيخ مرشود، كبُر «عُقلَه السعادة»،أكثر مما يجب. أو للدقة، وكما يقول بعض المراشدة، توحّش بأكثر مما يجب. أما الشيخ، فحين كان يسْمع مثل هذا الكلام، من بعض كبار المراشدة، فإنه يهوّن الأمر عليهم، ويقول «يمكن الولد برّي شويْ. تعرْفونْ، وحداني، لا أب ولا أم». وحين يؤكد أحدهم، انه رآه بعينه يضرب أحد الأولاد، الأكبر منه سناً، وكاد يكسر ضلوعه، لولا تدخل الذين كانوا هناك، فإن الشيخ مرشود يتجهم بافتعال، ويقول بصوت يريد ان يكون جدياً«كِنْها، ماهي عَ رُمَّانه، ميرْ القْلوبْ ملْيانه، إقصْر السالفهْ، يامعوّد». أما حين يُثْني أحد الرجال على عُقْلهْ، ويبدأ بمديحٍ قوته وجُرأته، فإن الشيخ تنفرج اساريره، ويضطجع جانباً، ويحث المتحدث على الإكمال قائلاً «هَا.هَه» وحين يصل المتحدث الى وصف ركوب عُقْله للفرس، وكيف ينحدر بها إلى الطريق الغربية، بسرعة البرق، وغبار الطريق يبقى معلقاً في الهواء، حتى يصل عُقْله الى آخر الوادي، قبل أن ينقشع الغبار، حينها، فإن الشيخ يعتدل في جلسته أثناء حديث الرجل، إلى أن يضرب فخذه بيده، بحرارة وانفعال، وكأنه يرى المشهد الآن امامه، ويعلو صوته، وكأنه ينادي «عفارمْ. عفارمْ يا عُقلهْ»!

والصحيح، ان الشيخ مرشود، حين رحل ضاحي، اعتنى بعقْله أكثر من اعتناء أي أب بابنه. لم يكن الشيخ ينجب، غير أن هذا لم يكن السبب الوحيد لتعلقه به، كما يدّعي بعض المراشدة. أحياناً، كان يخيّل للشيخ مرشود،أثناء تدريبه لعقْله على السلاح، انه يريد أن يعوّض به المراشدة عن خسارتهم لضاحي، فارس فرسانهم، الذي رحل ولم يعد. وفي بعض الأحيان،وحين يرى استجابة عقْله السريعة للتدريب على السلاح وركوب الخيل، فإنه يخيّل اليه انه يرى فيه نفسه أيام شبابه.

في البداية، حين قرر الشيخ تدريب عقْله، كان أول شيء فعله أن أردفه خلف ظهره على الفرس، في ليلة اشتدّ ظلامها، الى الحقول الغربية للدير. حينذاك، لم يكن الصبي عقْله قد تجاوز الاثني عشره عاماً من عمره، وحين قطع الشيخ مسافة طويلة عن الدير، ألقاه فجأة من على ظهر الفرس،ثم انطلق بسرعة مبتعداً عنه. وبدأ يدور حوله من بعيد، وهو يصدر اصواتاً مخيفة،ويُركّضُ الفرس، لتصدر اصوات خيول قادمة من اتجاهات عدة. ظلّ الشيخ حوالي ساعةٍ، تقريباً،يحاول إثارة خوف الصبي وهلعه،ليقتل الخوف فيه، في هذا الليل الدامس. إلا أنه فوجئ بأن عُقلة لم يصرخ، وبعد مدة، انتبه الى أن الصبي بدأ يمشي باتجاه الدير من دون ارتباك. ورغم هذا، فقد ظل الشيخ يلاحقه بالفرس، ويركض بها من أمامه ومن خلفه، إلا أن شيئاً غريباً لم يبدُ على الصبي. وبعد مسافة طويلة، اقترب الشيخ منه، ونزل عن الفرس، وضمّه الى صدره وقبّله، ثم ارْكبه على الفرس أمامه، وظلّ يحتضنه طوال الطريق الى أن وصلا دير ورق.

وحين بدأ الشيخ مرشود تدريبه على ركوب الخيل، فقد كان أشدّ قسوة عليه. اذ لم يسمح له ولمدة شهر ان يركب فرساً وعليها سرج، الى أن انفتحت عظامُ ساقي الصبي،وأخذت شكل عظام ظهر الفرس. وقبل ان يبدأ بتدريبه على ركوب الخيل الجامحة، أو ترويض الفرس «الشموص»، قال له، مؤكداً عليه أن لاينسى ما سيقوله له، «إن جسدك يجب أن يتحول في ليونته الى جزء من جسد الفرس، حينها ستشعر الفرس أنك منها، وأنك فارسها الوحيد. لن تشعر الفرس أن هناك ثقلاً على ظهرها، أما أنت حينها، فلن تشعر أنك تركب فرساً، ستحس أنك تمتطي صهوة ريح»!

لم يتخيل الشيخ مرشود أن عُقْله سيدرك ما علّمه إياه عن الخيل بهذه السرعة. فما هي إلا أشهر، حتى كان عقْله يسابق الريح على الفرس، وبلا سرج. وذات يوم، لفت بعض فرسان المراشدة نظر الشيخ مرشود الى أن فرساً قادمة، من بعيد، تسابق الريح، ولا يبدو أن على ظهرها أي فارس. وما ان اقتربت منهم وتوقفت حتى تبينوا عقْله، وقد مدّد جسده على كامل ظهرها، وطوّق عنقها بذراعيه. منذ ذلك اليوم البعيد، أيقن الشيخ مرشود أنه صنع للمراشدة فارس فرسانهم الجديد.

وحين جاء وقت تدريب عقْله على السلاح، قال له الشيخ مرشود «عبينا صَدْرك، وانت صْغير، بالشواء والبارود. واليوم خلينا نْشوفْ هْمتكْ ياسَبعْ». في الحقول الغربية، أوقفه الشيخ أمامه، ووضع ماسورة البندقية على كتف عقْله الأيمن،وصوّب نحو الامام وأطلق، فارتجّ عقْله، من الصوت الذي صم أذنيه، والدخان الذي اعمى عينيه، إلا أن قوة ذراعي الشيخ لم تترك له مجالاً للإفلات، فجثا من الضغط على ركبتيه، فأنهضه الشيخ ثانية، ووضع ماسورة البندقية على كتف عقله الأيسر، وسحب الترباس وأطلق، فدوى صوت البارود،وغطى الدخان المتصاعد من الماسورة فضاء البصر، إلا أن عقْله لم يتحرك هذه المرة.

حين جاء القسم الثاني من التدريب، أوقف الشيخُ عقلة أمامه، بحيث يتقابل

وجهاهما، ثم وضع البندقية على كتف عقلة الايمن، وأخبره ان الفارس لا تُغمضُ عيناه من صوت البارود. ثم سحب الشيخ ترباس البندقية وأطلق.لم تكن عين الشيخ على «النيشان»، بل على عين عقله، وبالفعل لم يهتز لعقلة، في المرتين، رمشٌ أو طرفٌ أو حاجب..

أعوامٌ طويلة مضتْ على تدريب الشيخ لعقله، وحين ماتت أمّه تغيّر الفتى، وتغيّر مزاجه. صار الفتى شيئاً آخر، غير ما كان مألوفاً من أقرانه وأبناءُ جيله.

في البداية، بدا وكأنه يشعر أن أحداً قد قتل أُمه، رغم أنها ماتت بشكل طبيعي، ثم اختفى لأيام في الأدغال الشمالية، القريبة من بيتهم، خلف عْراق ضاحي. وحين عاد، كان كأنه كبر أعواماً. لم يقترب من أحد، ولم يسمح لأحد بالاقتراب منه، وبعد أيام، انتبه الناس، الى انه قد أقام «رُجماً» كبيراً من الحجارة على قبر أمه، وبالقرب من هذا الرُجم لاحظوا أن شجرة سنديان صغيرة قد زرعت حديثاً.

اختفى عقْلة ثانية، لأيام طويلة، في الأدغال المحيطة بالدير.وبعد أسابيع، انتبهت النساء، اللواتي يردْن «عين عليا»، ان ضباعاً وذئاباً مقتولة معلقة من أذيالها في أغصان الأشجار القريبة من العين.وماهي إلا أسابيع أخرى، حتى لاحظ المراشدة كلُّهم أن الأشجار على السفح الغربي تتدلّى من أغصانها العالية «بنات آوى» مقتولة. الغريب، أن الأشجار الغربية لم يكن عليها أيّ ضبع أو ذئب، فقط «بنات آوى»، معلقةً من أذيالها الطويلة، وتتأرجح كلما هبّت الريح!

حين عرف أهل الدير، أن عقله هو من يقتل هذه الحيوانات المفترسة، هدأت نفوسهم قليلاً، وظل امتعاضهم من هذا السلوك، يزداد يوماً بعد يوم، لما يخلفه من خوف عند الصغار والنساء. إلا أن أحداً لم يجرؤ على مفاتحة الشيخ مرشود بهذا

الامتعـاض، أو الطلـب منـه أن يمنـع عقلـه من تعليـق هذه الحيوانـات

المفترسة، على الأشجار العالية المحيطة بالدير.

في أحد الأيام،وبعد أن مالت الشمس عن كبد السماء، تجمّعت معظم صبايا المراشدة، في هذا الوقت، على عين علْيا، لملء الجرار والقرب، واللهو أيضاً. امتلأت القِربُ،وفاضت الجرار بمائها، فدفقت رغبات متدافعة للهو الصبايا، فتراشقن بالماء، وحلّقت الضحكات صقصقاتٍ في فضاء العين. أما صوت رشيده، فقد كان الأكثر تحليقاً، وغنجاً، ودلالاً. وفجأة، انقلبت الدنيا، وأطبقت السماءُ بوحشٍ ضخم، سقط في حوض العين، فأغرق الماء أجساد الصبايا، وبدأن بالصراخ. أما رشيدة، فقد كانت الأقرب الى حافة الحوض، وما ان غطاها الماء والفزع، حتى انزلقت في حوض الماء، فإذا هي وجهاً لوجه أمام الوحش الكاسر، تُحملق في عينيه، فملأ صراخهـا العين وفضاء عراق ضاحي كلِّه.

كان عقْله قد قتل نمراً كبيراً مرقطاً، في الأدغال الشمالية. كانت المرة الأولى التي يقتل فيها نمراً، وبدلاً من أن يعلقه على احدى الأشجار، كعادته، سمع صوت الصبايا على العين، فأراد ممازحتهن، فألقى بالنمر المقتول من أعلى الصخرة، التي تنبع منها عين علْيا، في الحـوض، الذي كانت تتراشـق فيه الصبايـا بالماء. وحـين سمع الصـراخ، ورأى مقدار الفزع، الذي أصاب الصبايـا،وخصوصاً تلك التي سقطـت في الحوض، قفز مـن أعلى الصخـرة الى حوض الماء، وحمل رشيدة وخرج من الحـوض. كان جسدها يرتعـش، وظـل يرتعش، حتى بعد أن أخرجها من الماء،ثم بدأ يمسـح الماء عن شعرها ووجهها.

كانت رقيقة كحفنةٍ من أزهار الرمان، وبدأ جسـدها يستكيـن بين ذراعـيه، وفي حُضنه، وأطرافها تقطـر ماء. أما هو، فكان يخشى ان يحـرك أصابعـه، فتتهشم حفنة أزهار الرمان الهشّة، هذه، بين يديه. وفجأةً فتحت عينيها، وهو مُحملقٌ بها، كالوحش، الذي ما يزال ملقىً في الحوض، وما ان حدّق في عينيها، وغام الأخضر فيهما، حتى غرق في حقول قمح الدير الغربية. واتسعت الدنيا، وماجت حقول القمح، فاضطرب البحر، ورقّ الوحشُ، فاستيقظ الإنسان.

تسمّرت الصبايا أمام مشهد رشيدة والوحش، ثم بدأت الضحكات، وبدأ الغمز، فانتبه العشاق. وضعها على الأرض، وعاد الى النمر، فحمله على ظهره، وغاب خلف الصخور، ثم عادت الصبايا بالقرب والجرار الى بيوت الدير.

أما رشيدة، فلا تعرف ما الذي حدث! انخضّت الدنيا، دفعة واحدة، وسقطت السماء على الأرض، ففاضت «عين عليا» بمائها، واغرقت الدير والرمان والكروم وكل شيء.ثم جاء وحشٌ كبير، شرب الماء كله،وأعاد الرّمان الى كرومه، وحقول القمح الى سهولها، وانقشع الضباب.

تُرى، هل أحبّته؟ لا أحد يعرف..!

أما العم توما، فمنذ ذلك اليوم فقد توقف ريفُ عينيه عن التحليق خلف الفراشة الطائرة، وحلّت في روحه سكينة زيت المواسم، وصار يتحسس ايقاعاً آخر لحروف اسمه، حين يناديه الناس «ابو رشيده»، وانفلتت في روحه افراحُ النواقيس.

في اليـوم التالي، كان النمـرُ معلقاً بحبل طويل، في أعلى النخلـة، التي تقع على أول الطريـق الغربيـة. أصـاب المراشـدة ذهول كبـير، اذ كانـت المرة الأولى،

التــي يرون فيها نمــراً مقتولاً، ومعلقاً بهذا الشكل، فازدادت هيبــة «عقلة السعادة» في نفوسهم.

وبالرغم من ان حادثة النمر والعين لم تمر دون تقريع شديد من الشيخ مرشود لعقله، إلا أن الشيخ سيطر عليه، من يومها، إحساس غريب. أحس بقوة ونشوة، غادرته منذ سنوات طويلة، فلم يتخيّل أنّ هذا الشاب، الذي ربّاه ودرّبه،يمكن ان يفيض فُحولةً وقوةً هكذا. وحين اعتراه عارضُ خوفٍ وتوجس، على عقله، من هذا الاندفاع، حرّك يده امام وجهه، وكأنه يطرد شبحاً، ورفع صوته، ليطغى به على هاجسه الداخلي، قائلاً «لأ. عُمرالْمروَّهْ، ما قتْلتْ صاحبْها»!

حين تغيّر الطقسُ، وجاء ما يسميّه المراشدة، «نوءُ الخبايا»، اسبشروا بـ «أول الحسوم»، وبالغيث، قبل ان يصل الشتاء الى آخره، وقبل ان «تنتقل الشمس الى برج الحوت»، كما كان يقول «بُونا عساف»، في هذا الوقت من السنة.

وحين إبتدأ الربيع، و «انتقلت الشمس الى برج الحمل»، بحسب تقويم المراشدة، الذي يحفظه لهم الخوري عساف في اوراقه ودفاتره الصغيرة، حينذاك، تعطّر هواء الدير، بما تفتّح من زهور في سفوحه وكرومه. وأطلق اللوز عبيره، أمواجاً، من الشذى، في صدور صبايا المراشدة.لم يُعكّر صفوَ ايام الربيع هذه إلا ظهور «الخطاطيف»، في منتصف آذار، خصوصاً في المناطق التي تكثر فيها اعشاب الربيع الطويلة، وهو ما يثير فزع الصبايا، بقفزها المفاجئ، وصفق اجنحتها المزعج. وما ان ظهرت «الخطاطيف» بأيامٍ، في الدير، حتى «تفتحت عيون الحيّات»، وأصبحت عندها حركة الصبايا خطرة، وخصوصاً في مروج الربيع الكثيفة والطويلة،خارج سفوح الدير.

قبل شهرين، تقريباً، من ظهور الربيع، سُرق للمراشدة جملٌ، أثناء الرعي في الحقول الشرقية، وهو مالم يحدث للمراشدة، منذ سنين طويلة.

وحين جاء الرعاة بالخبر الى الشيخ مرشود، اندفع الشبابُ، وعلى رأسهم عقله لمهاجمة اللصوص، الذي تجرؤوا على المراشدة، أيّاً كانوا. ولولا الشيخ مرشود لحدث مالا تُحمد عقْباه، إذ هدّأ الشباب وأوّلهم عقْله، وحذّره بشكل صارم من فعل أي شيء، حين أبدى عقله اندفاعاً ورغبة في أن يهاجم، وحده، أقرب العربان الى الدير.

أنهى الشيخ مرشود حديثه مع الشباب، وقال بصوت بدا حذراً ورصيناً:

– «طوْلُوا بالكُو. ياجماعهْ. السالفَهْ، ماهي سالفة جمل، وينْ قصّاص الأثر».

وبالفعل حين جاء القصاص، وخرج معه عقله وعدد من الفرسان، وجدوا ان آثار الجمل والفرسان اتّجهت مسافة طويلة نحوالجنوب، لتمويه الأمر على المراشدة، ثم انحرفت الآثار باتجاه الشرق، الى أن دخلت مضارب «الشيخ شاهين». وشاهين هذا هو أول من انشقّ وخرج من عرب بني عسران، مع عدد قليل من الفرسان، بعد ان أغراه رشيد باشا بالمال، والوعد بجعله شيخاً على عشيرة كبيرة. وبالفعل، كان حاكم حوران يضيف اليه، بين الحين والآخر، عدداً من الرجال وقطاع الطرق، الذين خرجوا عن عشائرهم، بعد ان يكون قد استمالهم الى جانبه. ومع الزمن، شكّل الشيخ شاهين، من هؤلاء الرجال والشراذم، مجموعة كبيرة أو عشيرة، أطلقوا على أنفسهم اسم «عرب الشواهين»، نسبة الى الشيخ شاهين. وحين كان رشيد باشا يخطئ في نطق الاسم، ويقول «عرب الشايهين»، كان وجه الشيخ شاهين يتجهم ويسْوَدُّ، دون أن يقوى على تصحيح خطأ الحاكم، فيطأطئ

رأسه الى الأسفل، عندها تصبح قامته القصيرة بطول البارودة، التي يمسك بها امامه، وكعبها على الأرض. أما مضارب «الشواهين»، او «الشايهين»، فقد اختارها لهم رشيد باشا، عن قصد، على الطرف الشرقي لطريق الحج الشامي، فكانوا بهذا أقرب العُربان التي شكّلها الى دير ورق. مالم ينتبه اليه حاكم حوران هو أن المضارب، التي اختارها لعرب الشيخ شاهين، كانت تقع بالقرب من «مقام عجام».

و«مقام عجام» هو قبر قديم لولي صالح، والأهم من هذا، انه كان يحظى بالاحترام والاجلال من قبل عشائر العربان المسلمين كولي مبروك، ومن المراشدة في دير ورق كقدّيس مبارك وحامي الضعفاء.

حين علم الشيخ مرشود أن اثار اللصوص اتجهت بعد «مقام عجام» في الجنوب، نحو الشرق حيث مضارب الشيخ شاهين، قال بحُرقة:

– «شابت لحاهم، والعقل ماجاهم». ما عليكو، إنسُوْ السالفه. دُبَّارهم عندي.

حاول الشيخ مرشود نسيان الأمر، وجعل الشباب ينْسونه أيضاً. واكتفى بأن أرسل مرسالاً الى الشيخ عسران، وشرح له الأمر. وعلى الرغم من أن المرسال قد أخذ وقتاً طويلاً في الطريق، نتيجة الوضع الجديد لمضارب العربان، بما فيها مضارب الشيخ عسران الأبعد، إلا أنه عاد بأخبار بدت مطمئنة. اذ انّ الشيخ عسران انفعل وغضب بشدة لما حدث، وأبقى مرسال المراشدة عنده، حتى اتاه الرد على المرسال الذي ارسله للشيخ شاهين.

كانت رسالة الشيخ عسران للشيخ شاهين شديدة وقاسية، وربما اكثر مما تحتمل الحادثة «رجّعوا الجمل، اليوم قبل باكر. واللّي يعتدي على المراشدة يعتدي على الشيخ عسران أوّل. والتركي ماهو دايم، ياشاهين!». أما رد الشيخ شاهين فقد كان تسويفاً، وانكاراً للسرقة، ولأية نية لغزو المراشدة.

اعتبر الشيخ مرشود هذا الانذار كافياً، في زمن لايُفيد فيه استخدام القوة، في خصومات مباشرة، ولا تبدو متوقعة، في الوقت الحاضر. وظن الشيخ، انه بهذا قد ردع عرب الشواهين، الذين تحولوا في الفترة الاخيرة الى لصوص، وجنّب المراشدة خصومة ليس هذا أوانها..!

والحقيقة، ان الشيخ مرشود لم يُجنّب المراشدة هذه الخصومة، بل أجّلها

قليلاً. اذ كانت هذه اول مراحل الخطّة التي دبّرها رشيد باشا للمراشدة ولدير ورق. أما استغرابه للأمر، حين كان يشرح لعقلة، عن علاقة العربان بالمراشدة، «معقول ياناس. الدنيا قمْرا،وسرْقة خيلْ. لا والله ماهي شورة شيخ، يعْرف مين هُمَّ المراشدة»،فلم يكن في محلّه، حتى وان استطاع ان يُقنع به عقلة والشباب. وبالفعل، كانت «شورة» شيخ ووالٍ معاً، للنيل من هيبة المراشدة، تمهيداً لأيام اخرى قادمة ماتزال مخبّأة في صدر حاكم حوران..!

هبّت «رياح اللواقح»، وتدارك المراشدة «موسم اللوز»،من آخر آذار،وقرر الشيخ مرشود أن يطفئ شيئاً من هذا الحريق، الذي يراه في عنفوان عقله واندفاعه. قال الشيخ لـ «بونا عساف»، مشاوراً:

– «هذا الرجل : رعْدُه مْسابقْ برْقُهْ. نويت اخطبْ لُهْ رشيده، بنت العم توما، بلْكي يهدا، ايش رايك يابونا». رحّب أبونا عساف بالفكرة، وتحمّس لها، واستعدّ أن يفاتح العم توما بالموضوع.

لم تكن فُرص الزواج لصبايا المراشدة كثيرة، فالمراشدة لايزوجون بناتهم خارج دير ورق، أو خارج المراشدة، الا نادراً جداً. وبالرغم من أن عدد صبايا الدير كان دوماً أكثر من عدد الشباب، إلا أن رشيدة كانت خارج هذا الحساب كله. إذ ان جمالها الساحر أخذته

الرياح، وطافت به على القرى الغربية وأبعد. وحتى العربان الشرقية، وصلتهم رائحة جمال رشيدة، وبحر عينيها الأخضر. وبالرغم من أن أهل القرى الغربية،وأخوال المراشدة فيها، يعرفون «ان المراشدة لايغرّبون بناتهم»، الا ان الخُطّاب لم ينقطعوا عن العم توما او الشيخ مرشود..!

والحقيقة، انّ رشيدة كانت «وليمة قمح معجونة بالعسل»، بعد أن كبرت ونضجت. وهو ما كان يضاعف خوف العم توما عليها، حتى جاء يوم العين والنمر، فهدأ خوفه،وهجع فيه القلق، ولم يكن هناك بعدها ما يفعله، سوى ان ينتظر الوحش..! وحين فاتحه «بونا عساف» في خطبة رشيدة وعقله، أشرق الزيتون في عينيه، وانساح زيتاً مقدساً، يملأ بيوت الدير كلها، وهجم على ابوناعساف وحضنه وقبّله بين عينيه.

جاء نيسان، و «استمطر المراشدة السماء غيثاً للزرْع»، وجاد الربُّ، بعد أن انتهت «أيام الحُسوم وبرد العجوز». وفي «عيد الشعانين»، وقبل ان «تدخل الشمس برج الحمل» بأيام، اعلن ابونا عساف خطبة رشيدة، بنت العم توما، على عقله بن ضاحي السعادة. أما الشيخ مرشود، فأعلن امام المراشدة جميعهم، بأن الزواج سيكون بعد أن يبدأ الحصاد، وقبل اول الصيف، عند «أوّل قطافٍ للعسل»، في حزيران.

تغير الوحشُ قليلاً، ورقّت جوانحه، أما عيناه، فظلّت تقدحان جمراً ولهيباً. كان يعرف ذلك، ولهذا، كان يتحاشى النظر في عينيها مباشرة، إلا خِلسة منها، ودون انتباه. أما رشيده، فقد ألفت هذا الجمر، ما عاد يخيفها، وصار الجمرُ قناديل مواسم تنوس من بعيد. أشرعتْ حقول القمح في عينيها، فاشتعلتْ سنابلُها، حصاداً، راكضاً في الريح، نحو «قطاف العسل».

قبل أن يصل نيسان الى آخره، وفي واحد من تلك الأيام البعيدة، وقع ما قلب حياة المراشدة رأساً على عقب، وهو مالم ينسه أحدٌ منهم جيلاً بعد جيل..!

كان أهل الدير يستعدون لعيد «القدّيس جورجيوس»، وكان «نوء النَطحِ»، عند المراشدة، قد بدأ، وازداد دفء الهواء، فابتدأ «قِصاصُ صوفِ الغنم». وهو موسم تخرج فيه الصبايا والنساء، لغسيل الصوف، على قناة الماء الشرقية، والتي تسحب ماء العين الى خارج القرية شرقاً ثم جنوباً.

في ذلك النهار المشؤوم، الذي كان فيه معظم الرجال في الحقول الغربية،

كانت رشيدة وبعض صبايا المراشدة يغسلن الصوف، على القناة الشرقية،خارج الدير. وقبل ان ينتصف النهار على الصبايا، أظلمت الدنيا ببضعة رجال على خيولهم، انحطُّوا كالسيل، وأحاطوا بالصبايا وأحواض المياه. دبّ الهلع والذعر في الصبايا، وعلا الصُراخ، وتبعثر الصوف. كان جمالُ رشيدة كافياً لتمييزها عن الأخريات، وفجأة، أشار أحدهم اليها، فركضت بفزع باتجاه الدير. وبسرعةٍ، لحق بها فارسٌ آخر، وسط صراخ الصبايا بالنداء على رشيدة. وعندمااقترب منها، تعثرت وسقطت على الارض، فحملها وأردفها خلفه على ظهر الفرس، وانطلق بسرعة الريح نحو الجنوب.

وفي لحظات، ووسط ذهول الصبايا، وصراخهن، اختفى الرجال، ولفّ الخاطفين الغبار..!

لمسافة طويلة، ظل غبار الخيل الراكضة يحجبهم، وبعد ساعة تقريباً، بدأت الخيل تُهدئ من سرعتها، وتمشي خبباً، بعد أن أحس الخاطفون أنهم ابتعدوا بما يكفي. كانت رشيدة تمسك بتلابيب خاطفها حين بدأت تستعيد روعها، وما ان رأت «مقام عجام» حتى دبّت فيها قوة مفاجئة، فقذفت بنفسها عن الفرس، التي كانت تمشي ببطء، وبدأت

بالركض نحو «مقام عجام»، فقفز الخاطف ولحق بها، وحين وصل إليها، شدّها من شعرها، فسقطت على الأرض، فاستجمعت ما تبقى فيها من قوة، وانشبت اظافرها في وجهه، وحين صرخ، نافضاً رأسه الى الخلف، رأت وجهه، فارتعدت فرائصها من بشاعته، وصرخت كمن رأى شيطاناً لتوّه.

أحس الخاطف بالمهانة حين جرّحت رشيدة وجهه، فوقف واستدار نحو رفاقه، وأشار اليهم أن يسبقوه الى المضارب. وبالفعل، أداروا أعنّة خيلهم نحو الشرق وانطلقوا، أما هو، فقد بدا حين ذهبوا كضبع كاسر، فارتعدت فرائص

رشيدة حين رأت عينيه. جرّها من شعرها، الى «مقام عجام»، وألقاها أرضاً، فانكشف الجسد الطري، فسال لُعاب الضبع، وألقى بجسده عليها، ومزق الثوب واللحم.. فارتجَّ المقام. أما رشيدة، فغابت عن الوعي، بعد أن لاذت، من الذعر والضبع، بمزار «القدّيس عجام»..

خُطفت رشيدة، وغابت «الثُريا». أما «نوء النطح»، فامتدّت أيامه في المراشدة إلى أن «هاجت الابل»، وجاء عيد «القديس جورجيوس»، على دير ورق، ليس كمثله عيدٌ.. ورحلت البهجة.

هبّت رياح الشرق على المراشدةِ، وفرّخ الطيرُ.

من أفلت البعير من عقاله، في موسم هياجه؟! من أطلق في الرجال سعار الإبل؟! أية غوليةٍ تلك التي تفجرت زبداً ورغاءً على مشافرهاحين عُقرت النوق.. فعجّت، وعجَّ الرجال؟! من قضّ مضاجع الطير، فرحّلت أعشاشَها؟! من أطلق في الشرق والناسِ كلَّ هذا الخراب..؟!

صار الغناء حزيناً، مرّاً، دماً أسود، يفيض بالاحداق. وغامت الدنيا، فاشتعل في الارواح غضبٌ أسود. إنسعَر الرجال، وصارت الرؤوس مواقد محمولةً على الاكتاف، وغاب العقل..!!

وحدها الجدة حنة رأت ما تُريدُ، بعد أن عمي بصرُها..! فحين أُخبرت بخطف رشيدة، اشتعلت، حمحمت، ثم صارت رماداً. وفجأة، استيقظت في جسدها الواهن شياطين الأرض، وغادرت بيتها، وفي يدها سيفٌ مُشرعٌ، استدلت على مكان تعليقه، في الحائط، بقلبها.

لا أحد يعرف كيف وجدت الجدة حنة طريقها الى بيت الشيخ مرشود، غير

أن الصبيان كانوا يحفون بها، واجمين، حين وصلتْ الى هناك، متكئة على سيفها، الذي

كانت تضربُ به الأرض كلما خانتها خُطاها. وما ان وصلتْ الى بيت الشيخ مرشود، حتى أخذت تضرب الباب بالسيف بقوة، وهي تصرخُ وتهذي:

– «ياعْجامْ، وينكْ ياعْجامْ.

مرشودْ، وْينكْ يامرشود»!

ويقول الصبيان انها كانت طوال الطريق، من بيتها الى بيت الشيخ مرشود، تصرخ وتنادي على «عجامْ» وعلى الشيخ «مرشود». لم يكن هناك أحدٌ في البيت، سوى زوجة الشيخ مرشود، وحين سمعت الطرق والصراخ، خافت وفزعتْ. أماحين علا الطرق على الباب،وعلا الصراخ، وتبينت انها الجدة حنة، فتحت الباب، وما ان رأتها، بهذا الشكل، المُعفَّر، والمخيف، حتى هربت الى داخل البيت..!

اقتحمت الجدة حنة البيت، والسيفُ مشرعٌ في يدها، وصراخها يتصاعد ويزداد:

– «ياعجام، وْينكْ ياعْجامْ.

مرشودْ،وينكْ يامرشود».

ثم بدأت تطوف في الليوان الواسع، وسيفها يشق الهواء بشكل عشوائي، الى أن جاءت إحدى الضربات على الجدار، فتغيّرت حركتها،وصارت تدور مع جدران الليوان، وهي تضرب الجدران بعنف، وتنادي على «عجام، ومرشود». كانت زوجة الشيخ مرشود قد اجتاحها الرعب، منذ فتحها للباب، ورؤيتها لمنظر الجدة، فهرعت الى الغرفة، الملاصقة لليوان، وأغلقت بابها عليها، وظلّت

تراقبها من النافذة،وهي ترتعش خوفاً. وفجأة، توقفت الجدة حنة عن الحركة، وكفت عن الصراخ والمناداة، ثم انتفض جسدها بعنف، وبدأت تدبك برقصة غريبة، في وسط الليوان. وفجأة، علا صوتها بغناء أقرب الى النُواح:

«يابو رشيدة، قلْبنا اليوم مجروحْ-

جُرحٍ غميقٍ، في الحشا مستظلِ.

ظليت انادي، وأطرُق البابِ بالسيفْ-

عيُّوا (مرشودِ)، هلَكَ، لايفتحونا.

ظليت اناديْ، واطرقَ البابِ بالسيف

عيّوا (يالبابِ) هَلَك، لا يفتحونا».

بعد أن أعيتها الدبكة، والرقص المجنون، واستنفد النواح المُعنّى ما تبقى في صدرها من أصوات، تهالكت على جدار الليوان، واستندت على الأرض بسيفها، وظل صوتها يخفتُ وينوس كسراج بعيد. أما جسدها، فبدأ يهمدُ على الجدار ويستكين، رويداً رويداً، وفجأة، انفتل السيفُ، الذي كانت تستند به على الارض، فهوى الجسد النحيل على نصل السيف، فشقها السيفُ من بطنها، وخرج من ظهرها، غارقاً بدم لا لون له. ثم سقطت هي والسيفُ على الأرض، فأكمل النصل خروجه من ظهرها، حتى أوقفه مقبض السيف، واستقر جسدها، ووجهها ملتصقٌ بالأرض، كأنها تقبلها، وبدا جسدها ونصل السيف كأنهما صليبٌ أشرع ذراعه نحو السماء.

أيُّ ريحٍ حملتْ هذا الغناء المذبوحَ وطوَّفت به في البلاد؟! أيُّ أجيالٍ، هذي، التي حملت هذا «الجُوَاحَ»، ليلةَ اشتعل ما تبقى من حياةٍ في جسد الجدة حنة؟ من أصاخ السمع الى شفاهها، التي ارتعشت في دمٍ تختثر حول اطرافها النحيلة، فعميت الأبصار عن ان ترى لونه..؟!

رحلت الجدة حنّة..

ولم يستطع أحد، ولا حتى الشيخ مرشود، أن يمنع عقله من حملها على ذراعيه، ممددة كما هي، وسار بها على فرسه الى عراق ضاحي،والمراشدة كلّهم سائرون خلفه، بلا صوت. ودفنها هناك، كما هي، والسيف في جسدها، فوق عين عليا، قُرب العيوف، أمِّه، وزرع سنديانة أخرى..

ذوى العمّ توما بعد خطف رشيدة اضمحل جسده، وخبت خُضرة الزيتون في عينيه. لاشيء ذو قيمة بعدها، وحريق العار، الذي اشتعل باسمها، لا تُطفئه دماء الأرض. أما الحروف، وايقاع الصدى في اسمه: «ابو رشيده»، الذي دوّى في سمعه، يوماً، كقرع نواقيس، فقد صار جمراً، يدبغُ الجلد بلون اسود، كلما نسي احدهم وناداه بـ: العمْ «ابو رشيدة»..

كان على الشيخ مرشود أن يأخذ أهمّ وأقسى قرار في حياته وحياة المراشدة. وكان على العقل أن يكون حاضراً أكثر من أيّ وقتٍ مضى.وبالفعل، ما ان وصل الخبر الى الشيخ مرشود، الذي كان في الحقول الغربية، مع معظم الرجال، حتى طلب كتم الامر عن عقله،وبدأ يتلفتُ حوله بحثاً عنه،وما ان لمحه قرب شجرة الجوز الكبيرة، حتى هرول، راكضا، باتجاهه.

حين سمع الشيخ مرشود بالخبر، جحظت عيناه،وهبّ اللظى ناراً في احشائه، حتى وصلت الى حلقه، ثم غامت الدنيا للحظات في عينيه، قبل أن يستجمع اعصابه.وحين وصل الى عقله، عند شجرة الجوز، كان قد ابتلع ريقه المحترق، فخبت النار في أحشائه قليلاً.

لايعرف الشيخ كيف خطرت له هذه الفكرة، لإخبار عقله بالامر. كان آخر شيء يخطر بباله هو القدرة على ضبط انفعال عقلة واندفاعه، حين يعلم بالامر، برغم معرفته لحجم مودته واحترامه في نفس عقله. غير انه كان يعرف أنّ أمراً كهذا لاتُفيد فيه المودة والاحترام، فالدمُ حين يفور يضيقُ بعروق صاحبه.

قال الشيخ مرشود بصوت صارم وحزين:

– «عقله. وقّف عالجوزه»!

دُهش عقله من مطلب الشيخ مرشود، ولم يفهم مايريده بالضبط،وحين اقترب منه الشيخ، ودفعه بعنف الى جذع الشجرة، قال باستغراب حقيقي:

– «خير. خيرْ ياعمْ مرشود».

إلا أن الشيخ لم يرد عليه، واستمر في دفعه الى الشجرة، وتناول الحبل من سرج الفرس، وبدأ بتكتيفه وتربيطه الى جذع الشجره. وظلّ عقله يتساءل، مستغرباً، لماذا يفعل به الشيخ هكذا، ولكن دون أن يقاوم، أو يحرك ساكناً. وحين قال الشيخ، أثناء شد وثاقه بحرقة «لاخير ولا شيء، ميرْ بَلاَ أزرق»، أيقن عقله أن حدثاً كبيراً وقع بسببه، أو أن شكوى كبيرة منه وصلت الى الشيخ، حتى يخرج عن طوره هكذا، فهي المرة الأولى في حياته التي يعامله فيها بهذا الشكل.

انتهى الشيخ من شد وثاقه، من أعلى كتفيه حتى قدميه، وجلس على الحجر الكبير قرب الجذع، وحدّق في الأرض بين قدميه قليلاً وهو يلهث، وحين رفع رأسه ليخبر

عقلة بما حدث، غُص حلقه، ولم تخرج الكلمات، إلا أن عينيه كانتا تتقدان كالجمر. وفجأة، انفجر ببكاءٍ كأنه نحيب، ثم دفن وجهه بين كفيه.

كأن طامّة كبرى سقطت على رأس عقله. لم ير الشيخ مرشود في حياته على

هذا الحال، وحين يأس من التساؤل «ايش في ياعم مرشود. ايش صار»، بدأ بالصراخ والنداء على الرجال الواقفين بعيداً. وحين وصلوا، لم يستطع الشيخ مرشود ان يوقف بكاءه. وبين نحيب الشيخ وصراخ عقله، صرخ أحد الرجال، «رشيدة انخطفت ياعقله. انخطفت».

توقف عقلة عن الصراخ، وسكن جسده عن التململ بين الحبال لفك وثاقه، ثم أشار بعينيه الى الرجال أن يذهبوا. هدأ بكاءُ الشيخ، الا انه استمر بلا نحيب، وظل جسده ينتفض بشدة، بين الحين والآخر، ووجهه مدفون بين كفيه.

كيف يبكي الرجال امام الرجال؟ ايُّ قهر هذا الذي يمكن ان يحرقَ أكباد الرجال؟ احترق لحاء شجرة الجوز مما اشتعل من نار في جسد الوحش، وساعدت الحبال على منع الوحش من التهام اطرافه، أو شُرب دمه الهائج، لحظة جنون. واستيقظ فيه شيء غريب، حين رأى الشيخ مرشود ينتحب امامه لأول مرة في حياته. أما الشيخ، الذي حبس حريقه أمام الرجال، فقد فاض به امام الوحش، وانكشف ضعف الرجال امام الرجال..!

كان الرجال يراقبون من بعيد،وقد مضى وقت طويل على الشيخ جالساً، ورأسه بين كفّيه، والوحشُ امامه، مربوطاً الى جذع الشجرة. وبصوتٍ تجرّح في حلق صاحبه قبل ان يخرج رفع الشيخ رأسه، وقال:

– «ياوليدي، إنت شب وفارس فرسان المراشدة. أنا ربطتك ياعقله عشان احميك وأحمي المراشدة، من «رعدك اللي مْسابق برقَك». وهذي ياوليدي بلْوه، تحتاج للعقل والصبر أوّل، قبل القوة والذراع وزنود الرجال».

بدا عقله هادئاً وهو يصغي الى الشيخ. ثم قال بصوت اطمأن اليه الشيخ:

–«صدقْت، صدقْت ياعمي. بس بْشرطْ»

واشترط الوحش، وقَبِل الشيخ. ثم قام وفكّ وثاقه، وعاد المراشدة صامتين الى الدير، يُلملمون ما تمزّق من نفوسهم في هذا النهار.

ماحدث بين الشيخ وعقله، تحت الشجرة، هو ما منع اياً من المراشدة ان يتدخل حين حمل عقله الجدة حنة، ودفنها والسيف في جسدها. وبدا للمراشدة، بعدها، ان هناك اتفاقاً على كل شيء بين الشيخ مرشود وعقله. وبالرغم من ان احداً لم يعرف شيئاً عن هذا الاتفاق في الايام التي تلت خطف رشيدة، إلا أن الجميع بدا موافقاً على هذا الاتفاق.

وحده «بونا عساف»، ورغم الانفعال والتوتر، الذي سيطر على الجميع، أوقف عقله حين حمل الجدة حنة ومنحها سرّ «الزيت المقدس»، ومِسحة «الخروج من الحياة». وعند القبر بدت عروق وجهه مشدودة، وكأن شيئاً يغلي بداخله، حتى وهو يرسم شارة الصليب بأصابعه الثلاثة، من الأعلى الى الاسفل، ثم من اليمين الى اليسار. وحين وصل الى البيت، ازدادت هواجسه ونوازعه الداخلية، وبدا كأنه يصارع شخصاً آخر بداخله. وفجأة، اتسعت عيناه، وتهلّل وجهه بشراً، وكأنه يرى شخصاً امامه،ثم دار دورة كاملة حول نفسه. وبدأت غلالات شفيفة من النور تجتاح قلبه ووجدانه، وهو يفكر كيف يمكن أن يمنح الرب المراشدة السكينة والهدوء، في اللحظة التي تجتاح فيها النفوسَ نيران الثأر

ولهيبه. وبعد قليل، اهتزّت روحه بشدّة، فوقف فجأة، وخلع ثوب الراهب الأزرق الطويل، ثم طواه بعناية، ووضعه في مكانه، ثم خلع القلنسوة الزرقاء ووضعها فوقه، وتراجع خطوتين الى الوراء. كانت روحه، التي انشطرت فجأة، قد وصلت الى «أن الخوري عساف لازم يظل في الدير»، أما «عساف المراشدة»، فعليه أن يخرج لمساعدة «ربْعه». دار هذا الحوار في ذهنه وهو يتأمل ثوبه الديني الطويل، الذي طواه بعناية. ثم تناول بارودته

من مكان خفي في السقف، وحلّ القماش الذي كان يلفها، ووضعها على كتفه وخرج..

تأكد الشيخ مرشود،منذ اليوم الأول، أن الخاطفين هم من عرب الشيخ شاهين، بعد أن تم قصُّ الأثر ثلاث مرات. وفي المرة الثالثة، ولسبب بدا غامضاً لعقله، خرج الشيخ مرشود مع القصّاص وحدهما، وحينما وصلا الى «مقام عجام»، لفت القصّاص نظره إلى بقعة دمٍ صغيرة على تراب المقام، بالاضافة الى آثار أجساد، بدا التراب محفوراً فيها، عند موضع القدمين، وهو ماعنى للشيخ والقصاص أن رشيدة اغتصبت هنا.اسودّت الدنيا في عيني الشيخ مرشود، إلا أنه، في طريق العودة، أكدّ على القصاص، أن يكتم الأمر عن الجميع، بما فيهم عقله. وفي اليوم التالي، طارت مراسيل الشيخ مرشود مكتومةً الى السلط وعنجرة والحصن، ومرسال خاص الى الشيخ عسران أوصاه ان يتجه جنوباً، وأن يأتي عرب الشيخ عسران من جهة «طواحين العدوان». كان المراسيل يحملون اسئلة محددة، ويطلبون اجابات محددة، ولم يحمل احد منهم طلباً بالمشورة أو الرأي.

وحين جاءت المراسيل، بأسرع مما ذهبت، صار كل شيء واضحاً تماماً امام الشيخ مرشود. عندها، دعا الشيخ وجوه المراشدة الى بيته. بدا الامر غريباً، في هذا الاجتماع، إذ ان الشيخ لم يدع اليه كلّ وجوه المراشدة، كما هي العادة، في امر هام كهذا. بل دعا وجوه الفروع الثلاثة، الذين يشكلون افخاذ المراشدة، وهو ما لم يحدث منذ أن أصبح الشيخ مرشود شيخاً للمراشدة.وما أثار ذهول الحاضرين، في بداية الاجتماع، هو مشهد الخوري عساف، بلباسه الجديد وبارودته، وعمره الذي بدا اقل من الخمسين بكثير،كما قال الشيخ مرشود. أما عقله، فما ان رأى الخوري عساف، بهذه الحالة،وبارودته على كتفه،حتى قام من مكانه وقبّل رأسه.. ثم اخذ منه

البارودة،بعد أن طيّب خاطره قائلاً«الله يْخلّيك يابونا. البارودة ما تْليق بْروحك الطيبة». وبالفعل، ما ان انتهى الاجتماع حتى عادت روح ابونا عساف، المتماسكة، الى موضعها، وأعاد البارودة الى مكانها، ثم ارتدى ثوبه الطويل، الذي أعاد اليه هيبة الخوري عساف..!

هل حضرت روح الجدة حنة ذلك الاجتماع؟ لا أحد يعرف..!

تكلّم الشيخ مرشود، بصوت صارم، يعرف خطورة مايقول:

– «ياجماعة، إحنا انْبلينا،وبلْوتنا ماهي هيّنهْ، والمراسيل اللي وديناها لقرايبنا، وصديقنا الشيخ عسران، وصلت، وما قدّامنا غير (ثلاثْ) حلولْ».

وشرح الشيخ لوجوه المراشدة الحلول الممكنة أمامهم، بعد ان استعرض لهم ما جاء في ردود اقاربهم، ورد الشيخ عسران.

كان رد الشيخ عسران عبارة عن صُرّة سوداء، وكلمات معدودة.وحين فتح الشيخ مرشود الصرّة، كان فيها خنجر مذهّب، وليرة عصملية ذهباً. أما كلمات الشيخ عسران، التي حمّلها للمرسال، فكانت: «يامراشدة، إحنا وانتو دم واحد. إن ودْكوا الثار، هذا خنجري عندكوا، وقدْ ما يعدّوا المراشده فرسان نْعد مثلهم. وإنْ ودْكوا تحلُّوها قضا بين العربان، مثل يا يْحُطوا المراشدة ذهب، نحط مثلهم، والباقي عندكم». أما ردود أقاربهم، في السلط والحصن، فكانت انهم معهم فيما يقررون، وإنْ كانوا يفضلون مساعدتهم عبر المبشرين، الذين يتواجدون في قراهم، وذلك لأنّهم «ايديهم طايلة»، ويستطيعون الضغط على والي سوريا وحاكم حوران، وإن «حصّلت» فإنهم يستطيعون الوصول، عبر قناصل «فرانسا

وايطاليا»، الى الباب العالي. أما أقارب المراشدة في عنجرة، فقد تركوا الامر لهم، وألمحوا للمرسال، بشكل لايخفى، قائلين «إحنا معْكوا بالباع والذْراع».

بعد أن أنهى الشيخ مرشود، شرحه للأمور، اعاد اختصار الحلول المطروحة امام وجوه المراشدة، وقال:

– «يا وجوه الخير. يالثار، وثار المراشدة مو مثل ثار غيرهم! يانِطنِب على عشيرة كبيره، ونستنّى! يا نترجى الخَوَرى الاجانب، يساعدونا عند الوالي اللّي تعرفونه! أما العار فانتو تعْرفون ايشْ اللي يمحيه..»

وصمت الشيخ. وصمت الرجال. وحدّقت العيون في الأرض. أما الوحش، فظلّت عيناه تدوران في محجريهما، وتقدحان لهيبا لو تطاير شرره لأحرق كل من في الليوان. وبدا لعقله ان لحظات الصمت، التي تلت حديث الشيخ مرشود، كأنها دهر.وحين نطق احدهم، وقال «الرأي رأيك ياشيخ، والشور اللي تشور بيه، يمشي عَ ارقابنا»، حينها، هدأت عينا عقلة في محجريهما. ثم تلاه الثاني والثالث بنفس الرأي والموقف.

حين سمع الشيخ هذا الكلام انفرجت اساريره قليلاً، وإن بقي متجهماً. وعقد كوفيته على رأسه، بعد أن لفّها حول وجهه، فاختفى جزء من وجه الشيخ، ووضع يده على ظهر العم توما، الذي كان يجلس بقربه، وقال:

– «يابُورشيده، قلبنا اليوم مجروح، جُرح غميق، في الحشا مستظل. لكن، ورُوح الجده حنة، وسيف عجام، ما يظل فيهم مخبّر. وثار المراشده غالي، والثمن أغلى. قوموا يارجال، عقيد الثار عقله، والباقي دُبّاره عندي..».

انطلق رجالُ الشيخ مرشود غرباً، لترتيب ما سيأتي. وانطلق الفرسان، الذين اختارهم عقله، شرقاً،لمعرفة الديرة والمضارب هناك والطرق اليها ومنها.كانوا ينطلقون في الليل ويعودون في الليل، ولم يبق شيءٌ لم يعرفوه عن عرب الشيخ شاهين.

لم ينس الشيخ مرشود توصية الرجال والوجوه بالكتمان والصمت. وشدد على عدم اخبار النساء، تحديداً، بما تم الاتفاق عليه، او اي شيء من تفاصيله. وبالفعل تغير كل شيء في دير ورق، وصار الجميع اقل كلاماً، وربما اقل رغبة ايضاً في سماع اي شيء. وظلّت قرية الدير تترقب ليلها ونهاراتها، وتنتظر شيئاً لا تعرفه، إلا أنها تُحسُّ به. وحدهم بعض الرجال كانوا يعرفون ما سيأتي..

في اليوم الثالث، لاجتماع وجهاء المراشدة، واتفاقهم على كل شيء، حضر الشيخ عسران، وبدا ملهوفاً لمعرفة ما الذي استقرّ عليه رأي المراشدة.

اختلى الشيخان، وحدهما، واتفقا على أن يذهب الشيخ عسران الى الشواهين، لمعرفة مطالبهم وشروطهم، لتسليم «البنت». وبالرغم من خصومة الشيخ عسران للشيخ شاهين، منذ انشقاقه عن عُربان بني عسران، إلا أنه وافق على مضض، إكراماً للشيخ مرشود والمراشدة، ولوعادت الامور اليه، لما قبل ان يرى وجه هذا «الهامل، الخايس» كما قال. وبالفعل، عاد الشيخ عسران، وبأسرع مما توقع الشيخ مرشود. كانت شروط «الشواهين» أكبر من توقعات الشيخ مرشود، وإن كانت قريبة منها.

أما الشيخ عسران، الذي فوجئ الشيخ شاهين بمجيئه، وسرت فيه رعشة مهابة قديمة، فقد تفرّس في عيون الرجال، الذين كانوا حول الشيخ شاهين. وحين وقع نظره على

رجل مجرّح الوجه، يجلس قرب الشيخ شاهين، رفع صوته بتهكم واضح، وهو يشير بعينيه الى الرجل:

– «منهو ياشاهين اللي خطف البنت؟ بالله ماهو هذا، أبو وَجهْ صغير»؟.

تعكّر وجه الرجل، واندفع صدره الى الامام، وردّ بغضب:

– «ياشيخ، أنا أمي جابتني في غلا الوجوه، مير الرجال بفْعالها ما هيْ بوْجوهْها»!

فرد الشيخ عسران بنفس لهجة التهكم:

– «عفارمْ، عفارمْ ياصقر ام قيس، تْريدهْ فرَّاسْ، وهُو وَكرِي!»

توتّر الجو بسرعة، فأخلى الشيخ شاهين الديوان من الرجال، واختلى الشيخان مدةً لم تطل، خرج بعدها الشيخ عسران غاضباً، وهو يقول للشيخ شاهين بأن المراشدة لن يوافقوا على مطالب كهذه.

كانت مطالب الشيخ شاهين أن يتخلى له المراشدة عن ثلاثة أرباع أراضيهم الشرقية، التي يزرعونها شعيراً، وهي التي تمتد من «تلْ عْجام» في الجنوب، وحتى «رجوم الشمّري» شمالاً، وبالاضافة الى ذلك على المراشدة أن يدفعوا له سنوياً «خاوه»، قَدرها عشرين ألف قرش وثلاثين خابية نبيذ، وذلك مقابل إعادة البنت اليهم، وعدم الاعتداء عليهم ثانية.

أعاد الشيخ عسران هذه المطالب، بتهكم بالغ، على مسامع الشيخ مرشود، وحين أنْهى حديثه، قال الشيخ مرشود، وقد تقلصت عضلات وجهه:

– «شيحانْ أقْرب إلهُمْ، هالكلاب».

طال حديث الشيخين، واتّفقا على أن يعود الشيخ عسران للشواهين برد المراشدة. وفي الصباح، خرج الشيخان معاً، نحو الجنوب، الى أن وصلا الى «مقام عْجام». وهناك، تعاهد الشيخان، ثانية، على تجديد عهودهم القديمة، وأُعيد تجديد قسم الاخوّة والتحالف، أمام الولي والقديس عْجام. وبعدها اتجه الشيخ عسران شرقاً، الى مضارب الشواهين، وعاد الشيخ مرشود الى الدير.

كان رد الشيخ مرشود للشواهين انه موافق على هذه المطالب، ولكن

بشروط، وهي أنْ يحضر الشيخ شاهين والخاطف والبنت الى دير ورق، رداً لكرامة المراشدة، وهناك، يعقد الاتفاق والصلح،ويتم استلام أول دفعة من «الخاوهْ». واضاف الشيخ مرشود، ان بإمكانهم احضار من يريدون من الوجهاء الفرسان لحضور الاتفاق، وانه لن يكون هناك أحدٌ من المراشدة في استقبالهم، منعاً لفورة دم قد تصيب أحد الشباب، وعلى الشواهين، حين يحضرون الى الدير، ان يتجهوا مباشرة الى خان القرية، الذي يعرفونه، حيث ستكون الطرقات خالية من المراشدة، وهناك، سيحضر الشيخ مرشود، وحده، لمقابلتهم وعقد الاتفاق وابرامه.

وحين سمع الشيخ شاهين هذا الرد، تهلل طمعاً، وقال:

– «ما قلت لك، ياشيخ عسران، انهم راح يوافقوا، أنا اعرفهم اكثر منك».

ثم اضاف بتودد:

– «ياشيخ، ياشيخ، تقْدر تخلّيهم يوافْقوا، يجوّزون البنت للولد؟».

اكفهّر وجه الشيخ عسران، وقال بغضب:

– «عيبْ. استحي ياشاهين. انت تعرف إن المراشدة ما يجوّزون بناتهم، لا لمسلمين، ولا لَغيرْهُم. الناس قِبلوا شروطك اللّي ما تنطاق، مشانْ بنتهم وكرامتهم. ترى أرْفع ايدي عن السالفه كلها».

عندها تراجع الشيخ شاهين بسرعة، قائلاً:

– «لأ، لأ، ياشيخ، اتفقنا»!

تحدد اليوم، والموعد، وكذلك بقية التفاصيل، التي سأل عنها الشيخ شاهين. وقبْل أن يلْوي الشيخ عسران عنان فرسه، عائداً الى الدير، لم ينْس أن يؤكد على الشيخ شاهين، محذِّراً، «دير بالك، يا شاهين من «البُوْقْ»، ترى السالفةْ

كلها بوجهي»، ولم يغادر إلا بعد أن سمع ما يُطمئنه.

لم تكن موافقة الشيخ شاهين، على شروط المراشدة، بسبب تدخل الشيخ عسران، وتأكيداته فحسب. فالأراضي، والخاوه، التي وافق المراشدة على دفعها، أسالت لُعابه، اذ لم يكن يظن أن المراشدة سيخضعون بهذه السرعة، ويستجيبون للأمر الواقع، الذي أصبح فيه، صاحب أقوى عشيرة في الجوار كله، ومسنودةً من متصرف حوران. وحين تساءل خاطف رشيده، عن امكانية أنْ يخدعهم المراشدة، اجاب الشيخ شاهين بأن المراشدة اعقل من ذلك بكثير، وهم يعرفون انهم يسكنون في قرية ثابتة، وليسوا بدواً رحّلاً، وان لهم اراضٍ، ومصالح كثيرة، تربطهم في المكان، ويعرفون ايضاً اننا سننتقم منهم لو حاولوا خداعنا.

كان الشيخ مرشود قد اتفق مع عقله على ان يرحل المراشدة قبل الموعد المحدد، بيومٍ او يومين، على أن يذهب كل فرعٍ منهم إلى حيث أخوالهم في السلط وعنجرة والحصن. وذلك بهدف تلاشي المراشدة أي ثأر مضاد، سيفكّر فيه، بالتأكيد، عرب الشواهين ورشيد

باشا، بعد انتقام المراشدة منهم. بعد هذا، يقوم عقله والفرسان الثلاثون، الذين سيبقون معه، بقتل كل من يحضر من وفد عرب الشيخ شاهين الى الدير، بمن فيهم الشيخ نفسه. ثم يعود الفرسان، الذين رافقوا عقْله، بعد الثـأر، الى اهلهم في السلـط وعنجرة والحصن. أما عقْله، فعليه ان يختـفي بعدها، لأنه سيكون مطلوباً لدرك رشيد باشا ولعرب الشواهين. وبرحيل المراشدة وتوزعهم فلن يكون هناك هدف لأحد كي ينتقمـون منـه، في حـين يكون عقْلـه قد افتدى المراشدة جميعهم، بتطهـيره للعار، الذي لحـق بهم، وبحمْلـه للثـأر علـى كاهلـه وحـده. ولسبـب مـا، لا أحـد يعرفـه، وعند الرحيـل، أخـبر الشيـخ مرشود عقله باغتصاب الخاطف لرشيدة في «مقام عجام»..!

هذا ما تم الاتفاق عليه، بين عقله والشيخ مرشود، أما ما حدث، فشيءٌ آخر تماماً، لم يخطر للشيخ مرشود يوماً، على بال...

* * *

جاء «نَوءُ البُطين»، وهو آخر نَوءٍ يمر على المراشدة، في دير ورق. و«أزهر الزيتون»، ودخلـت ايام ايار الأولى، وحين جاء موعد «الزرع الصيفي»، لم يزرع احد من المراشدة شيئاً.

وفي ليلة من ليالي ايار، سال فيها «عسل التوت»، الذي نضج، دون ان يقترب منه احد، نام المراشدة ليلتهم الاخيرة في دير ورق. وجاءت ليلة الرحيل. لم تكن ليلةً كغيرها. كأنّ ليل الليالي كله حضر في ليلة الرحيل هذه. حالكاً، داكناً، عَبَرَ الليل هزيعه الأول، في ليلة دير ورق المشؤومة.

كيف ترحل القرى عن أهلها؟! كيف ينسلخ الناس عن جلودهم؟! كيف تغادرُ الأرواح أجسادها، لتبقى محوّمةً في الهواء، وفي رؤوس الجبال؟!

ما ان اجتاز الليلُ هزيعهُ الكالح حتى بدأت السماءُ فجأة، تنقشعُ عن صفاءٍ غريب، لم يكن مألوفاً، في هذا الوقت من السنة.

وبهدوء متسارع، بدا كأنّ ستاراً كثيفاً، داكناً، ينزاح ببطء، عن قُبّةٍ من الضياء الشديد والموحش.

يقول بعض المراشدة، ان الشيخ مرشود في ليلة الرحيل لم يبكِ حين صعد بفرسه نحو الجهة الغربيــة من البلدة. أما الذين كانوا أقرب الى الجهة الغربية من التل، فيقولــون، ان الشيخ مرشود كان يغني، ويضيف بعضهم، انهم سمعوا أصواتاً كثيرة، كانت تغني معه، وان فرسه بدأت بالقفز في مكانها، وكأنها كانت ترقص رقصة مجنونة.

والصحيح، ان الشيخ مرشود لم يكن يغني، حين صعد التلّ الغربي لتفقد الطريق، الذي سيسلكه المراشدة، هذه الليلة. وحين وصلت فرسه الى السهل هاجت، تمنعت، وبدأت بالدوران حول نفسها، وكأن مسّاً قد اصابها. كانت الفرسُ تحدّق في الأرض، وحين انقشع الظلام، وبدأ ضياء القمر يغمر الارض، بشكل مفاجئ، رفعت الفرس رأسها نحو القمر، وبدأت بالصهيل. لا، لم يكن صهيلاً. كان صراخاً مجنوناً، هائجاً، غريباً. وعبثاً حاول الشيخ مرشود تهدئة الفرس، التي بدأت تضرب الارض الرخوة بقدميها، في حركة بدت وكأنها دوران حول نقطة واحدة.

في لحظة ما، من هذا التوتر المشحون والمحموم، بدأ الشيخ مرشود بالصراخ، فاختلط صراخه بصهيل الفرس الهائجة، فبدا وكأنه يغني.

لم يفهم أحد من المراشدة، الذين كانوا على مقربة من السفح ما الذي حدث للشيخ والفرس، ولم يقو احد منهم على التدخل. وفجأة، صوّب الشيخ مرشود بارودته نحو القمر، فشقّ صوتُ البارود صراخه المعجون بصهيل الفرس. حينها، هدأت الفرسُ،وهدأ الشيخ، بعد ان غاص البارود عميقاً، مكتوماً، في بطن الليل، فتحوّل صهيل الفرس وصوت الشيخ الى صوت واحد، بدا مذبوحاً كأنين مكتوم. ثم بدأ الشيخ بصعود التل، عائداً الى القرية، لبدء الرحيل، الذي أعدّ له منذ أيام.

يؤكد هذا ما كتبه الخوري عساف في أوراقه، عن هذه الليلة الغريبة، بقوله: «انه يمكن ان يكون الشيخ مرشود، في طريق العودة، قد بدأ بغناء حزين، وهو الغناء الوحيد الذي كان يُحبه ويحفظه».

وفي مكان آخر من الأوراق، يضيف الخوري عساف، انه في اعوام الجفاف، وفي ليالي الصيف، حين كان يخرج مع الشيخ مرشود الى الحقول الغربية، بعد أن تكون الصدور، قد ضاقت بما فيها، فإن الشيخ كان يدندن بكلماتٍ هي أقرب الى الحِداء منها الى الغناء:

«نمْشي على ما يْقدِّر اللّه..

واللْكاتبُه ربِّك يصير..

نمشي على ما يْقدِّر اللّه..»

وما ان وصل الشيخ مرشود الى النخلتين، ولوّح بيده، حتى انطلق المراشدة، يصعدون التل، بخيلهم وجمالهم وبغالهم، وحين وصلوا الى السهل، انحرف القمر غرباً، وصار حادياً لمسيرهم، واندفعوا كأمواج سنابل هبّت فيها الريحُ. وتردد في آفاق الليل، حولهم، صدى غناء الشيخ الحزين :

«نمشي على ما يقدّر اللّه. واللكاتبُه ربَّك يصير».

غامت الشمس، وشَحُبت، ومالتْ عن الوادي الحزين، بعد رحيل أهله. في تلك الليلة، نام وحش الدير والفرسان، غرباء، في رؤوس الجبال.

في اليوم التالي، وحين أشرقت الشمس، بأول نهارٍ على الدير من دون المراشدة، صَفقت في الريح أبوابُ بيوتٍ خلتْ من أُناسها، ولاحت عيونُ البوم، وطيفُ دوائرها، كرائحةٍ صفراءَ، تحوّم في الهواء من بعيد.

تفتّح حزنٌ كثير، وافترقت الارض عن ناسها، فغابت عن الدير رائحةُ مطرٍ مشتهاة، وأمعنت في الرجال عروقُ الغضب..

فهانت الحياة. قبل رحيل الشيخ مرشود، كان الرجال، الذين ارسلهم الى السلط، قد استطاعوا الحصول على كميات كبيرة من ملح البارود، الذي يستخدم في مقالع الحجارة، لتفجير الصخور، وكذلك حصلوا على كميات كبيرة من حبال الليف الغليظة. وهي مواد اتفق عقله مع الشيخ مرشود على ضرورة الحصول عليها، قبل الرد بموافقتهم على شروط الشيخ شاهين.

حفر فرسان عقله قناة صغيرة في التراب، أحاطت بكامل الخان وساحته، اللذين يقعان قرب مدخل القرية الشرقي، وتلاصقهما كروم الرمان الشرقية. ثم ملأوا هذه القناة

بكميات من ملح البارود، ومدّدوا منها خيطاً متصلاً، من ملح البارود، الى داخل كرم الرمان المجاور. ثم غطّوا قناة البارود بالاشواك والحطب، بحيث بدت كأنها سياج للخان وساحته. وفي مدخل الدير الشرقي، الذي تضيق تلاله، بحيث تبدو كبوابة كبيرة للدير، شدّ عقلة حبلاً غليظاً على الأشجار، الواقعة على أعلى طرفي المدخل. وعلى هذا الحبل المشدود عُلِّقت حبال طويلة، تقترب اطرافها من الأرض. في هذه الحبال، علّق عقله عدداً كبيراً من الضباع والذئاب وبنات آوى والحيوانات التي كان يقتلها في ادغال الدير الشمالية.

وفي أذيال هذه الحيوانات المقتولة ربطوا أقمشةً، وحصائر من القش، وطُرّاحات من الصوف، وبطانيات قطنية. ثم شدّوا هذه الحبال، المتدلية، وما رُبط فيها، وأخفوها في الاشجار الواقعة على طرفي التل.

احتل الفرسان مواقعهم على التلال المحيطة بمدخل القرية الشرقي، بعد أن أشعلوا المشاعل، وعلّقوها في رؤوس الاشجار المحيطة بسفوح الدير، تحسباً لتأخر الوفد الى ما بعد الغروب. وبالفعل، فقد تأخر رجال الشيخ شاهين، الى مابعد الموعد المضروب بقليل تحسباً لإي كمين. بل وأكثر من ذلك، فلم يظهر منهم، في البداية، سوى عشرة فرسان، كانت خيلهم تركض بشكل متفرق، وما ان تأكدوا أن لا شيء يثير الشبهة عند مدخل الدير، حسب الاتفاق، حتى لوّح احدهم بيده، فظهر باقي الفرسان، الذين يقاربون الأربعين، وفي وسطهم هودج رشيدة، محمولاً على جمل، يحيط به الشيخ شاهين، وخاطف رشيدة.

دخلت خيول الشواهين الدير، وحين شاهدوا خلو شوارع القرية من الناس، حسب الاتفاق، ازداد اطمئنانهم، وتقدموا نحو الخان، وتبعهم جمل رشيدة وباقي

الخيول. وصلت خيول الشواهين الى ساحة الخان، عندها، أشعل عقله، وبعض فرسان المراشدة، النار في الاقمشة والطرّاحات، المربوطة بأذيال الحيوانات المعلقة بالحبال، ثم أطلقوها تتأرجح هي والنار في الهواء، فبدا منظر الحيوانات، والنار تحيط بها من الأسفل، مخيفاً. وما ان شاهد الفارس، الذي اوقفه عقله في كرم الرمان، أول شعلة نار عند المدخل، حتى أشعل فوراً خيط البارود. وفي لحظات، هبّت دائرة كبيرة من النيران حول الخان، الذي كان يقف في ساحته رجال الشواهين.

دبّ الرعب والهلع في رجال الشواهين، وتعالى صراخهم، وما إن خرجت اوائلهم، على خيلهم راكضين، حتى ابتدأ رصاص عقله وفرسانه، الموزّعين، باصطيادهم واحداً واحداً. وحين وصلت اوائل الخيل الهاربة الى مدخل الدير، ورأت مشهد الحيوانات المعلقة، وهي تتأرجح في الهواء، والنار تشتعل من تحتها، وتكشف وجوهها المرعبة، عندها، هاجت الخيل، ودب فيها الرعب، فانثنت عائدة الى الخلف، وهو ما كان مطلوباً. اذ ان الخيل، عندها، تكون مضطرة الى السير بسرعة أقل، وهي تصعد الطريق الغربية، ذات الارتفاع الشديد، وهو ما مكّن فرسان المراشدة من اصطيادهم، دون ان يفلت منهم احد.

وبعد قليل، بدأ البعض من رجال الشواهين يخرجون من دائرة النار، واللهب يتعالى من اجسادهم واجساد خيولهم، وماهي الا لحظات، على خروج المحروق منهم، حتى يسقط الرجل وفرسه فاقدين للحياة.

أما من تبقى من رجال الشواهين في الخان، كالشيخ شاهين ورشيدة وجملها، فقد احترق بالكامل..!

لمع بريق الثأر في عيني عقله، وتجمّع باقي فرسان المراشدة، خارج المدخل الشرقي للدير، لإكمال باقي خطة عقلة، وهو القسم الذي لا يعرف به الشيخ مرشود. انطلق الفرسان شرقاً، باتجاه مضارب الشواهين. وفي الطريق، قال الفارسُ، الذي اشعل البارود في الخان، انه حين اشتعلت نيران البارود، وتعالى صراخ الرجال، وهم يحترقون، سمع هديراً يصم الآذان في السماء يصرخ وينادي على «عجام»..!

كان باقي خطة عقلة أن ينقسم رجاله الى اربع مجموعات متساوية، للدخول إلى مضارب الشواهين من الجهات الأربع. وبالفعل، ما إن وصلوا إلى المضارب، قرب منتصف الليل، حتى انقسموا إلى أربع مجموعات، احاطت بجهات المضارب الاربع، ثم اصطف افراد كل مجموعة في صف يبدأ من أول المضارب وينتهي في آخرها. أما عقلة، وفارسان آخران، فبقوا بعيداً، في الجهة الغربية، لاصطياد اي شخص يخرج من الشواهين قبل اكتمال الخطة. وحين اطلق عقله طلقته، المتفق عليها، كان رجاله، في كل الجهات، قد اشعلوا مشاعلهم الطويلة، وانطلقوا على خيلهم باتجاهات متعاكسة، وبدأوا باحراق بيوت الشواهين، بأسرع ما استطاعوا، حتى التقت كل مجموعة مع المجموعة المعاكسة لها، وانطلقت المجموعات بعدها، خارجة من مضارب الشواهين. أما عقلة، فما ان جاءت المجموعة القادمة من الشرق، دون ان يصاب أحدٌ منهم بأذى، حتى ابتعد وإياهم باتجاه الغرب، منتظراً وصول باقي المجموعـــات في مكان متفـــق عليه. وبعد قليل، اكتمل الفرسان جميعاً، وانطلقوا نحو الغرب،

مسرعيـــــن، حتى وصلوا إلى «مقام عجـــــام». وهناك، افترق عقله والرجال، كمـــا

هو الاتفاق، بأن يعودا الى اهلهم، في السلط والحصن وعنجرة، أما عقله، فقد عاد الى دير ورق. وقبل أن ينطلق فرسان المراشدة، عائدين، شاهدوا مضارب الشواهين، وهي تتحول الى كتلة من اللهب تشقّ عنان السماء، وتضيء عتمة الليل. ولا أحد يعرف، هل بقي أحدٌ من الشواهين حياً أم لا..!

حين وصل عقلة الى دير ورق، قاصداً رؤية رشيدة، لآخر مرة، كان الفجر قد اقترب، ولاحت خيوطه الأولى. وحين دخل الدير، رأى ما قلب كيانه رأساً على عقب. كانت المشاعل، التي تركوها في رؤوس الاشجار، قد أحرقت كل الاشجار المحيطة بتلال وسفوح الدير العالية، وبقايا النيران والدخان تملأ الافق. جُنّ جنونه، وبدأ يصرخ بصوتٍ رددت سفوحُ الدير صداه،ثم انطلقت فرسه راكضة في الدير بشكل هستيري، الى ان وصلت الى الخان، وهناك، كان كل شيء قد تفحم، وحتى رشيدة لم يستطع الاستدلال عليها إلا من عظام الجمل، الذي لم يبق منه سوى عظامه وجلده المحروق..!

حين سقط أول شعاعٍ للشمس على الجثث المحروقة، في دير ورق، أفاق عقله من صراخه وجنونه وحريقه. فلوى عنان فرسه نحو الغرب، وصعد الطريق الغربية، ثم انحدر في السفح الغربي، الى ان وصل السهل، فأطلق لفرسه العنان، وأمعن راكضاً، في سهول حوران، على غير هدى..

بعد مسافة طويلة من الركض غرباً، شدّ لجام الفرس فجأة، فتوقفت، واستدارت نحو الشرق. كان الفجر قد اكتمل، والشمس فاضت على السهول ضياءً. أما

هي، دير ورق، فبدت أشجارها، من بعيد، كأنها رؤوس ذئاب محروقة. ورويداً رويداً، تحولت الرؤوس المحروقة الى كائنات اسطورية، مسكونة بالخوف، والوحشة، والغربة..

ارتحل طيف الالوان في عينيه، غموضاً ورهبةً، على سفوح الدير، واشجاره

المحروقة. ثم لفّ الرأس المحروق، عمامة طويلة بيضاء، من بخار الأرض والغمام، حتى توحّدت بالسماء. وحين امعن الفجر في الصباح، بدأت العمامة البيضاء بالانفصال على مهل عن السماء البعيدة. وعلى رؤوس تلال الدير، بدأ الرأس المحروق بخلع عمامته من البياض الطويل.

لم يعد هناك شيءٌ سوى الصمت.. عالياً، مخيفاً، كعلوّها الشاهق. لا أحد سوى الاشجار المحروقة على تلالها العالية. وابتدأ زمان آخر في حياة المراشدة، وزمان الغريب في حياة عقله...

القسم الثاني

«... ان عملية الكشوف الجغرافية قد اكتملت، وإنه لم تعدْ في الكرة الأرضية، كلها، بقعة غير معروفة، وغير مطروقة، وغير مرسومة».

الجمعية الجغرافية الملكية بلندن

ايار سنة 1091م

في اواخر حزيران «اشتد الحرُّ وقوي»، وحين اقبل تموز هبّت «أولُ رياح السموم»، وابتدأت «خماسينية الصيف». في هذا الوقت من السنة، عادة، «يبرد بطن الأرض»، فتخرج الكائنات، من شقوقها وأثلامها، الى السطح، بحثاً عن الدفء، وشيء من الضياء. أما الجذور العميقة، فما ان تبدأ الشقوق تفتح وجه الأرض وسطحها، حتى تكون رطوبة التراب قد غارت بعيداً، في اعماق الارض. عندها، تبدأ الجذور بالاعتماد على رؤوسها العميقة والابعد، في الحصول على الماء والحياة. وحين تقسو الارض، أكثر، بجفاف، يوغلُ في ابعاد الماء والرطوبة، الى الاعماق، فإن الجذور تجفُّ، وتصير حطباً، لاخيار له، سوى التعفن والموت في باطن الارض، أو الاشتعال، بعد ان استحالت حياة الجذور، على السطح او في الاعماق.

في تلك الاثناء، وصل المراشدة،من «آل رشود» وعلى رأسهم الشيخ مرشود،

الى «الحصن»... وهناك، ابتدأ زمانٌ آخر في حياتهم. صحيح، ان كل شيء كان معداً ومرتباً، بشكل مُسبق، لوصول المراشدة، الى الحصن، وكذلك الى عنجرة والسلط، إلا أن كل شيء بدا غريباً في استقبال أهل الحصن للمراشدة. فالبلدة، التي مزّقتها الخلافات، والنزاعات العشائرية والدينية، في الاعوام الماضية، منذ وصول المبشرين والمرسلين الاجانب اليها، كانت في استقبال المراشدة عن بكرة ابيها.

خرجت عشائر المسلمين والمسيحيين، الى الحارة القبلية، في الحصن، لانتظار وصول الشيخ مرشود وجماعته الى بيوت اخوالهم من عشيرة «الشيحاني».

وحين استغرب الاب «نافوني» ذهاب الشيخ سلامة «ابو عقيل»،وهو شيخ طائفة اللاتين، من عشيرة «النويرات»، أجابه الشيخ، وهو يستعجل تحضير فرسه، وبدا كأنه يحدث شخصاً آخر:

– «هذول المراشدة يابونا بطرس. وجوهْ الْبلاد، واهلها. ماهم طايْفهْ، ولا خطّارين»!

والاب «تيوبالدو نافوني»، وهو ايطالي،كان اول مرسل لاتيني أرسلته البطريركية في القدس، لتأسيس ارسالية اللاتين في الحصن. وبالرغم من تعلمه للغة العربية، في البطريركية، إلا أنه ظل لسنوات طويلة في الحصن لايفهم، تماماً، طبيعة هؤلاء الناس، وسرعة تغير مزاجهم ويقينهم، خصوصاً، بعد ان رأى حدة الخلافات والمشكلات بين العشائر التي تحولت الى الطقس اللاتيني، وهي الطائفة التي يرعاها، وبين عشـــــائر الروم الارثوذكس، الذين انشقوا عنهم، والتحقوا به واصبحـــــوا لاتين. وحين لاحظ الحماس والاستعجال، الذي كـــــان عليه الشيخ سلامة، عزاه الى بعض الاشياء، التي لاتزال مجهولة بالنسبة له،

في طبائع هؤلاء الناس. إلا أن «الأب بطرس» كما كان يناديه آل النويرات، اللاتين، لم يجد بداً من اللحاق بالشيخ «ابو عقيل»، لمتابعة ما يحدث.

امتلأت مضافات عشيرة الشيحاني، في الحارة القبلية، بوجوه وشيوخ بلدة الحصن، استعداداً لاستقبال المراشدة، وحتى مضافة «سمعان» الواسعة لم يبق فيها موطئ قدم. كان الشيخ برهوم، شيخ عشيرة الشيحاني، في انتظار الجميع ،ويلازمه في استقبال الناس، والترحيب بهم، كاهن الروم الارثوذكس، الخوري عيّاد. وحين سأله الخوري عيّاد، بصوت متردد:

– «فكْرك، ياشيخ، النويرات والشيخ سلامة يجونْ؟»

اجاب الشيخ برهوم، بلا اكتراث:

– «والله ما أدري. بسْ هذا، مِثل دِبّ عنجرة و..».

وقبل ان يكمل الشيخ برهوم كلامه، أطل وجوه النويرات، وعلى رأسهم الشيخ سلامة، من الطريق التي تمر بالقرب من دار الخوري عياد. فصرخ الخوري، بصوت مكتوم:

– «إجوْ، ياشيخ. إجوْ».

فبدا على وجه الشيخ برهوم شيء من الإرتباك، مالبث ان تجاوزه بسرعة، وتحرّك بتمهل، يتبعه وجوه آل الشيحاني، لاستقبال النويرات. وبعد لحظات، وصل الأب «نافوني»، ثم تلاه الشيخ صالح، شيخ عشيرة «الرْماحي»، يرافقه امام الجامع، الحاج رباح. وبعدها وصل وجوه «الشويرات»، وهم من طائفة الروم الكاثوليك، وكذلك وجوه طائفة البروتستنت، من عائلة «النواصير».

منذ اعوام طويلة، لم تألف الحصن هذا الشكل من التوحد والاتفاق، بين عشائرها وعائلاتها، بعد أن تكاثرت طوائفها. وبدا للشيخ صالح، أن المراشدة

أعادوا تجميع أهل الحصن، قبل وصولهم، كما همس بذلك في أذن الحاج رباح.

وبالفعل، فحين وصل الشيخ مرشود، ابتدأ اخوالهم من عائلات الشيحاني بانزال عائلات المراشدة في بيوتهم، مؤقتاً، أما رجال الحصن، فقد بدأوا يتجمعون من المضافات، الى مضافة الشيخ برهوم، التي تقع على طرف الساحة العمومية، في الحارة القبلية. وبعد الترحاب الشديد، الذي لقيه الشيخ مرشود، من وجوه اهالي الحصن، بدأ الشباب يتجمعون في الساحة، امام المضافة، وبدا المشهد وكأنه عُرس، وَسَرتْ في الشباب رغبة في الدبكة، وهي رغبة أحس بها الشيخ مرشود، بسرعة،حين رأى حركة اقدام الشباب المتفرقين، فهمس في أُذن الشيخ برهوم، قائلاً:

– «ياخال برهوم، غُربهْ، وكرْبهْ، وكُحلِ الغوى، ما يْواتي!»

إلا أن الشيخ برهوم، الذي وافقه على الفور، لم يستطع فعل شيء، بعد أن كان الشباب قد اصطفُّوا في حلقة طويلة، نصف دائرية،وبدأت الأرض ترتج تحت اقدامهم، في ضربات منتظمة، جعلت جميع المحيطين بحلقة الدبكة يصفقون بإيقاع منسجم، وهوما زاد من ضربات الاقدام على الارض رتابة وانتظاماً. وبعد أن دارت حلقة الدبكة، في الساحة الكبيرة، عدة دورات، لم يعد يُسمع سوى صوت الاقدام تضرب الارض بعنف،كأنها خيلٌ تركض في مكانها. وفجأة علا صوت «اللّوِّيح» الذي كان في اول صف الدبكة،ولوّح في الهواء بكوفية في يده، فجاء صوته كأنه ريحٌ عصفت بالمكان فجأة:

– «يابو رشيده، قلْبنا اليوم مجروح»

ورددت الجموع والشباب بعده:

- «يابو رشيده قلْبنا اليوم مجروحْ»

فارتجّت الساحة بأصوات الرجال وبالغناء الذبيح...

وأكمل اللّوّيح غناءه، المُغنَّى، والجموع تردد وراءه، على وقع اقدامٍ رتيبةٍ، تضرب الأرض بعنفٍ، كأنها تريد ثقبها:

«جُرح غميقٍ، في الحَشا مستظلِ
ظلّيتْ أنادي، واطرق الباب بالسيفْ
عيّوا (مرشود)، هَلَك لا يفتحونا..».

حين سمع الشيخ مرشود أول مقطع من غناء الشباب، عرف أن الريح حملت «صُراخ الجدة حنّه»، ونواحها، ونثرته في الهواء. ضاقت عيناه، ثم رفّت عينه اليسرى عدة مرات الى أن هدأت، أما قسمات وجهه، وتجاعيدها، فقد تقلّصت، وضاقت عيناه أكثر، حتى بدا كأنه نائم، عندها، لم يعد يرى سوى مشهد عقله، وهو يحمل الجدة حنّه على فرسه، وسيفها مشرعٌ في جسدها نحو الفضاء.

لم ينتبه الشيخ مرشود الى العم توما، الذي كان يجلس مقرفصاً بجانبه، فقد اخذته اصوات اقدام الرجال الى دير ورق. تقلّص جسد «ابو رشيدة» اكثر، وحين سمع الغناء تلفّع اكثر بعباءته السوداء، وازدادت اطرافه التصاقاً ببعضها. وقبل أن يُنهي الشباب دبكتهم، انتبه الشيخ مرشود الى «ابو رشيده»، بعد أن مال رأسه على كتف الشيخ، فظنّ أنه نائم من التعب. وحين أمسك الشيخ رأس العم توما، ارتعشت يداه،كان جسده قد تحوّل الى كتلة من الصقيع. عندها، انتفض الشيخ من مكانه كالمصعوق، وكشف

عباءة ابي رشيدة، فسمّره المشهد في مكانه.كان جسد العم توما قد تكوّر بشكل عجيب، والتصقت ركبتاه ببطنه، أما يداه، فقد أحاطتا بركبتيه كأنهما تحضنانهما. تجمّد جسد العم توما،وجفّ، صار كالحطب، ولم يستطع أحدٌ ان يفك جسده المتشابك.وحتى الاب نافوني، الذي يعرف الكثير عن الطب والتطبيب، أصابته الدهشة والذهول، إذ لم ير في حياته شيئاً كهذا.

مات العم توما. غير ان المؤكد، انه احترق، قبل ان يموت! احترق من الداخل. احترق لحمه كاملاً، من دون نار أو دخان، اما دمه، فقد تخثر في عروقه، وجف، قبل احتراقه. لم يبق الا العظام، التي جفّت كل السوائل في مفاصلها. وبقيت صورة ابي رشيدة، عظاماً متصالبة ومصلوبة، معلقة في الهواء كالأشباح...

في اليوم التالي لوصول المراشدة، الى الحصن، كان هناك اجتماع لوجوه البلدة والعشائر جميعها، في مضافة الشيخ صالح، شيخ عشيرة الرماحي، في الحارة الغربية، ومن غير المعروف، كيف تم الاتفاق بين عائلات الحصن، على ان يكون هذا الاجتماع في مضافة آل الرماحي المسلمين، وهم الأقل عدداً في البلدة، ولا يشكلون اكثر من ثلث سكانها، في حين تشكل العشائر المسيحية، بطوائفها المختلفة، باقي الاهالي.

تغيّر أهل الحصن فجأة، وحتى الشيخ سلامة، والشيخ برهوم، اللذين اشتكوا على بعضهم، عدة مرات، قبل أسابيع، ذهبا الى مضافة الشيخ صالح سوية. وهو ما بدا امراً غير مفهوم للأب نافوني ولمساعده الهولندي «الاب سميتس»، وساورتهم الشكوك، بأن وصول المراشدة، هؤلاء المجهولين، بالنسبة لهم، قد يكون سبباً في عودة عشيرة النويرات من الطقس اللاتيني الى ما كانوا عليه كروم أرثوذكس، وهو ما حدث قبل عدة سنوات، حين اختلف النويرات مع «الأب نافوني»، حول عطلة الأحد والاعياد الدينية،حين جاءت في موسم الحصاد المشترك مع جميع عشائر البلدة وعائلاتها.

والحقيقة، ان مخاوف الاب نافوني، ومساعده الاب سميتس، كانت في غير محلها، ومالم يفهماه من علاقات العشائر ببعضها شيء لم يكن له علاقة بالطوائف او بالدين. وما بدا لهما غريباً من سرعة التغير في يقين العشائر وسلوكها لم يكن مزاجياً، بقدر ما كان تشابكاً وتداخلاً،معقداً، من عادات وقرابات وتقاليد واعراف، انغرست في حياة العشائر عبر مئات السنين. وبرغم معرفة الآباء الاجانب،البسيطة، للغة العربية، فقد ظلّت كلمات كثيرة،مثل «المروة»، و«النخوة» و «الشهامة» يصعب عليهم فهم اسبابها ودوافعها، وكيف يمكن ان تتحول بسرعة الى سلوك عملي، في حياة الناس.

أما حين هدد النويرات، الاب نافوني، بالعودة الى طقس الروم الارثوذكس، حيث عاد قسم منهم بالفعل حينها، فقد كان ذلك لأسباب عملية بحتة، لم يُحسن راعي طائفة اللاتين التعامل معها في بداية تأسيس ارساليته التبشيرية. «فأراضي البلدة الزراعية، كانت مشاعاً وتزرع في كل موسم من قبل عشائر البلدة بطريقة «المرابعة». إذ تُقسّم الاراضي الى حصص كل عام، يأخذ المسلمون ثلثها، وتأخذ العشائر المسيحية ثلثي الاراضي، وذلك بالقرعة،و بحسب نسبة تعدادهم في البلدة. ثم تقسم الحصص داخل العشيرة الواحدة، بين العائلات والاخوة، ويكون العمل مشتركاً بين الجميع، وفي كل المراحل، خصوصاً مرحلة الحصاد التي تحتاج جهوداً جماعية كبيرة. وحين طلب الاب نافوني من النويرات، في موسم الحصاد، التعطيل في يوم الاحد، والأعياد، التي جاءت في ذلك الموسم، لسماع «العظة» و «الكرازة» والصلاة، أو الإحتفال في الدير، كان بذلك يجبرهم على تغيير نظام حياتهم كله، وهو نظام كان مشتركاً مع العشائر الاخرى، ولا يملكون امر البـــــت فيه وحدهم. وهو بالفعـــل ما حدث، اذ هُددت بعض العائـــلات بحرمانهـــا من نصيبهـــا من محصول العـــام، اذا

لم يشاركوا بالعمـــــل، في كل الايام، حتى انتهاء الحصـــــاد، وهو ما دفع بعض عشائـــر النويرات الفقيرة الى العودة الى ما كانوا عليه سابقاً من طقس الروم الارثوذكس».

فوجئ الشيخ مرشود، حين وصل مضافة الشيخ صالح، قرب الجامع، بأن الاجتماع كان من اجل المراشدة، واقامتهم في البلدة. أما ما أصابه بالصدمة، والحرج الشديد، بشكل ألجمه عن الكلام، فهو ما أخبره به شيوخ الحصن مجتمعين، بكل عشائرهم وطوائفهم، من انهم قرروا وبالتراضي أن يعطوا المراشدة ارض «المطل»، وأرض «الجبيل»، وأرض «الجدّه»، وأرض «المزاهر»، وكلها تقع شرقي «وادي الورّان»، الذي يحيط بالبلدة من الشرق، وذلك لزراعتها بشكل ثابت، وبدون أن يدخلوا في قسمة المحاصصة او «المرابعة» لأراضي البلدة، التي تتم كل موسم.

أما سكنهم،فقد أصرّ أخوالهم، من آل الشيحاني، الذين يقيمون في الحارة القبلية، على اعطائهم قطعة الأرض الفارغة، التي تلاصق حارتهم، من الشرق، والواقعة بين «طريق التبّان»، و «طريق الصخر»، و «وادي الورّان». ورغم الممانعة، والاعتراض والتعفف، التي ابداها الشيخ مرشود، الا أنه و لإعتبارات كثيرة، لم يستطع أن يرفض ما اتفق عليه الشيوخ، واكتفى بأن استثنى نفسه من الأراضي التي منحت للمراشدة..

لا أحد يعرف لماذا أصرّ الشيخ مرشود على فتح دكانة كبيرة، في حارة المسلمين الغربية، وفي طريق الجامع، قرب «معصرة الزيت» و «خان عطا». تغيّر كل شيء في حياة الشيخ، صار غامضاً وكتوماً، أكثر من اي وقت مضى، وحتى الأب نافوني، الذي اثار الشيخ فضوله، منذ اليوم الاول لوصوله الى البلدة، وقرر الاقتراب منه والتعرف عليه، بدا له الشيخ كصندوق مقفل.

ورغم هذا، فإن الأب نافوني لم ييأس، واستمر يحاول، بالرغم من أن أكبر مشاكله، مع الشيخ حين يتكلم، كانت ان معظم كلامه يكون بالأمثال، التي لايفهم الاب نافوني مغازيها، أو ما يرمى اليه الشيخ، تماماً، من ورائها.

في الضياء الشديد تصغر الاشياء، وتضيق، مهما كانت، ثم تتحول الى بقعٍ صغيرة، ونقاط تتكاثف في مركز واحد، بحيث يبدو أن الحياة، بكل رحبها، انحشرت، كمطاف ومنتهى في بقعة من هذه البقع. ومع الايام، تصير هذه البقعة منطقة عبور شفافة، في النفس والروح والوجدان. أما في الظل، والعتمة، فإن الاشياء تكبر، وتتضخم، ثم تختفي، وتتحول الى شكل من ألم لذيذٍ، ومشتهى، كالجرح، حين تعلوه قشرة صلبة، قبل إلتئامه تماماً، فما أن تُلمس قشرة الجرح، هذه، حتى يسري في البدن خدرٌ مؤلم، وحكّة لذيذة.

واذا كانت الحياة، في نظر البعض، هي اهم شيء في الوجود، فإن الارض، في لحظة ما، تخرج عن طبيعتها، وصمتها، وجمودها، وتتحول الى وطنٍ يضجُّ بالحياة والوعد والأمل. «هذا الوطن، حين يختفي او يضيع، يُصبح مثل جثة عزيزٍ، على المرء أن يدفنه بسرعة ويمضي!». حين سمع الشيخ مرشود هذه العبارة، لأول مرة من الأب الايطالي، «تيوبالدو نافوني»، لم يفهمها. وعندما استعادها، في ذهنه، مرة أخرى، بدا له الامر صعباً، بل مستحيلاً،وحين ألحّت عليه الفكرة، انفجر تفكيره الصامت صراخاً:

– «وين أدفن الدير؟ وين؟!».

وفي احد الصباحات، كان الشيخ مرشود يجلس في الدكان، والطريق خالية من أية خطى. حدّق في الأرض، طويلاً، حتى ضربته شمس الضحى، فأفاق، وبشكل لا إرادي، فَرَد راحة كفّه المتشققة، فبانت بقعة دم جافة في بطنها. وفجأة، داهمتــه فكرة

الراهــب نافونــي، ثانية، فخطـر له انه يقصـد دفن الارض والوطـن في داخــله، لا في مكانــه، عندهــا، أحــسّ أن جوفــه قـد تحــوّل الى مقبــرة، وتصاعدت من هناك رائحة القبور، حتى ملأت صدره. لم يشعر بالخوف، غير ان احساساً، غريباً، غمر جسده فجأة، وازدادت بقعة الشمس في راحة كفّه ضياءً، فصارت الحياة، في داخله، أكثر هشاشةً من أي وقت مضى..!

مضى وقتٌ طويلٌ، على الشيخ مرشود، وهو يستعيد الشمس، والأرض، والضياء، وكلمات الراهب نافوني، في وجدانه، وحين دخل أحدهم الدكان فجأة، انتفض الشيخ في مكانه، وصرخ كأنه خارج من حلم طويل، بشكلٍ أرعب الرجل الذي دخل الدكان:

– «عُقْلــهْ...».

في مكان ما، تعبر الحقيقة، كأنها طيفٌ، مساحة رخوة وطرية، من يقين الناس، ليصير للأشياء، بعدها، شكلٌ آخر، وحقيقة اخرى.

كيف يفترق الانسان عن آدميته في يقين الناس؟ أيُّ برزخ يجتاز في التحول من الحقيقة الى الاسطورة؟

بعد الثأر، واشتعال دير ورق، وحريق مضارب الشواهين، انطلق اسم «عقلة السعادة» كالريح، عابراً للمساحات الرخوة، في يقين المراشدة. لم يعد الوحش وحشاً فحسب، صار أكبر من ذلك بكثير. أما الآخرون، من غير المراشدة، في القرى الغربية، من جبل عجلون، فقد صار اسم «عقلة السعادة» عندهم يعني كل شيء، الخير والشر معاً، «الشقيُّ» و «السّفاح»، و «التاعس»، كما يقول صاحب كتاب لمحة العيون. وما زاد من مساحة خيال الناس، في حديثهم عن عقلة، هو اختفاؤه واقامته في احراش جبال عجلون، الكثيفة والمخيفة، بعد أن حُكم عليه بالإعدام.

حين تنقطع الحقائق عن الأرض، ويغيب أصحابها، فإن الاشياء، عندها،

تحلّق عالياً في الفضاء، والتجاويف البعيدة، وتصير أخبار الغائبين، الذين تحوّلوا الى أساطير، لا تعني غير آمال الناس ورغباتهم وعجزهم. وعندما يتحدث الشباب، في قرى جبل عجلون، عن عقله، فإن الحديث يبحث عن البطولة:

– «عقله اليوم علّق نمر على شجرة الخروب تحت القلعة..»

– «معقول؟!»

– «اذا كنت شجاع، تعال وشوف..»

وحين تأتي سيرة عقله بين النساء، فإن الحديث يختلف كلياً:

– «عقله مين؟ مُش هذا اللّي قتل بنت عمو، مشان ما رضيوا يْجوزوها إله..؟!»

– «لأ، ياهبلة. جوّزوها إلُهْ، وخلّف منها، بسْ قتلها بخنجر لما عِرف إنها طلعت من البيت، بدون ما تقلُّه».

أما المسنون، فإنهم يتحدثون بتلميح، وخبث، عن «الخطف»، و «الثأر»، و «العار»، دون ان يشير احد منهم الى تفاصيل مايعرف.وحدهم المراشدة، في الحصن وعنجرة والسلط، تندفع صدورهم الى الامام، حين تأتي سيرة عقله. وحين يسمعون كلاماً لايعجبهم، عن عقلة، فإن احداً لا يعلق بشيء، ويُكتفى بالصمت، أو بابتسامة خفيفة، تشير الى الاستهتار بما يقال، أو بزمّ الشفاه، تعبيراً عن الدهشة والاستغراب، من خيال الناس، والمصادر، التي يأتي منها الناس بقصصهم وأخبارهم.

والحقيقة، ان عقله اختفى، وتحوّل الى رائحة، يشمّها الناس، ولا يرونها، كرائحة الارض، حين تتصاعد، عندما يسقط المطر. صار عقلة بخاراً يخرج من

أثلام الأرض نحو السماء، ليعبر طوراً آخر من الحياة والوجود.

بعد شهر تقريباً، من رحيل المراشدة، كان على الشيخ مرشود أن يزور عنجرة والسلط، للإطمئنان على الترتيبات، بشأن «آل سعادة» و «آل سلطي»، من المراشدة، التي تم الاتفاق عليها مع شيوخ العشائر ووجوهها. وحين وصل الى عنجرة اولاً، غمره الارتياح من الاكرام الذي لقيه المراشدة من أهل عنجرة. وقد أخبرني «خالي جريس»، بعد أن رفع حاجبيه الكثيفين، اللذين يخفيان نصف عينيه، «بأن أهل عنجرة قد اعطوا المراشدة «عْراق» القرية الشرقي، وهو عراق كبير ومليء بالكهوف والمغارات، ولا يفصله عن «رأس العين» سوى الطريق السلطاني. ولم تمض على اقامة المراشدة في هذا العراق سوى اسابيع، حتى صار اسمه «عراق ضاحي»! وحين زار الشيخ مرشود عنجرة،وسمع اسم «عراق ضاحي»، لأول مرة، سالت من عينيه قطرات ماءٍ، خفيفة، سرعان ما غارت في تجاويف واخاديد الوجه الذي جعّدته الايام.

في السلط، كان أخوال المراشدة قد اسكنوهم في حي السلالم، وحين وصل الشيخ مرشود، تذكّر الراهب الفرنسي، وسأل عنه، فعلم ان البطريركية قد سحبته، منذ سنوات طويلة، بعد أن اكتشفت، انه راهب محارب، ولم يستطع كسب ودّ الناس، وهو مالاتحتاجه في تبشيرها، على الأقل هنا، في السلط.

يقول خالي جريس، ان والده «طُعمه»، أصرّ على مرافقة الشيخ مرشود الى السلط. «وحين وصلوا الى حي السلالم، حيث اقام المراشدة، تغيّرت ملامح الشيخ

مرشود،وقام بزيارة كل البيوت، التي نزل فيها المراشدة مؤقتاً، وهو مابدا غريباً لطعمة، الذي كان يرافقه.

وبعد فترة من تجـوال الشيخ على البـيوت، كانت ملامح الشيـخ قد اختلفت تماماً. وحين وصل الخوري عسـاف على فرسه، من وسـط البلـدة، بعد لقـاء في «السرايا»، استدعاه له القائم مقام، على عجل، ما ان وقعت عيناه على الشيخ مرشود، حتى حاول القفز عن الفرس، كفارس في مقتبل العمر.

ولولا تدارك الشيخ له، الذي اسرع نحوه،واحتضنه حاملاً اياه من على سرج الفرس، لسقط الخوري عساف، ووقع مالايُحمد عقباه. تعانق الرجلان، أو للدقة، فقد حمل الشيخ «بونا عساف» حملاً، اما الخوري، فقد تعلق بعنق الشيخ. وحين نزل على الارض، بدا «بونا عساف» معلّقاً في عنق الشيخ، الذي كان يطبق بيديه بشدة على خاصرة الخوري».

حين وصل خالي جريس، في حديثه معي، الى هذه اللحظة، من لقاء الشيخ مرشود والخوري عساف، صمت فجأة، أو للدقة، خنقته العبرة،وأشياء أخرى، لم يستطع قولها، وغامت عيناه الواسعتان بالدموع،حتى اختفى لونهما الاخضر. فلم استطع عندها، وقد ألجمتني مهابة بكاء الرجال، الا أن احتضن رأس خالي جريس، الذي اشتعل شيباً. أحسست حرارة دموعه، ومسحتها براحة يدي، كانت عيناه اكثر سخونة من دموعه، وبدت عيناه بلون شفق أحمر يحيط بكرم زيتون شديد الخضرة. قبّلته بين عينيه، ورجوته أن يسامحني، وألا يُكمل.

اعتدل جذع خالي جريس، فبدا كزيتونة، «رومية»، عمرها ألف عام، وقال ما يشبه اعتذاراً، عن ضعف ألمَّ به، وانه انفعال عاطفي، عادة، ما يسيطر عليه، حين يعيد تذكر حكاية لقاء الشيخ مرشود والخوري عساف. وهي حكاية سمعها من والده طعمة،

الذي اعادها مرات ومرات على مسامعه، وانه لايذكر وجه والده الا باكياً، وهو يستعيد هذه الحكاية:

«بقي الخوري عساف متعلقاً بعنق الشيخ مرشود لفترة طويلة، حتى بدأ الشيخ يشعر بثقل جسد الخوري، فأنزله الى الأرض. كان «بونا عساف» قد

أُغمي عليه، فنقلوه الى بيته، وانقلب مزاج الشيخ مرشود رأساً على عقب. أفاق «بُونا عساف» من غيبوبته، بعد ساعة تقريباً، فعاد الشيخ مرشود الى احتضانه، مرة اخرى، كأنه طفل صغير».

طوال ليلة، استمرت حتى الفجر، انفجر «بونا عساف» بكلام كأنه شتاء انهمر بغزارة. تحدث عن المرسلين الاجانب، وكيف فسّخوا العشائر المسيحية، وحتى العشائر المسلمة لم تسلم من محاولاتهم، وان كل شيء في طقوسهم مختلف، وحتى منح الاسرار لاشيء فيها يُشبه اسرار الخوري عساف والمراشدة.

كان الشيخ مرشود والخال طعمة يصْغيان باهتمام الى الخوري عساف، وهو ينهمر بهمومه، وبما تفاجأ به في السلط، بعد هذه السنوات. وحين وصل الخوري عساف الى شرح تفاصيل اختلاف المبشرين في منح «أسرار المعمودية، والقربان، والتوبة، والزيت المقدس..» قاطعه الشيخ مرشود بالسؤال عن أحوال عائلات المراشدة، التي لم تعجبه، حين تفقدها، عندها، غرق «بونا عساف» في بكاء صامت،استعاد بعده، بحسرة، احوال المراشدة في دير ورق.

في أوراق الخوري عساف، وجدت ورقة، ترسم بدقة حال «بونا عساف»، في ذلك اليوم، الذي زاره فيه الشيخ مرشود. في تلك الورقة، التي اهترأ جزءٌ كبير منها، وانمحى ما

تبقى فيها من كلام، كتب خوري المراشدة: «كنتُ كالغريق، حين جاء الشيخ مرشود. لم يكن هناك حتى قشّة أتعلق بها. تذكّرت دير ورق : صار الدير مهجوراً، وشبابيكه علاها غبارٌ اسود. أما الجرس، فصار كأنه عنقي معلقاً هناك، وحبله «نسَّلَ واهترأ»،والعشب غطّى سطح الدير. تفسَّخ عقد الدير، والشتاء عرّا حجــارته، و «المركعة» ذهبت جواريرها، و«الدَّلفُ» فرش أرض الدير بالحفــر و«الجُوَر». وحده، «جُــرن العماد» حين

تذكرته، رأيت فيه، عقله، حين سقط من يديَّ اثناء تعميده، و...».

أحسّ الشيخ مرشود بمقدار الانهيار والتعب، اللذين يشعر بهما «بونا عساف»، فربّت على كتفيه بحنان، وقال: «وكّل الله يابونا. كل شي بيتصلّح. هذا زمن «غاب فيه ابو ندهتين..»، والباقي عندك يابونا. صيّورها تتعدّل».

لم يغادر الشيخ مرشود السلط إلا بعد أن اشترى داراً جديدة للخوري عساف، في حي السلالم، ولها حاكورة واسعة، أوصاه ان يبني فيها ديراً، كالدير الذي كان في دير ورق تماماً. أما أهم ما اتفق مع الخوري عساف بشأنه، وربما هذا ما أعاد للخوري حيويته، ونشاطه، فهو تأكيده عليه، بأن يكون حريصاً على تعميد اولاد وبنات المراشدة، كما كان يعمّدهم في دير ورق، وأن لايسمح لأي خوري آخر، خصوصاً الأجانب، بأن يعمد ايا من ابناء المراشدة. أما الأهم، وهو ما جعل الخوري عساف يشعر برعيته من جديد، فهو اصرار الشيخ، على ان يستعد الخوري، ويرتب نفسه، لتعميد ابناء المراشدة، الذين سيولدون في الحصن وعنجرة. لم يكتف الشيخ مرشود بهذا، بل ترك عند الخوري صرة كبيرة من النقود، لتفقد احوال العائلات الفقيرة من المراشدة، وأوصاه

بالسعي لتدبير اعمال لكل رجال المراشدة، ومن لم يستطع أن يساعده منهم في تأمين عمل، فعليه ان يرسله اليه في الحصن..

طالت الايام التي قضاها الشيخ مرشود في السلط أكثر من الايام التي مكثها في عنجرة. وبعد أن انتهت «آخر ايام التشريق»، وجاء الوقت الذي «يصفرُّ فيه النارنج»، و«تهيج فيه اوجاع العيون»، غادر الشيخ مرشود مع الخال طعمه. ولم ينس الخوري عساف تذكير الشيخ، بأن يوم مغادرته هو اليوم الذي تحلّ فيه «الشمس في برج السُنبلة»، حيث «يبدأ آخر الليل بالبرد»، وعليهم أن يحتاطوا في سفرهم بـ «فروات حراثية»، أو «فروات قبطية»، إذ ان «آخر ايام السموم» لن تأتي قبل ثلاثة ايام، منذ هذا اليوم، الذي يسافران فيه، وهو ما يعني انهم سيكونون عرضة للبرد ولرياح السموم أثناء سفرهم...

طوال الطريق، من السلط الى عنجرة، مروراً بوادي شعيب، التي اختارها حذراً وتحوطاً، ظل الشيخ مشغولاً بما سمع من الخوري عساف عن أحوال المراشدة، وبما يمكن ان تحمله الايام لهم.لم يفاجأ الشيخ مرشود، بما أخبره به الخوري عساف عن الدرك الذين جاؤوا يسألون عن عقلة، وفتشوا كل بيوت المراشدة بحثاً عنه، وهو ما فعلوه في عنجرة، والحصن. وحين اخبره الخوري عساف ان قائم مقام السلط قد طلبه، للمرة الثانية، للتأكيد بأنه يجب عليه ابلاغ القائم مقام، فيما اذا علم بأي شيء عن عقله، حينذاك، هدّأ الشيخ مرشود من روع الخوري، واخبره، بأن هذا ما فعله معه قائم مقام اربد، وكذلك مع الخال طعمة في عنجرة.

لم يعرف احدٌ، على وجه التحديد، لماذا قرر الشيخ مرشود، فجأة، وقبل الوصول الى «كفرنجة» أن يغير طريقه الى عنجرة، ليصل اليها عن طريق «راجب»، مروراً

بـ «وادي الصفصاف». حتى الخال طعمه، الذي حاول ثنيه، وتذكيره، بأن الطريق السلطاني عبر «كفرنجة»، أكثر أماناً، من هذه الطريق الموحشة، ذات الأدغال الكثيفة، والحيوانات الكاسرة، إلا أن الشيخ مرشود، لم يصغ الى شيء من هذا. وحين سأله الخال طعمة، بعد وصولهم الى عنجرة، عن سبب اصراره ذاك، أجاب بأنه لايعرف.

انحرفت الخيل عن الجبال، ودخلت «وادي الصفصاف» من الجنوب، وما ان أمعنت فيه، قليلاً، حتى ضاقت الطريق كثيراً، ولم يعد بإمكان فرسي الشيخ مرشود والخال طعمة السير، إلا خلف بعضهما. تقدمت فرس الخال طعمه، وتلتها فرس الشيخ مرشود، ورويداً رويداً، تشابكت اشجار الصفصاف والسنديان، وتداخلت اغصانها العالية. اختلفت الطريق والمنطقة كثيراً، حتى على الخال طعمه، الذي جاءها قبل عام، وحين بدأت الطريق تزداد عتمة وظلاماً، بسبب تشابك الاشجار وكثافتها، تصاعدت انفاس وحشة المكان، خصوصاً، بعد أن تكاثرت أشجار «البطم» الكبيرة، و «الملول» و «العبْهر».

لم يعد يُسمع في طريق «وادي الصفصاف» سوى انفاس الخيل، وحفيف الاوراق، التي تطأها سنابكها. فجأة، وبأسرع من لمح البصر سقط شيء من الأشجار العالية على ظهر فرس الشيخ مرشود، وأحاطت بجسده وذراعيه يدٌ قوية، وكممت يدٌ ثانية فم الشيخ. وقبل ان يُدرك الشيخ مرشود ما الذي يحدث، كانت اليدان القويتان قد خلعتاه من على سرج فرسه، وحملته الى الارض. استعاد الشيخ مرشود وعيه، بسرعة، وتراخت اليدان، اللتان شلّتا حركته، وحين ادار وجهه، رأى وجهاً يخلع القلب من صدر صاحبه، كان شعراً طويلاً وكثيفاً غطى وجه الرجل وصدره، وتشابك مع شعر

لحيته، التي استطالت حتى وصلت صدره، أما عيناه، فكانت تلمعان كالجمر من بين خصلات شعره المتهدلة. وبسرعة البرق، تناول الشيخ مرشود بندقيته من كتفه، إلا أن الوحش كان أسرع الى خطفها من يديه، عندها، انزاح الشعر، الذي كان يغطي نصف وجه الوحش، فحدّق فيه الشيخ مذهولاً وغير مصدّق،وحين استعاد صوته من الصدمة، التي ألمت به، دوّى صراخه بصدىً رددته سفوح وادي الصفصاف الوعرة:

– «عقلـه...»

وارتطم الجسدان في عناق عجيب، وطوّق الوحش بذراعيه جسد الشيخ، ثم دار الجسدان، ودارت اشجار «وادي الصفصاف»، واقتربت السماء من الارض أكثر.

عاد الخال طعمه، الذي كانت فرسه تتقدم فرس الشيخ، عندما سمع صراخه، وحين شاهد منظر الشيخ مرشود،يحمله رجلٌ كالوحش ويدور به، تسمّر في مكانه.

حين وصل «خالي جريس»، في حديثه معي، الى هذه اللحظة، توقف عن الكلام، وسحب من تحت الفراش كيس التبغ،وبدأ يلفُّ «سيجارة هيشي»، ببطء، وصمت، وتلذذ. ورغم محاولتي إعطاءه سيجارة، من علبة سجائري، محاولاً اختصار الوقت، وقطع صمته، إرواءً لفضولي، رغم كل هذا، فإنني لم أفلح. وظل خالي جريس يطوي، ويلفّ سيجارته الطويلة، والثخينة، بأصابعه الخشنة، حتى اشعلها. وحين علت جمرتها الاولى، وتصاعد اول دخانها، سحب نفساً عميقاً منها، فازداد لهيبها، ثم زفر من صدره خيطاً مستقيماً ابيض، من الدخان الحار والكثيف، وفتح عينيه الواسعتين، وحدّق فيَّ، وقال بصوت خفيف، كأنه يحدّث نفسه:

بعد هذا اليوم، لم يعد الشيخ مرشود كما كان. استعاد الشيخ عافية عشرة رجال، دفعة واحدة. تغيّر وجهه، وازداد نضارة، أما عيناه، فرغم العمر والسنين، فإن بريقاً عجيباً ظل يلمع فيهما منذ ذلك اليوم.وحين وصل الشيخ الى الحصن، فإن أول شيء فعله، هو انه ذبح جملين، وأُشعلت نيران الشواء في كل الحارة القبلية، دون ان يعرف احد، من المراشدة، أو أخـوالهم، مناسبة هذا الشواء، سوى أن الشيخ مرشود أراد ذلك.

في ذلك اليوم، اخرج الشيخ خابيتين كبيرتين من نبيذ الدير المعتق، وشرب حتى ارتوت عظامه، وكانت اول مرة يشرب فيها بعد الرحيل من دير ورق..

أما عقله، فقد رافقهم حتى آخر وادي الصفصاف، ثم ودعهم، واتّجه

شمالاً، حيث ادغال وغابات عجلون الشمالية الأبعد. وبعد وادي الصفصاف، انحرف الشيخ مرشود والخال طعمة غرباً، وبعد وقت قصير، كانا عند القمة الشرقية العالية لعنجرة، وما ان اجتازوا صفوف الاشجار الكثيفة على هذه التلّة، حتى وصلوا الى «رأس العين»، ثم «عراق ضاحي»، حيث يقيم المراشدة..

لم يكن الشيخ مرشود وحده الذي تغير بعد لقاء عقلة في وادي الصفصاف. فعقلة، الذي لفّه ظلام الغابات ووحشتها، فاستطال شعره، وتغيّر شكله، كان لقاؤه بالشيخ مرشود منعطفاً غيّر الكثير في حياته.

حين ينقطع الإنسان عن الناس تتغير حواسه، وخصوصاً حاسة السمع، حينها تختلف الأصوات، ويعلو الصمت ليصير مسموعاً، وتتحول الأشجار والصخور والعتمة إلى كائنات تضج بحركة مسموعة. أما الضواري والوحوش والزواحف والطيور فتصبح أكثر أُلفة من البشر. يتغير معنى الخوف ليصبح كائناً حياً، يندس بين أوراق الشجر اليابسة، عندها، يتحول الخوف إلى حذرٍ ورائحة للخطر يمكن تشممها عن بعد.

أيامٌ عصيبة مرّت على عقلة بعد حريق دير ورق، كان أسوأها ما أصابه من هوسٍ ونوبات بعد أن رأى النار التي اشعلها بيديه في المشاعل التي علقها على الأشجار تلتهم أشجار الدير وكل ما فيه، وتحولها إلى رماد. لأيام طويلة لم يستطع أن يشعل ناراً، حتى كاد يموت جوعاً، وحين اشعل النار، لأول مرة،

لشواء أرنب اصطاده، أصابته نوبة الهستيريا، التي اجتاحته حين عاد إلى دير ورق، ورآها تحترق بعد معركة الثأر من عرب الشواهين. وبالتدريج، تمكن عقلة من استعادة تماسكه وأُلفته لإشعال النار، إلا أن شيئاً غريباً ظل ينتابه حين يشبّ لهيب النار عند اشتعالها الأول، غير أن هذا الإحساس ما يلبث أن يهمد فيه، بعد أن تحترق الأوراق اليابسة، تلك التي تكون عادة مـــا تزال متمسكة بالأغصـــان التي جفّت، وتحولت إلى حطـــب قابل للاشتعال..

من دون تفكير قادته فرسه بعد دير ورق إلى غابات عنجرة الجنوبية. وحين وصلها غاب في أعلى تلالها واكثفها أشجاراً: «تلة رأس حوران». كان منهكاً، ومهدوداً، فنام، وحين استيقظ بعد يومٍ أو يومين، لا أحد يعرف، كانت الشمس قد غمرت «رأس حوران» ضياءً، فازداد لون خضرة أشجاره الكثيفة اشراقاً وبريقاً، عندها اجتاحه الأخضر في عيني رشيدة، فتذكّر كل ما حدث...

في البداية، قام بجولة في ارجاء رأس حوران وغابته كلها، ثم انتقل إلى استكشاف المنطقة المحيطة بها: «الزيزفونة»، و«أم الجلود» و«وادي الصفصاف»، و«خربة سرابيس»، وحين وصل إلى «غابة أم الخشب»، ورأى الحطابين من أخواله في عنجرة، عرف أن هذه الغابة هي أقرب المناطق إلى الجزء المسكون من بلدة أخواله.

والحقيقة، انه قد جاء إلى تلك المنطقة قبل أعوام طويلة مع أمه العيوف مرتين، حين كان صبياً، إلا انه بالكاد كان يذكرها، أما اليوم، فقد أصبح يعرفها كما يعرف راحة يده..

في الأيام التالية، وبعد أن عرف عقلة أن المراشدة قد استقروا في «عراق

ضاحي»، وهو السفح الغربي الأبعد لأم الخشب، عندها، قرر أن يقيم في رأس حوران، وهي أقرب الغابات إلى غابة أم الخشب. والصحيح، أن أم الخشب كانت أبعد وآخر المناطق التي يصلها أهل عنجرة بحثاً عن الحطب. أما رأس حوران، فهي غابة كثيفة وخطيرة، إذ انها مليئة بالضواري والوحوش، ويقال انه اختفى فيها رجلان من أهل البلدة منذ سنوات طويلة، وبعدها انتشرت الحكايات حول رأس حوران وغابته، وهي حكايات مليئة بالخوف والجن والعفاريت.

«وادي الطواحين» كان المحطة التالية التي قرر عقلة التعرف عليها، وهو الوادي الذي يفصل بلدة عنجرة عن عجلون. لم يكن تعرف عقلة على وادي الطواحين واستكشافه له سهلاً، فقد قضى أياماً طويلة حتى استطاع التعرّف على مسالكه الوعرة، وسفوحه المليئة بالأشجار المتشابكة، والينابيع والسيول الجارية فيه، التي جعلت صخوره الكبيرة والحادة منزلقة قابلة للانهيار بشكل مستمر، وهو ما يجعل السير في وادي الطواحين خطراً اكثر من كل الطرق المؤدية إلى المنطقة..

حين يهبط الليل في عنجرة تشرب العتمةُ أصوات البشر على مهل. وبالتدريج، تعلو أصوات الوحشة وهسيس الخوف في فضاءات الشمال. أما حين يمعن الليل في العتمة، فإن عنجرة كلها تتكوّر في سفح عراق ضاحي وأطرافه كجسد طفل يغرق في النوم في حضن الشمال الخائف من زمن رجراج. في تلك الأثناء من ليل عنجرة، كان عقلة يجوب البلدة وأطرافها وطرقاتها حتى تعرّف على كل شيء فيها. وحين توقف الجند، في الأيام الأولى،

عن البحث عنه في بيوت المراشدة في عراق ضاحي، وبعد أن كف حاكم عجلون

عن طلب الخال طعمة، للسؤال عنه، عندها اتجه عقلة نحو الشمال إلى الحصن. وهناك، استدل بسرعة على الحارة القبلية، قرب وادي الورّان، التي أقام فيها المراشدة.

في الحصن، كانت حركة الجند، في البلدة وأطرافها، أكثر منها في عنجرة، ولم يستطع عقلة التمييز هل كانت كثرة الجند هنا هي للبحث عنه او لمشكلات تخص الحصن. وعلى الرغم من هذا، فقد أقام أياماً في الكهوف المحيطة ببلدة الحصن، حتى تعرف على كل شيء يحيط بها، والطرقات الخفية للوصول إليها، وغادر بعدها إلى عنجرة، ومنها إلى السلط، عبر الدروب الوعرة. وهناك فعل الشيء نفسه، حيث دار حول البلدة كلها، حتى استطاع التعرف على المكان الذي أقام فيه المراشدة، الذين غادروا إلى السلط. وفي كل هذه الجولات لم يتصل بأحد من المراشدة، في أية بلدة من البلدات الثلاث. وطوال تلك الأيام، لم يسلك عقلة، في تنقله، سوى الطرقات الخفية والخطرة، التي تمر عبر الغابات، ولا يسلكها أحد. وحين قرر الشيخ مرشود، في طريق عودته من السلط مع الخال طعمة، أن لا يسلك الطريق السلطاني المار بكفرنجة، ليصل عنجرة عن طريق راجب الوعرة، كان الشيخ بهذا الهاجس الخفي يختار طريق عقلة، وكأنه كان يبحث عنه أو عن شيء من رائحته. وهو بالفعل ما حدث، فقد وصلت رائحتهم ورائحة أصواتهم، عندما دخلوا وادي الصفصاف، إلى صدر عقلة، الذي صار غريباً تسكنه وحشة الأشجار البرية والضواري والدروب الموحشة لجبل عجلون. وحين عرف عقلة أن هؤلاء الذين تجرأوا على دخول عالم وحشته وغربته المخيف هم أحب الناس إليه، لم يستطع أن يفرح بهم إلا بما استيقظ فيه من بريّة وخشونة ووحشة. إذ تركهم حتى امعنوا في

وادي الصفصاف، وغابوا عن الشمس والضياء في غاباته المظلمة، عندها انقض على الشيخ مرشود وكأنه يفترسه.

لم يسمح عقلة للشيخ مرشود والخال طعمة أن يكملا طريقهما إلى عنجرة عبر راجب، بل اخذهما إلى نهاية وادي الصفصاف، ثم عاد بهما عن طريق «الحزّار» و«أم الجلود»، ليتركهما ثانية قرب «وادي الدير»، كي يصلا إلى عراق ضاحي من الطريق المألوفة لحطّابي عنجرة...

منذ ذاك اليوم، الذي التقى فيه عقلة الشيخ مرشود، استعاد الكثير مما احترق في داخله من دير ورق. إذ اتفق معه الشيخ أن يبقى على اتصال سرّي وحذر مع الخال طعمة في عنجرة، وترك لعقلة تحديد وسيلة الاتصال به في الحصن، وحذّره من الاقتراب من الحصن أو المناطق القريبة منها في الأسابيع والأشهر المقبلة، نظراً لتزايد بحث الدرك عنه في تلك المناطق.

مضى اكثر من عام على لقاء وادي الصفصاف، ازداد فيه عقلة معرفة بشعاب المنطقة ودروبها وكهوفها، وصار اكثر قدرة وجرأة على التواصل مع المراشدة في عنجرة والحصن. كان جميع أهالي البلدتين يسمعون بعقلة، إلا أن أحداً لم يره، وتزايدت القصص والحكايات حول قوته، وقتله للضواري، وحياته في الغابات الموحشة. ومع الأيام، تحول عقلة السعادة إلى شبح اسطوري، يشعر الجميع بوجوده وحضوره، غير ان أحداً من غير المراشدة لم يره.

لم يتغير هذا اليقين عند معظم الأهالي إلا بمجيء راهب ايطالي شاب إلى ارسالية اللاتين في الحصن. كان الخوري «جوزبّه كاريللو»، الذي أسماه الأهالي في الحصن وعنجرة لاحقاً بالخوري «يوسف غاريللو»، واحداً من الشباب المتحمسين، الذين أرسلهم «مجمع

نشر الإيمان» في روما إلى بطريركية اللاتين في القدس. وخلال أشهر استطاع هذا الشاب أن يتعلم اللغة العربية، بشكل سريع، وكان حينها في أواخر العقد الثالث من عمره، وهو ما جعل البطريرك يتحمس لإرساله إلى إرسالية الحصن، بعد أن ازداد إلحاحها عليه، في الأشهر الأخيرة، بضرورة تزويدها بعددٍ اضافي من المرسلين، وذلك لفتح ارسالية في عجلون وعنجرة، وهما البلدتان الواقعتان على الطريق الوحيدة بين الحصن والسلط، وضرورة اتصال الارساليات ببعضها عبر هذا الطريق، كي تكون منطلقاً ودعماً للارساليات الأبعد نحو الشرق والجنوب. وأخيراً، استجابت البطريركية بإرسالها للأب «يوسف غاريللو»، قبل أيام، إلى السلط. وحين أخذ الخوري يوسف قسطاً من الراحة اصرّ على الذهاب في اليوم التالي إلى الحصن، وهو ما أثار استغراب خوري اللاتين في السلط، لحماسة هذا الراهب واندفاعه، وعندما اخبره بأن الطريق وعرة ومحفوفة بالمخاطر، أجابه الخوري يوسف، بلا اكتراث:

– إن من يخرج في سبيل الرب لا يخشى المخاطر. ثم إن معي خارطة فيها كل طرق المنطقة، واستطيع استعمالها بسهولة.

وبالرغم من هذه الإجابة، غير المبالية بالمخاطر، إلا أن خوري السلط لم يتركه يذهب إلا برفقة دليل يوصله إلى الحصن.

غادر الخوري يوسف السلط، ومعه الدليل، واجتاز وادي شعيب، ثم وصل إلى أول الطريق السلطاني، الذي يتصل بوادي الطواحين القادم من عجلون وعنجرة، وهو جزء من الطريق تزداد فيه كثافة الأشجار، وتنحني الطريق بانحناء الوادي، الذي لا يمكن تجاوزه إلا عبر قنطرة حجرية صغيرة تصل بين طرفي الوادي، الذي تكثر وتتجمع فيه مياه السيول

والينابيع بشكل كبير. وحين اجتاز الخوري يوسف ورفيقه القنطرة بقليل سدّ الطريق ثلاثة رجال مسلحين على خيولهم. وما إن مدّ الدليل يده إلى بندقيته حتى استقر خنجر أحدهم كلمح البصر في صدره، فسقط الرجل بعنف عن فرسه. في تلك الأثناء، قفز الرجلان الآخران عن فرسيهما، واقتربا من الخوري يوسف. كان الدليل ينـزف، والخنجر مغروس في صدره، فدفعه أحد الرجلين بقدمه بعنف، فانزلق في الماء الذي يجري من تحت القنطرة، فجرّه السيل إلى وادي الطواحين العميق، وتلوّن الماء القريب بدمه الأحمر القاني.

للوهلة الأولى، لم يستطيع الخوري يوسف استيعاب ما يحدث، وحين رأى الدليل يُقتل، ويسحبه السيل جارفاً إياه إلى وادي الطواحين، عندها بدأ يرتجف، ولم يُفق إلا بعد أن خلعه أحدهم من على ظهر الفرس، فتمزق ثوبه الأسود الطويل، وحين ألقاه الرجل أرضاً، وجثم على صدره، واضعاً خنجره قرب عنقه، أيقن أنها النهاية.

في تلك الأثناء، كان الرجلان الآخران قد قلبا امتعة الخوري والدليل رأساً على عقب، أما الرجل الجاثم فوق صدر الخوري يوسف، فقد مدّ يده إلى صدر الراهب، فاخرج كتاباً صغيراً مذهباً أحمر اللون، عندها اختلجت عينا الخوري، وسالت دموعه حين رأى الانجيل في يد هذا الرجل القاتل. أما الرجل الذي يجثم فوق صدره فقد جحظت عيناه عندما رأى الكتاب الموشّى بالذهب يلمع في يده. وفجأة، تدلّى من الشجرة، التي تعلو الخوري، جسد ضخم، وبلمح البصر، كان الرجل، الذي يجثم على صدر الخوري، قد طار في الهواء، وسقط في الماء، الذي جرفه إلى وادي الطواحين، بعد أن قذفته قدم الكائن الذي سقط من السماء فجأة.

حين رأى الرجلان الآخران مشهد الوحش الذي هبط من السماء، وما حلّ بصاحبهما، قفزا بسرعة البرق على فرسيهما، وفرّا هاربين، أما الخوري يوسف، فبعد لحظات، اعتدل بجذعه، وظلّ في مكانه في حالة ذهول، وغير مصدق لما يحدث.

كان عقلة، في تلك اللحظات، قد قفز في الماء خلف الرجل الذي لكمه بقدمه

فسقط في جرف وادي الطواحين، وحين عاد، كان يحمل الكتاب الأحمر الصغير، الذي تبللت بعض أوراقه بالماء وبقطرات من دم الدليل، الذي خضب العشب على طرفي السيل. وما إن اقترب عقلة من الخوري يوسف حتى بدأ الخوري بالصراخ، كان مشهد الوحش وشعره المبلول اكثر رعباً للخوري من الرجال الثلاثة. أدرك عقلة أن الخوري خائف منه، فاقترب منه بهدوء، وقدّم له الانجيل الذي ابتلّت أوراقه، وربّت على كتفيـــــــه، ومسح التراب الذي علق بثيابه إلى أن هدأت مشاعر الخوري وبدأ يطمئن.

تراجعت برودة الخوف، واستفحلت في العظام برودة الغربة. فجأة، تُسحب الحياة حتى حافة الموت، وفي طرفة عين، تسقط السماء بوحش، يمنع الروح أن تكمل انزلاقها إلى الجرف. أهذا هو الشرق؟ ركْضٌ سريع على حافتي الحياة والموت!؟ ألهذا كانت حياة يسوع قصيرة إلى هذا الحد؟ يا إلهي، كم حافة على المرء أن يعبر كي يصل إليك..؟

في الحقيقة، فإن الخوري يوسف، في تلك اللحظة، لم يكن وحده الغريب في هذا المكان. فقطاع الطرق الذين هاجموه كانوا غرباء على نحو ما. وعقلة الذي انقذه كان غريباً، أيضاً، على نحو ما، حتى وإن اختلفت غربة عن أخرى. فحين دخل قطاع الطرق إلى

وداي الطواحين بحثاً عن طريدة، كان عقلة قد أحسّ بهم، وظل يراقبهم من بعيد. وحين التقوا بالخوري يوسف عند ملتقى الطريق السلطاني مع وادي الطواحين، كان قد وصل قبلهم إلى التلة المشرفة على الطريق، واختفى بين الأشجار. لم يستطع عقلة أن يحدد ما الذي اصابه حين رأى الخوري بلباسه الأسود الطويل ورفيقه عندما وصلوا إلى القنطرة الحجرية. كل ما يعرفه أنه تذكر الخوري عساف، بالرغم من الملامح الشابة والفتية لهذا الخوري. أما عندما قتل قطاع الطريق الدليل، الذي كان يرافق الخوري، وبدأ هذا يرتجف فقد تغير كل شيء. لم يعد عقلة يرى ملامح وجه الخوري الشاب، فقد حل محلّه وجه «بونا عساف» بلحيته وحواجبه الكثيفة، وحتى شامته السوداء صار يراها بوضوح، وحين مدّ قاطع الطريق يده إلى صدر الخوري، واخرج الكتاب الصغير الأحمر، عندها صار الخوري عساف بكتابه الأحمر هو الملقى على الأرض، واستحال لباس الخوري الأسود إلى ثوب أزرق طويل. في تلك اللحظة، لم يعرف عقلة أية قوة اجتاحته، ولا كيف طار الرجل، الذي يجثم على صدر الخوري، في الهواء.. وحدها المحبة تعرف كيف تحلُّ في الأجساد. أما الأرواح، فتبقى محوّمة، بظلال من النور، في الهواء، يطردها الخوف والغربة والوحشة، حيناً، عن أن تسكن في أجساد أصحابها. وحين تحلّ السكينة، تقترب الأرواح من أجساد البشر، فيوضاً شفيفة، بما امتلأت به من غلالات خير، أو تشتعل تلك الأجساد ناراً وحريقاً، بما ضاقت به من صخب ووحشة وشرّ...

غريب عنجرة.. هكذا وصف الخوري يوسف غاريللو عقلة وانقاذه له من قطاع الطرق قرب عنجرة. بكثير من الدهشة والذهول كان الخوري يحدث الأب نافوني والأب سميتس عن الغريب:

– كان الغريبُ غريباً بحق في كل شيء.

طوال الأيام الأولى لوصول الخوري يوسف إلى الحصن لم يكن له حديث سوى حكاية غريب عنجرة. وحين انتشرت قصة الخوري في البلدة، وعرف من الأهالي قصة هذا الغريب، وحكاية أهله المراشدة، ازداد إعجاب الخوري بغريب البلاد هذا، الذي يعرفه كل الناس ولم يره أحد منهم سوى أهله المراشدة، ومع الأيام، تصاعد هذا الإعجاب في داخل الخوري يوسف، إلى درجة تقارب اعجاب المراشدة وفخرهم بعقلة.

العجيب، ان خالي جريس حين اخبرني بحادثة عقلة مع الراهب الايطالي في عنجرة، فإنني لم أفهم ما كان يرمي إليه في البداية حين تنهد بحرقة، وقال:

– يا حسرتي.. «السيف الطايل، يعدّل الحق المايل»!

ثم أشاح الخال جريس بوجهه، وسرح بصره نحو أسفل وادي الطواحين، حيث وقعت الحادثة. فعندما عثر الدرك، بعد أيام، على جثتين في أسفل وادي الطواحين، وجاؤوا إلى عنجرة، للتحري والتحقيق، حينذاك، خرج الخال طعمة كالملهوف يبحث عن عقلة، لتحذيره من الاقتراب من البلدة في الوقت الحاضر، وحين التقاه بعد يومين من وضع الخال طعمة رجماً حجرياً قُرب صخرة متفق عليها في أم الخشب، فإن عقلة لم يبدِ اهتماماً شديداً بالحادثة، أما العجيب في حديث خالي جريس، والذي أثار انتباهي وسجلته في أوراقي في حينه، فهو تعبير «الغريب»، أو «الغريب في عنجرة»، الذي استخدمه عقلة في وصف الخوري الايطالي، حين كان يحدّث الخال طعمة بما جرى له مع قطاع الطرق.

تقاطعت إذن خطى الغرباء في عنجرة قرب أسفل وادي الطواحين. غريبٌ يطوف بلاده وأدغالها هرباً، ويحيا مع الضواري، وغريب آخر جاء من أقصى الأرض، يبشر بالايمان وهداية الناس إلى طريق الربّ، في أرض غريبة، بحرف لاتيني لا يعرفه أهلها بعد..!!

تحوّل الخوري غاريللو إلى الشاهد الوحيد من غير المراشدة على وجود عقلة. وعلى الرغم من ان حادثة الخوري قد اسهمت في تأكيد ان عقلة السعادة بشرٌ حيٌّ وموجود، وليس شبحاً، إلا انها زادت من يقين الناس بقوته وقدراته الاسطورية، وذلك للمبالغة التي روى فيها الخوري حادثة قطاع الطرق مرات ومرات، مشيداً بقدرة عقلة وعنفوانه.

***

ما لم يقله الراهـب الايطالي لأحد، ولا حتى إلى الأب نافوني، وظل لفترة طويلة يتحاشى مجـرد التفكير فيه بينه وبين نفسه، هو ما رآه على جدران مغارة عقلة، في تلة رأس حوران، حيث أخذه عقلة بعد انقاذه له ليستريح قليلاً، قبل أن يوصله إلى أطراف بلدة الحصن بعد أن خيم الظلام، ورحلت خطى الناس عن الطريق الموصلة إلى الشمال.

حين وصل الراهب وعقلة إلى رأس حوران، كان التعب والإعياء قد أخذ من الراهب مأخذه. تهالك الراهب أسفل النخلة، التي أوصلته قدماه إليها، وبعد لحظات من إستلقائه دارت حدقتا الراهب مع قبة السماء الصافية، التي لم يكن يحجب إتساعها سوى قبة سعف النخلة العالية.

إقتربت السماء أكثر، وتسلل ضياؤها الفضي من شقوق قبة النخيل الخضراء. وما ان سرى الدفء في أوصال الخوري غاريللو، بفعل شمس عجلون الدافئة، حتى صار المسيح الحيّ أقرب إلى روحه، واقتربت قبة النخيل أكثر، وسرى في بدنه نُعاس دافيء.. فنام.

بعد ساعات، وحين أفاق الراهب من نومه الطويل، كانت شمس عجلون قد إنحرفت عن كبد السماء كثيراً. تراجع الخوف في نفس الراهب، وحلّت فيه حيوية الطمأنينة، فنهض يتفقد المكان وباحثاً عن عقلة، وما إن إستقام جسده حتى إنتبه إلى مدخل كهف خفي قرب النخلة.

حين إقترب الراهب من مدخل الكهف الحجري الطويل رأى ما جعل الدهشة تسكن عينيه. للوهلة الأولى، تخيل أن الصلبان الكبيرة المحفورة بعناية على جدار مدخل الكهـف تعود إلى زمن إضطهاد الرسل الأوائل، فتهللت أسارير وجهه كمن إكتشـف كنزاً اثريـاً لا يقدر بثمن. وعندمـا اقترب مـن الصليـب الأول أكثر، ومـدّ يده

يتحسس شقوق الصليب المحفور في الصخر، اختلجت عضلات وجهه، وسمّره قلق اليقين على حواف الصليب الحجري.. ولم يقوَ وجدان

الراهب الإيطالي على استيعاب ما رأى..!!

كان عقلة قد حفر بخنجره في الصخر الطري ثلاثة صلبان طويلة بحجم قامة الرجل. وفي أخاديد الصلبان حفر ثلاثة أجساد نسائية مصلوبة على أذرع الصلبان. كان الوجه المحفور على جسد الصليب الأول يحمل ملامح وجه العيوف، أُم عقلة، في منتصف العمر. أما الوجه الثاني فكان يحمل ملامح الجدة حنه، بوجهها الذي غطته التجاعيد.

وحين اقترب الراهب من الصليب الثالث، كان ما تبقى من شمس عجلون كافياً ليضيء الظلال التي ألقتها حافّة الصليب على الوجه المحفور في جسده. كان وجه رشيدة يمتلئ عافية لصبية في أول العمر.

لم تغرب الشمس. تسمّرت عند وجه رشيدة المحفور في الصخر، وظلّت تلقي ضياءها على عروق الصخر الملونة، والألوان ترتحل بين عيني الراهب ووجوه النساء المحفورة على جدار مدخل الكهف الطويل.

كان اليقين أيضاً قد تسمّر على وجه الراهب الايطالي وجوماً، وصمتاً، وقلقاً إيمانياً مذعوراً. ترى هل يجوز لأي جسد بشري أن يحل محل جسد يسوع على الصليب..؟! لم يستطع وجدان الراهب أن يجيب، وظل هذا الوجدان يرحل راكضاً مفتشاً عن الإجابة بين الكفر الظلال والإيمان..!!

لم يفق الراهب من وجومه أمام الصلبان المحفورة إلا حين خرج عقلة من عتمة الكهف، وأدرك ما كان يجول في نفس الرجل. أما الراهب، فقد ظل السؤال يلاحقه

لأعوام طويلة، بعد أن منعه الحرج، وأشياء أخرى، عن سؤال عقلة عن وجود النساء، أو حتى عما إذا كان ذلك مباحاً أم لا...!؟

* * *

وإذا كان حديث الخوري غاريللو وإشادته بعقلة وبطولته قد قرّبه من نفوس كثير من المراشدة إلا أنه لم يُجدِ نفعاً مع الشيخ مرشود، إذ ان الشيخ ظل ينظر بتوجس وريبة إلى هذا الخوري الجديد. وحين سأله الشيخ صالح، ذات يوم، وهو خارج من الجامع بعد صلاة العصر، عن جفائه للخوري الجديد، على الرغم من دماثته، ولطفه، أجابه الشيخ مرشود بشيء من الضيق:

– يا شيخ صالح، لا تْغرّك الوجوه وحلاوة اللسان، قالوها كْبارْنا من زمان: «عدو جدّك، ما يْودّكْ»!

أما الشيخ سلامة النويرات، أبو عقيل، فقد حاول اقناع الشيخ مرشود، بأن المرسلين سيفتحون مدارس جديدة في الحصن، وأن الخوري الجديد غاريللو جاء لفتح إرسالية جديدة ومدارس في عجلون وعنجرة، وأن هذه الإرساليات ستبقى مرتبطة بالحصن، عندها، أشاح الشيخ مرشود بوجهه، وتمتم كأنه يحدّث نفسه:

– «ضيف ليلة، ما يْعمّر بْلادْ، ولا يْخرّب ديره»!

ثم أضاف الشيخ بصوت عالٍ:

– «يْظلّونْ أجانب يا أبو عقيل. أجانب.. تفهم، ولاّ لأ؟»

في تلك الأثناء جاء عقيل، ابن الشيخ سلامة النويرات، يبحث عن والده، في البيادر الشرقية، حيث كان مع الشيخ مرشود يتمشيان خارج البلدة. وحين رآه والده، الشيخ سلامة، رفع صوته، موجهاً كلامه للشيخ:

– «مزبوط يا شيخ، هذول أجانب. بس، خلّينا نُصْبر، لّما ولادنا يتْعلموا، ويصيروا بدالهم».

لم يفهم الشيخ مرشود ماذا يقصد الشيخ سلامة تماماً، وحين وصل عقيل،

وعلم الشيخ مرشود أن ارسالية الحصن سترسله في الأسبوع القادم إلى البطريركية في القدس، ليدرس كي يصبح كاهناً، ثم يعود إلى الحصن ثانية، عندها، أصابه احساس غريب لم يستطع فهمه أو تفسيره. أحسّ بخوف مختلف، لم يشعر به منذ زمن طويل. شيء يشبه ما أحس به حين ترك عقلة في دير ورق مع فرسان المراشدة ليلة الرحيل. لا، لم يكن إحساس الشيخ تماماً هكذا كما تخيل، ربما كان أقرب إلى ما انتابه يوم رحيل ضاحي. وحين وصل عقيل إلى حيث كان يقف الشيخان تناوله الشيخ مرشود بلهفة ودفنه في حضنه، وأغمض عينيه. كان السلوك غريباً وغير مألوف، حتى ان الشيخ سلامة لم يعد يدرك ما يراه، ولا ما الذي أصاب الشيخ مرشود..

في الحقيقة، إن الشيخ مرشود كان يبكي من دون صوت أو دموع. فعقيل، الذي كان من أنْبه صبيان الحصن، وأذكاهم، ها هو والده يخبره أن الأجانب سيرسلونه إلى القدس. صحيح، إن القدس ليست بعيدة، ولكن ما جدوى هذه المدرسة، التي انشأها المبشرون، قبل عدة سنوات، إذا كان أبناء البلدة سيغادرونها بعد أن ينتهي تعليمهم فيها؟! إستعاد الشيخ مرشود ملامح الجدة حنّه وتشاؤمها عندما جاء أول أجنبي إلى دير ورق، وما هي إلا أيام على وصوله حتى غادر ضاحي مع الأجنبي، ولم يعد..

مضى وقت طويل، والشيخ مرشود يحتضن الصبي عقيل بصمت، أما الشيخ سلامة فظل محدّقاً مشدوهاً في هذا المشهد، الذي لم يستطيع ادراك أسبابه. وحين عادوا،

بعد أن إنحرفت الشمس كثيراً نحو الغرب، علا صوت صراخ وجلبة، قرب طرف الحارة الشرقية من جهة البيادر.

لم يشهد أهالي الحصن، منذ سنوات طويلة، ما رآه الشيخ مرشود على أرض البيادر الشرقية في ذلك اليوم..

كان الآباء الثلاثة، نافوني وسميتس وغاريللو، بألبستهم الطويلة السوداء، ومعهم اثنان آخران من الرهبان الأجانب، الذين جاؤوا من البطريركية في القدس قبل أيام، يقفون عند آخر أرض البيادر، وبقربهم عدد من رجال عشيرة الشويرات، ويحيط بالجميع عدد كبير من عشيرة الشيحاني، مسلحين بالفؤوس والعصي والمعاول، وعلى رأسهم الشيخ برهوم، وبقربه الخوري عيّاد.

كان الآباء الثلاثة وضيوفهم يعاينون الأرض المقترحة لشرائها لصالح طائفة اللاتين، وذلك لبناء كنيسة ومدرسة بدلاً من الدير المستأجر منذ أن تأسست الإرسالية. وحين تناهى الخبر إلى الشيخ برهوم خرج راكضاً إلى أرض البيادر، يتبعه الخوري عيّاد وعدد من رجال عشيرة الشيحاني، مسلحين بما استطاعت أيديهم الوصول إليه من معدات الفلاحة. ولم يكن الخبر أقل سرعة في الوصول إلى رجال النويرات، الذين كان شيخهم سلامة برفقة الشيخ مرشود قرب البيادر.

تعالت الأصوات، وتطايرت التهم والشتائم صراخاً على ألسنة رجال آل الشيحاني وعلى رأسهم الشيخ برهوم، محذرين الرهبان الأجانب بأن لا إقامة لهم هنا، وأن أرض البيادر ليست للبيع. وحين وصل الشيخ مرشود والشيخ سلامة إلى حيث الأرض المختلف عليها إنحاز الشيخ سلامة إلى موقع الرهبان، الذين كانوا في حمايته معنوياً.

ولولا تدخل الشيخ مرشود الحازم، وإزاحته للشيخ برهوم ورجال آل الشيحاني جانباً، لوقع ما لا يُحمد عقباه.

صحيح ان هيبة الشيخ مرشود واحترام الجميع له منع المشكلة من التطور. وصحيح أيضاً ان مشكلة شراء المبشرين اللاتين الأجانب لجزء من أرض البيادر لم تكن مشكلة المبشرين الأولى مع عشيرة الشيحاني الأرثوذكس، إلا أن الحادثة كان لها ما بعدها على نحو ضجّت به حوران كلها بعد سنوات...

لم أنتبه أثناء جلساتي الطويلة مع خالي جريس إلى معرفته الدقيقة بجغرافية بلاد حوران الشامية إلا حين وصل إلى الحديث عن غابة «أم الخشب» في عنجرة. وحين سألته، مستغرباً، متى اكتسب تلك المعرفة، وكيف؟! أجابني، وقد أشرقت عيناه بربيع شديد الخضرة:

– كُنا شباب، «رُهبان دير، لا هَمّ دنيا، ولا عذاب آخره!».

في اليوم التالي، أيقظني خالي جريس قبل أن تخرج الشمس من بابها. وحين وصلنا إلى تلّة «أم الخشب» الجرداء أوقفني في أعلى مكان فيها، وطلب مني أن أحدّق في الأفق نحو الشمال. في البدء، لم أرَ شيئاً. وحين تسلل ضياء الشمس إلى أول الفجر، وبدأ ضباب الأفق الكثيف ينقشع عن الشمال شيئاً فشيئاً، حينها، اجتاح بصري مشهدٌ لم أرَ له مثيلاً في حياتي.

كانت قمة «حرمون»، أعلى قمم جبل الشيخ في لبنان، تملأ فضاء أُفق عنجرة الأزرق. بياضٌ من الثلج الهائل يتربع في مدى البصر. مشهد يسحب الروح والفجر إلى باحةٍ أخرى. وقبل أن تكمل الروح رحيلها نحو السماء كانت الشمس قد أكملت وصولها إلى آخر الفجر، فاختفى كل شيء، وتوحّد بياض الصبح ببياض ثلج حرمون البعيد، وجفّ الضياء البارد. شيء كأنه السحر بعينه.. فسحة من بياض جنة الروح، ثم تجفّ هكذا فجأة من دون استئذان، قبل أن تدرك ما الذي حدث..!

حين سألني خالي جريس عن معرفتي بأن مياه نهر الأردن المقدّس، التي عُمّد فيها السيد المسيح، تأتي من هناك، من ثلوج حرمون، لم أُدهش. وعندما فاجأني، ثانية، بقدرتي على تخيّل المشهد، فيما لو كانت قمة «أم الخشب» غابة كثيفة وشديدة الخضرة، أدركت لماذا كانت «أم الخشب» مسرحاً للحكايات الاسطورية والغامضة، التي كان يرويها لنا كبار السن في قريتي عنجرة..

لم يعرف أحد بالضبط، حتى الآن، من الذي أرشد الشركة الفرنسية، التي قامت بتنفيذ سكة حديد «الشام – مزيريب»، إلى غابة «أم الخشب» النادرة.

وعلى الرغم من أن هناك إشارات واضحة في أوراق البارون سيمونس عن استفادة الشركة من المبشرين اللاتين، الذين جابوا المنطقة كلها، وكتبوا ذلك في سجلاتهم، إلا أن وثائق الشركة تشير إلى معرفتها المتأخرة بأشجار «التشيرميثا» الكثيرة في غابة «أم الخشب». تلك الأشجار التي كانت تستخدم كأفضل أنواع الخشب لصناعة عوارض السكة الحديدية، وهو ما دفع الشركة أخيراً إلى قبول عرض الحكومة العثمانية وشروطها لإنشاء السكة الموصلة إلى عمق أراضي حوران..

كان صباحاً ليس كمثله صباح، حين استيقظ حطّابو عنجرة، ذات يـوم، وشاهدوا عمـــال الشركة الفرنسية ينصبـون خيامهـم على طرف غابة أم الخشب.

في ذلك الصباح البعيد بدأ حريق آخر في حياة عُقلة السعادة. فمنذ أن هَوَت أول شجرة في غابة أم الخشب استيقظ في عقلة حريق أشجار دير ورق كله، واشتعل فيه جنون الوحش مرة أخرى.

حين تحترق الأشجار تختفي الخضرة، وتسحب معها ظلال الحياة. صحيح انها تظل واقفة بعد حريقها وموتها، إلا أنه وقوف كوقوف الأشباح المحروقة. أما حين تُقطع فإن الحيــاة تُخلع من جذورهــا.. ويبقى الفــراغ وحده شاهداً على أن ثمة جريمــة وقعت هنا.

إرتجّت تلة رأس حوران حين بدأت أشجار أم الخشب تهوي. أما عقلة فقد تلبّسته شياطين الأرض.. ولم يعد يدري ما الذي أصابه منذ أن اشتعل في رأسه حريق الأشجار الثاني. فحين جاءت بعض نساء عنجرة، كالمعتاد، لجمع بعض الحطب من أم الخشب قام أفراد درك الحكومة الأربعة بطرد النساء، وهم الدرك الذين جاؤوا لحماية

عمال الشركة الفرنسية أثناء قطعهم لأشجار الغابة. لم يكتف الدرك بطرد نساء عنجرة فحسب، فحين اعترضت شتوة اليوسف على هذا الاجراء، وقامت برد شتيمة الدركي، هجم عليها دركي ورفيقه، وربطا قدميها بحبل شدّاه إلى سرج فرس أحدهم، ثم بدأ الدركيان بجرّها متجهين إلى البلدة، وبقية النساء يولولن ويصرخن، من دون أن تستطيع إحداهن فعل شيء.

في تلك الأثناء، كان عقلة قد غادر رأس حوران، ودخل غابة أم الخشب، لمعرفة ما يحدث عندما سمع أشجارها تهوي. وحين شاهد ما فعله الدركيان مع نساء القرية، حيث كانا قد وصلا إلى منعطف وادي الدير، وهما يجران شتوة اليوسف خلفهما، عندها، انقض كلمح البصر عليهما. وقبل أن يستطيع احدهما الوصول إلى سلاحه كان عقلة قد دقّ عنقيهما. ووسط دهشة النساء، وقبل أن يدركن ما الذي حدث، كان عقلة قد اختفى كالسراب..

لم يستطع عمال الشركة الفرنسية النوم في خيامهم تلك الليلة، فما إن خيّم الظلام حتى اقتنص عقلة الدركيّين الآخرين وقتلهما. ولم يقوَ العمال على البقاء تلك الليلة، فلملموا خيامهم ورحلوا إلى مركزهم في اربد.

توقفت أعمال الشركة في قطع أشجار أم الخشب منذ اليوم الأول، إلا أنها لم تنته. ففي اليوم التالي امتلأت عنجرة بالجندرمة والجنود الاتراك، بحثاً عن هذا الغريب القاتل، الذي تجرأ على جنود السلطة العلية. منذ ذلك اليوم تغيرت عنجرة، وتغيرت الحياة فيها، وتغيرت حياة عقلة الثانية.

بعد جولات طويلة من البحث والتحقيق في قريتي عنجرة وعجلون مع وجوه وأعيان القريتين استطاع الدرك معرفة أن عدوهم هو عقلة السعادة، الذي كان مطلوباً

للحكومة منذ زمن طويل. واستمرت مطاردات البحث عنه في القرية وأطرافها من دون جدوى. وحين تجرأت احدى مجموعات الدرك على التوغل بحثاً عنه في غابة أم الخشب، فإن نصف المجموعة قد عاد سالماً، بعد أن اصطادت نصفهم الآخر شباك عقلة وحُفره ورصاصه.

لأكثر من عام تقريباً ظلت الحكومة ترسل مجموعات من الدرك للبحث عن عقلة وقتله أو اعتقاله، لتمهيد الطريق أمام الشركة الفرنسية للبدء بمشروعها بقطع أشجار أم الخشب، الذي أخذته كامتياز تابع لتنفيذ سكة حديد «الشام – مزيريب». وطوال تلك الفترة لم يحدث أي تقدم في عمل الشركة، وظل الجنود يُقتلون بطرائق لا تخطر لأحد على بال. أما عقلة الشبح فقد صار بطلاً اسطورياً في قرى جبل عجلون كلها، وبدأ خيال الناس ينسج حكاياته الخاصة عن عقلة ومهاجمته للجنود الأتراك.

في إحدى المرات، وفي مطاردة قامت بها مجموعة كبيرة من الجنود، وبعد أن استطاع عقلة أن يقتل قائدهم وثلاثة من جنوده، لم ينتبه إلى أن المطاردة حصرته في منطقة مكشوفة بين غابة أم الخشب وقرية عنجرة، بعد أن أصابه أحدهم في ساقه. وحين أدرك عقلة ذلك لم يكن أمامه سوى الاندفاع بأقصى سرعة نحو البلدة، وتبعه الدرك، الذين تفاءلوا بالإمساك به. لم تتوقف فرس عقلة عند رأس العين، ولا انحرفت جنوباً نحو «عْراق ضاحي»، حيث يقيم المراشدة، كما توهم الجند، بل اندفعت نحو الحارة الغربية، حيث الخال طعمة وأخوال المراشدة.

لم يشأ خالي جريس، كعادته، أن يروي ظمأي ولهفتي مباشرة، لمعرفة ما الذي حدث مع عقلة، وكيف استطاع التخلص من الدرك وهو جريح في ذلك اليوم، وعاد ثانية إلى إعداد سيجارة هيشي جديدة ببطء وعلى مهل.

كان أهل عنجرة كلهم قد اخرجهم صوت الرصاص من بيوتهم. وعندما وصلت فرس عقلة إلى أول الحارة الغربية، وتباطأت في سيرها قليلاً، كانت شتوة اليوسف هي من تجرأت بسرعة، وشدّت لجام فرس عقلة الجريح، وادخلته إلى «حـوش» بيتها. ولم يكن من الصعـب عليهـا أن تخفي الفرس وعقلة في الكهـف الروماني الواسع، الذي يقع اسفل بيتهـا، وهو كهف يخفيه «العْراق» الصخـري الوعر في مدخل الحـارة الغربية.

مضت أسابيع وأشهر على تلك الحادثة، ذاق خلالها أهل عنجرة، مسلمين ومسيحيـن، عقوبات كثيرة من الدرك، في سبيـل الحصول على أي خبـر عن عقلة، ولكن بلا فائـدة. إذ لم يكـن أحد مـن أهـل القريـة يعـرف بمكان اختبائه سـوى شتـوة والخال طعمـة. في تلـك الفترة فقـط عاد عمال الشركة الفرنسـية،

واستطاعوا قطع وتحميل نصف اشجار غابة أم الخشب تقريباً من دون مقاومة من أحد. وفي تلك الفترة فقط تكوّن شيء خاص في حياة الأرملة شتوة اليوسف وطفلتها الوحيدة، اثناء اختباء عقلة السعادة في بيتها.

لم يكن جُرح عقلة خطيراً، ولكنه كان بحاجة إلى وقت كي يشفى تماماً. وحين إلتأم الجرح، بعد اكثر من شهر ونصف، وصار بإمكان عقلة أن يغادر بيت شتوة، كانت القرية ما تزال تعجّ بالجند، الذين يبحثون عنه، بعد أن فتشوا، في الأيام الأولى، بيوت عنجرة كلها..

تفتّح العطش في جسد شتوة اليوسف المتليء. أما روحها فقد حلّق فيها ضجيج الجمال البعيد، قبل زواجها، حين كانت صبية. صحيح ان أهلها كانوا غرباء في عنجرة،

أو «مقطوعين من شجرة»، كما كان يقول البعض من أهل القرية، إلا أنها كانت من أجمل صبايا الحارة الغربية. وحده والدها من تبقى من أهلها بعد وفاة أمها، وحين خطبها ساري السليم، وكُلِّلت عليه، صارت تشعر أنها لم تعد غريبة، وأن أهل القرية صاروا أهلها. ازدادت نضارتها بعد التكليل، وعندما مات والدها أصبح ساري هو كل أهلها. خمسة أعوام مضت على زواجها، لم ينغصه شيء سوى عدم انجابها، وإلحاح أهل ساري عليه، وسؤالهم الدائم عن «الخلْفة»..

لم يتغير شيء على هذا الحال، الذي كان يخففه وجود زوجها وحبه لها، إلا حين أُخذ ساري إلى العسكرية، بعد أن تغير نظام الملل للدولة، وصار يسمح لأبناء الديانات غير الإسلامية بالخدمة في وظائف الدولة.

رحل ساري عسكرياً إلى مكان بعيد، وانقطعت أخباره. وبعد أن مضى ما

يقارب السبعة شهور على رحيل ساري أنجبت شتوة ابنتها زينة، وهو ما غيّر حياتها إلى الأبد. اتهمها أهل زوجها بأن هذه الطفلة ليست ابنه لساري، ولاكتها الألسن التي لا ترحم، وتخلى عنها أهل زوجها.. وعادت من جديد غريبة، كما كانت..!!

كانت حجة أهل ساري انها لو كانت حاملاً من ابنهم فقد كان عليها إعلان ذلك بمجرد سفره، أما هي فكانت تقولا انها لم تكن تعرف حين رحل زوجها، هذا بالإضافة إلى أن زوجها لم يمت لكي تمر أمام الجميع من تحت نعشه إعلاناً لحملها..!

انقطعت اخبار ساري أعواماً طويلة، ولم تستطع البقاء في بيت أهل زوجها، فرحلت إلى الحارة الغربية مع ابنتها. لم يستطع أحد إثبات شيء على اتهام شتوة في شرفها، وساعد تدخل الخال طعمة وحمايته لها في أن تبدأ حياة جديدة، إلا أن الكثيرين ظلوا ينظرون إليها بشيء من الريبة. وبعد أعوام من رحيل ساري، وانقطاع أخباره، استطاعت شتوة تعلم حرفة «الوشم» من النور، الذين كانوا يجوبون القرى بين الحين والآخر. وخلال عام واحد فقط صارت تقصدها النساء من مختلف القرى والبلدات المجاورة.

كان «الوشم» من أهم أشكال الزينة عند النساء، خصوصاً العرائس والمقبلات على الزواج. وهي زينة مكلفة، لا تقدر عليها إلا نساء وبنات العائلات الموسرة، وهو ما جعل حياة شتوة وابنتها ممكنة، من دون أن تحتاج الى أحد من أهل القرية. وقد ساعد هذا إلى حد كبير، فضلاً عن قوة شخصيتها، في تخفيف حدة الكلام عنها، بعد أن تواترت الأخبار عن وفاة زوجها في احدى|

معارك الدولة.

ربما كان انقاذ عقلة لشتوة اليوسف من الدرك، حين جاؤوا برفقة الفرنسيين لقطع اشجار «التشيرمثيا» من غابة «أم الخشب»، هو ما جعلها تندفع نحو فرس عقلة وتجرها إلى بيتها. أما ما حدث بعد أن اقترب جرح ساقه من الشفاء فذلك شيء آخر، لا علاقة له بالوفاء أو برد الجميل..

قد تجفّ الانوثة والرغبة من جسد الأنثى لأسباب كثيرة، وقد تغادر الشهوة والغرائز جسد الرجل، لتتحول إلى صلابة وقسوة ملائمة لوحشة الحياة وخشونتها. أما

حين تتجاور الأجساد الحية، فإن متعة الحياة واشتهاءها تصبح اكثر حضوراً ويقظة من الحياة ذاتها. تماماً، كالأعشاب البرية، التي تجف أوراقها وتضمر عروقها في مواسم الجفاف، وما إن تتحسن رطوبة الهواء أو التراب حتى تستيقظ فيها جذور الحياة من جديد..

تفتحت غريزة الحياة في جسد الوحش، الذي ألزمه الحذر والأحوال شيئاً من الأُلفة لم يعتدها. أما الأنثى، فقد تشممت في الهواء رائحة غيث وفير، فاشتعلت في الجسد المحروم ينابيع الأرض ودفْقها.. فاكتملت في الأجساد طبائع الإنسان.

عطشُ الأجساد ونهمها تباريحٌ تقارب الحب وتفارقه بحثاً عن الحياة. وحين ترتوي الأجساد يبتعد الحب قليلاً، ليحلّ مكانه امتلاءٌ يبحث عن شقوق الروح العطشى. وما ان تسند شقوق الروح بعضها حتى تعود من جديد رحلة عطش الأجساد الظمأى بحثاً عن الحب والأرتواء..

في ليلة أفاق فيها الحبّ قبل أصحابه، اغتسلت شتوة اليوسف بماءٍ إنساب برقة على تفاصيل الجسد المهجور. في تلك الليلة، استيقظ في جسدها بهاء الانثى بكل يناعته. وفي لحظة لا تعرف شكلها غرق الجسد الجميل في حضن الوحش النائم، فأفاقت السماء في الجسدين، وغمر الأرض مطر ملهوف.. فارتوت الشقوق، ورحل الظمأ. وحدها شقوق الروح ظلّت تبحث عمّا يرويها، ويسند ما تكسّر على أطرافها...

إذ ان اغرب ما حدث ليلتها، وبعد أن تهالك الجسدان قرب اللحظة المسروقة، هو ان الغريبين انفجرا دفعة واحدة ببكاء صامت. ودفنت شتوة رأسها بشعرها المبلول في

حضن عقلة، وانساب ماء عينيها ساخناً على جسده. أما هو فقد تكوّر جسده الضخم حتى صار كأنه يدفن أطرافه في حضن أمه..!

في اليوم التالي، وقبل أن يستيقظ الصباح، كان كل شيء من الوحش، الذي فاض رقّة وعافية ليلة البارحة، قد اختفى. لم يبق منه شيء.. رحل الجسد ورحلت رائحته، واختفى عقلة.

لا تعرف شتوة اليوسف، التي افاقت في جسدها الحياة فجأة، ما الذي تبقى لها من عقلة سوى ذكرى تلك الليلة العابرة، التي ايقظت فيها ما كانت تظن أن الأيام أخذته ولن يعود. وحين تستعيد تفاصيل ما حدث، منذ أن دخل عقلة بيتها، فإن اليوم الذي دعاها فيه إلى وشم كتفه الأيسر يصبح أكثر الأشياء حضوراً حين تحسست جسده لأول مرة. لم يصدر منه أي صوت أو إحساس بالألم حين كانت تخز جسده بالابرة، لتنقش عليه نخلة باسقة يعلوها صليب، كما طلب منها. وحين عصبت الوشم بالعشب الاخضر، ثم أعادت كشفه وغسله بعد أيام، كانت النخلة والصليب ينضحان خضرة وجمالاً. في ذلك اليوم، أحسَّت أنها اقتربت من جسد الوحش اكثر من الأيام التي لامست فيها جسده حين كانت تعالج جرحه..

في اليوم التالي لرحيل عقلة من بيت شتوة، وجدت في حوش البيت غزالاً موثق القدمين واليدين، فأيقنت أنها هدية الوداع من عقلة. لفترة طويلة، لم يسمع أحد في عنجرة والبلدات المجاورة شيئاً عن عقلة. وحين تسرب خبر إقامته في بيت شتوة مترافقاً مع اختفائه منه، وشاهد البعض الغزال الذي تملكه شتوة، عاد حديث نساء القرية القديم يدور من جديد حول الأرملة الغريبة..

في تلك الفترة وما تلاها، تعرّت «أم الخشب» من كامل اشجارها، ولم يبق منها سوى القسم الشرقي، الذي لم تكن اشجاره تلائم حاجة الشركة الفرنسية. وامتدّت ألسنة سكة حديد «الشام – مزيريب» السوداء على عوارض اشجار غابة أم الخشب، وتوغّل الأجانب والسلطة في أراضي حوران أكثر.

لم تتوان الحكومة ورجال الدرك في البحث عن عقلة،وإن كانت أقل إلحاحاً في طلبه من الأشهر الأولى لإختفائه الأول، حتى بعد أن أنهت الشركة الفرنسية أعمالها في غابة أم الخشب.

أما عُقلة، فلا أحد يعرف بالضبط إلى أين ذهب. وتضاربت أقوال الناس والمراشدة حول ذلك. ففي الحصن، كان المراشدة يقولون أنه قطع «مخاضة الشريعة» غرباً، وفي عنجرة كان البعض يقول انه اتجه جنوباً. وحدها شتوة اليوسف ظلّت تشعر أنه في مكان قريب، وليس بعيداً كما يقولون، وحين كانت تكذب نفسها، كانت رائحة جسده، التي تعبق في صدرها، أقوى من كل القصص الجديدة التي تسمعها عنه..

ومضى عام آخر، قبل أن يسمع أحد من جديد شيئاً عن أخبار عقلة السعادة.وحين عادت أخباره تشغل الناس ثانية في الحصن وعنجرة وعجلون كانت أشياء كثيرة قد تغيرت في تلك القرى.

وعندما سمع الناس في عنجرة الخوري الايطالي الجديد «يوسف غاريللو»

يسأل عن عقلة،لأول مرة بعد أن انقطعت اخباره، كان ذلك أكثر الأشياء دهشة وغرابة وإثارة...!

«.. وأقام في الحصن ثلاثة أيام، يُكرِّز ويُتلمذ، وأخيراً، أعطى عظة رنّانة، ودوَّى صوته بتلك البلدة، وودّع الجميع محرّضاً إياهـم على الدخـول لحظيـرة الخـراف الناطقة (..!).

وقد خبّأ تلك الخميرة بذلك العجين، فبقيت شرارة تلك المحبة السامية مخبوءة، وصدى صوت الضمير يُردد على ذاكرة الجميع كلمات تلك العظة، التي دوّت في بريّة الحصن، إلى أن آن الأوان، وقيّض اللّه لها أوان الثمر، ودنا قطف عناقيد خيرها..».

– عظة الأب «جاتي» الأولى في الحصن 1875/ مخطوط كتاب «لمحة العيون...».

أعوام طويلة مضت على تأسيس الأب نافوني لإرسالية الحصن. لم تعد الأشياء كما كانت، تغيرت البلدة، وتغير الناس، حتى الأب نافوني، الذي كان يناديه أهالي الحصن «بُونا بطرس»، لم يعد كما كان. صحيح انه اجتاز عقبات وصعوبات كثيرة في السنوات الأولى، وحقق لرعيته في الحصن الكثير من الامتيازات والحقوق، حتى انه استطاع أن يحقق للطائفة تمثيلاً في المجلس الاداري الحاكم في إربد. وصحيح أيضاً انه استطاع شراء جزء من أرض البيادر لصالح الطائفة، بعد أن استطاع التحايل على القانون، الذي يمنع بيع الأرض للأجانب وتسجيلها بأسمائهم، وذلك حين تعاون مع البطريركية، واحضر راهباً لاتينياً عثمانياً من لبنان، وقام بتسجيل الأرض باسمه. على الرغم من كل

هذا، فقد ظل الأب نافوني يشعر ان أشياء كثيرة لم تتحقق بعد، كي ترسِّخ الطائفة جذورها في البلدة والقرى المجاورة لها، خصوصاً في عجلون وعنجرة. ترى ما الذي يجب أن يحدث كي تحمل الأجساد آمال أصحابها إلى آخر المشوار..؟!

لم يعد جسد «بونا بطرس» يحتمل اكثر، كما كان أيام الشقاء الأولى. حين مرض للمرة الأولى، في الفترة الأخيرة، تخيّل أنها نوبة برد وتمضي، ولكن حين عاوده وجع الامعاء ثانية أدرك أن هواء الحصن البارد لم يعد يلائم صحته.

عندما تضعف الأجساد، ويصيبها الوهن، فإن النفوس تهمد وترقُّ، ويستعيد المرء تفاصيل الأيام الماضية بشكل مختلف. تتداعى الصور والمشاهد كأنها تحدث الآن، وتسابق بعضها من دون ترتيب أزمان حدوثها. وفي لحظة ما، قد تختلط الصور ببعضها لتشكل رواية أخرى للأحداث لا علاقة لها بما حدث، ولكنها تحمل شيئاً من الحقيقة، على الأقل في نفس صاحبها ووجدانه.

تفتَّح الصُبح..

واستيقظت أسئلة المحبة في وجدان الأب نافوني، فأعادت بريّة الحصن في سمْعه صدى كلمات الرسول بولس: «ظهر في الجسد، تبرَّر في الروح، تراءى لملائكة، كُرِّز به بين الأمم، أُمِن به في العالم، ورُفع في المجد».

في تلك الساعة من صباح الأب نافوني الباكر تصاعد من أعماقه هاجسٌ بدا كأنه حلمٌ دفين: «أيمكن أن يعثر أحد بعدي، في برية هذه البلاد، على «الرُقوق»، التي رآها الرسول بولس، ودلَّته على سرِّ يسوع، فكرَّز به بين الأمم». ولم يُفق «بونا بطرس» من هاجس «الرقوق» إلا بعد أن صاح ديكٌ شقّ الفجر بصوته الحاد، فانفصل النهار عن ظلام ليلة البارحة الذي أنهك جسده الواهن،

وابتدأ يوم آخر من مرضه الطويل..

حضـرت في ذاكرة الأب نافوني ذكـرى الأب «جاتي» وعظتـه الأولى، حين جاء إلى الحصـن لأول مـرة من السلـط، بعد أن قصـدْته بعض عشائرهـا لحل مشكلة عويصة..

كان صباحاً غريباً، استيقظت فيه أيام الشقاء الأولى في وجدان الأب نافوني، حين أرسله البطريرك «برّاكو» من القدس إلى الحصن لأول مرة. هبَّت نسمة هواء باردة، وداعبت وجه الأب نافوني، ومـــلأت صدره، فعادت كلمات البطريرك ووصيته له، حين شيّعه، وكأنه يسمعها للمرة الأولى: «تذكّر أيها الأب، إنك ذاهب إلى رعية بسطاء وفقراء. والإيمان، يا بُني، لا يتحقق إلا إذا انبهرت العقول، عندها تخشع القلوب، وتكون مهيأة لسماع العظة وكلمات الرب. احْرص أيها الأب، أثناء تبشيرك، على ما يبهر العقول، خصوصاً في الأعياد والاحتفالات، وليباركك الربّ».

كان الأب «سميتس»، الذي رافق الأب نافوني في جزء من مراحل التبشير الأولى، يستمع إلى تداعيات رفيقه بعيون دامعة. وعندما قرر مؤسس إرسالية الحصن اللاتينية الذهاب إلى الناصرة للاستشفاء، وأوكل مهمة إدارة الرعية إلى رفيق دربه الهولندي الأب سميتس، أصاب رعيته من النويرات إحساس باليتم.

حين مات نافوني بعد رحيله إلى الناصرة بأشهر، ذهـب وفد من عشيرة النويـرات اللاتين، وعلى رأسهم الشيـخ أبو عقيل، لرؤيته للمـــرة الأخيرة، وعندما عادوا إلى الحصـن كانت البطريركيـة في القـدس قـد عينت الأب «سميتس»

رسمياً راعياً للطائفة بدلاً من الأب نافوني.

لم تكن مشاعر الشيخ برهوم وعشيرة الشيحاني بوفاة نافوني كما هي مشاعر النويرات. فالأعوام الطويلة الماضية، التي شهدت خصومات كبيرة بينهم وبين النويرات لم تنس بعد. وحين يتذكر الشيخ برهوم أن هذا الراهب الايطالي استطاع أن ينافسهم أخيراً، وينجح في الحصول على مقعد دائم لعشيرة النويرات اللاتين في المجلس الإداري، فإنه يشعر بغصة ومرارة يتحسس طعمها في حلقه.

في الحقيقة، إن ما شهدته الحصن في أيام نافوني لم يقتصر تأثيره في عشيرة النويرات فحسب. فالأيام الأولى، التي اتهم فيها آل الشيحاني المبشرين بأنهم جواسيس سياسيين لفرنسا وايطاليا، وهو ما ادى إلى سجن المعلمين الذين احضرهم المبشرون،وأُغلقت المدارس التي فتحوها بأمر من حاكم إربد، كل ذلك نبه الحكومة إلى ما يجري في الحصن من تدخلات غير مباشرة للحكومات الأجنبية. فحين أُغلقت المدارس التي افتتحتها إرسالية اللاتين، وكذلك الدير، لأكثر من مرة، فإن ذلك ادى إلى الاستعانة بالبطريركية في القدس، التي قامت بالمقابل بالاستعانة بقنصلي فرنسا وايطاليا في بيروت، لإعادة فتح المدارس، وهو ما انتهى بحصول طائفة اللاتين على رخصة من دائرة المعارف في الولاية بمدرسة للذكور وأخرى للإناث.

لم تكن النجاحات، التي كانت تحققها طائفة اللاتين في الحصن في المرحلة الأولى، تمر بسهولة، إذ كان يرافق ذلك مزيد من الإتهامات والشكايات. «وحين بدأ المبشرون بجمع التبرعات من اوروبا لبناء دير اللاتين، فإن عشيرة الشيحاني الارثوذكس استطاعوا الحصول على تبرع من سيدة روسية لبناء دير لهم...». وهو ما ادى إلى مزيد من المشكلات والتشكيك بين العشيرتين، فضلاً

عما رافق ذلك من انضمام لبعض العائلات الصغيرة إلى إحدى الطائفتين ثم انفصالها، كما حدث مع عائلة النواصير، الذين تركوا طائفة اللاتين واحضروا مبشراً بروتستانتياً وانشأوا مدرسة جديدة لأبنائهم.

تغيرت العشائر، وصارت طوائف. أما الشيخ مرشود فقد تدخل مرات كثيرة لحل المشكلات بين عشيرتي الشيحاني والنويرات، وقد نجح غير مرة في منع اكثر من مشكلة من التفاقم. «وحين أُغلق دير اللاتين، ذات مرة، نتيجة شكاية من الشيخ برهوم، وجاء الدرك وملؤوا البلدة، وقام أحد الدرك بإنزال جرس الدير وألقاه على المزبلة»، فإن الشيخ مرشود رأى في ذلك اساءة للبلدة كلها، وليس لطائفة اللاتين وحدهم. في تلك الأيام التي طالت، فإن الضرر والتضييق من الدرك قد مس كل أهل الحصن، وعلى رأسهم المراشدة، ولاسيما أثناء بحث الدرك عن عقلة، بعد أن بدأ يهاجم الدرك وعمال الشركة الفرنسية، التي بدأت بقطع اشجار غابة أم الخشب في عنجرة.

في تلك الأيام، التي ظل فيها دير اللاتين الوحيد مغلقاً، عصفت بالناس في الحصن مشاعر غريبة، وسرت بينهم اشاعات كثيرة..

حين تمعن القوة في قسوتها فإن الضعف والعجز في يقين الناس يبحث عن قوته الخاصة في اتجاه آخر. «في البدء، وحين بدأ البعض من عشيرة النويرات يتحدثون عن نور يظهر من نافذة الدير عند المساء فإن احداً لم يصدقهم». ثم تزايدت القصص عن نور الدير والأصوات الغريبة التي ترافقه، ولم يعد النويرات وحدهم من يرى هذا النور، بل انضم إليهم عدد من آل الشيحاني الارثوذكس، إلى أن وصل الأمر إلى عدد من المراشدة، الذين كانوا يقفون على الحياد بين الطرفين. وحين سمع الشيخ مرشود بذلك من أحد المراشدة،

لم يعجبه هذا الحديث، ولم يصدقه، حتى وصـل به الأمـر إلى التحدي. وهو ما دفع

الشيخ مرشود إلى حمل بارودته ذات يوم، والذهاب إلى الدير المغلق عند المساء، حيث كان قسم كبير من أهل البلدة يتجمعون قرب الدير. وعندما صرخ احدهم، مشيراً إلى نور يظهر من نافذة الدير، فإن الشيخ مرشود صوب بارودته نحو النافذة، وما إن اشتد النور وملأ فضاء النافذة حتى صرخ أحد المراشدة بأنه رأى وجه عقلة وسط نور الدير، فارتجفت يد الشيخ مرشود،وسرت برودة في ظهره، غير أن طلق البارود كان قد صم الآذان. وحين أفاق الشيخ، كان النور قد اختفى، فاندفع الشيخ نحو نافذة الدير، وتحسس اطرافها، وما إن أحس بالخدش الذي احدثه الطلق في طرف النافذة حتى غمره عرق بارد، وتراخت يده عن البارودة، واغمضت عيناه..

كيف يتوحد النور والقوة ليصيرا شيئاً واحداً يملأ مساحة أخرى من العجز في وجدان الناس؟! كيف ترتد الأشياء إلى أولها، بحثاً عن حياة أخرى، حين تستحيل الحياة في الأرض؟!

أما حقيقة النور، الذي كان يراه الناس في بعض الليالي، فقد كان نور القنديل الصغير، الذي يحمله أحد مساعدي الأب نافوني عندما كان يتسلل خلسة إلى الدير المغلق لإحضار غرض من غرفه المعتمة. وفي تلك الليلة، التي تجمع فيها الأهالي، لرؤية النور الذي يظهر في الدير، وأطلق فيها الشيخ مرشود رصاصة أصابت طرف النافذة، كان إثنان من الرهبان قد تسللا إلى الدير المغلق لإحضار بلاطة القداس. ولولا رحمة الرب لقتلت رصاصة الشيخ أحد هؤلاء الرهبان.

لم يستطع الأب نافوني، طوال فترة إقامته، أن يكسب أحداً من المراشدة في الحصـن إلى طائفـة اللاتيـن. وقد ظل الأب نافـوني يعانـي من صعوبـة في فهم حديـث الشيخ مرشود ومراميـــه. والحقيقــة ان المشكلة لم تكن في طريقة الشيخ

مرشود في الحديث، بل في وجدانه ويقينه، الذي كان يرى في الأب نافوني أجنبياً غريباً، وأن كل ما قام به هذا الرجل هو تفريق العشائر والعائلات في الحصن. أما حين كان الشيخ يتدخل في المشكلات الناشئة بين اللاتين والإرثوذكس، فإنه كان يرى ذلك تدخلاً بين عشائر بلدة واحدة، لا بين طوائف مختلفة، ومحاولة لإعادتها إلى ما كان يربطها ويوحدها...!!

لم يتوقف الشيخ مرشود عن محاولته للإصلاح بين النويرات وآل الشيحاني إلا بعد حادثة المقبرة. فبعد تلك الحادثة لم يعد الشيخ يرى فائدة في أية محاولة، ولا جدوى من أي تدخل، بل أصبح يشعر أن حوران كلها قد تغيرت، ولا أمل في محاولة إعادتها إلى الوراء، وأن زمنا جديداً ينتظرها على الأبواب..

«حين منع الروم الأرثوذكس، وهم آل الشيحاني، دفن أحد الأموات من طائفة اللاتين في مقبرة البلدة المسيحية،وأُخرج الميت بعد دفنه، بدعوى أن المقبرة لهم، قبل أن يتحول النويرات ويصبحوا لاتيناً، حينذاك، تمكن الأب نافوني، بالاستعانة بقنصل فرنسا في بيروت، من الحصول على إرادة سنية من الأستانة بتقسيم المقبرة بين اللاتين وبين الارثوذكس. ليس هذا فحسب، بل إن القائم مقام حضر بنفسه وقام بتسليم الإرادة لراعي طائفة اللاتين».

لم يكن تقسيم المقبرة، بالنسبة إلى الشيخ مرشود، حدثاً عادياً، أو مجرد مشكلة انتصر فيها النويرات على آل الشيحاني، بل شرخاً عميقاً وصلت أطرافه وشظاياه إلى الأموات، الذين لا يستطيع أحد أن يعيد تقسيم إيمانهم من جديد..!!

ما لم يستطع الأب نافوني إكماله في إرسالية الحصن، وخذله جسده في ايصاله إليه، فإن رفيق دربه الأب سميتس، بعمره الطويل، تكفل بإنجازه.

«وإذا كان الأب نافوني، في الأعوام الماضية، قد استطاع بعلاقاته الواسعة الحصول على رخصة من المعارف لإنشاء مدرستين للطائفة، وكذلك استطاع تسجيل أرض البيادر باسم أحد أبناء الطائفة الذي احضره من لبنان، فإن مسألة الحصول على رخصة لإنشاء كنيسة للطائفة في الحصن ظلت مسألة غاية في الصعوبة، على الرغم من المبالغ الكبيرة التي دفعها للمحامين ولموظفي الإدارة في ولاية سوريا».

كثيرة هي الزيارات التي قام بها الأب سميتس إلى اوروبا من أجل محاولة الحصول على رخصة بناء للكنيسة. وحين نجح في الحصول على إرادة سنية بالبناء من الباب العالي، عن طريق أحد اصدقائه الألمان، فقد شعر أنه استطاع تحقيق أهم أحلام الأب نافوني الذي رحل قبل أعوام.

ولم تمض أيام بناء كنيسة الحصن دون معوقات، فقد ظلت الشكاوى تتوالى على حاكم اربد من عشيرة الشيحاني، ما أدى إلى تواجد الدرك الدائم في البلدة أثناء بناء الكنيسة، وهو ما كان يعني للأب سميتس مزيداً من الرشاوى والليرات الذهبية، التي كان يدفعها لجنود الدرك بمناسبة ومن دون مناسبة.

صحيح ان الأب سميتس لم يبخل في الانفاق على أعمال البناء من التبرعات السخية، التي استطاع الحصول عليها في جولاته بين المؤمنين في اوروبا، إذ أوكل أمر تصميم بناء الكنيسة إلى أحد أمهر المعماريين من أصدقائه وهو الأب «باربريس»، إلا أن ما جعله يشعر براحة عميقة هو ما أنجزه الرسام الهولندي «كارتيس» من لوحات على سقف الكنيسة وجدرانها.

لم يكن كارتيس مجرد رسام عادي، وهو صديق للأب سميتس، بل كان مؤمناً حقيقياً، ويتمتع بذكاء وحسّ مميزين. في الأعوام الماضية، كان كارتيس على اتصال ومعرفة، عبر الرسائل، بما يحدث مع الأب سميتس في الحصن، وحين طلب منه المجيء لتزيين الكنيسة بلوحاته وألوانه المدهشة، فإن كارتيس ظل، طوال طريق رحلته الطويلة، يفكر كيف يجب أن تكون عليه لوحات كنيسة جديدة في الشرق الذي ولد وعاش فيه السيد المسيح، تليق بمستوى الصعوبات والمشاق، التي تحملها الأب سميتس ومن قبله الأب نافوني.

وحين وصل كارتيس إلى الحصن، وقام بجولة بين أهالي البلدة، خطرت له فكرة غاية في الذكاء والنباهة، وعندما فاتح بها الأب سميتس، شارحاً له أهميتها وتأثيرها على أفراد الرعية، فإن عيني الأب جحظتا دهشة وذهولاً. «لقد قرر كارتيس أن يرسم وجوه القديسين في لوحات جدران الكنيسة وأسقفها بملامح شرقية. بل وأكثر من ذلك فقد استخدم بعض وجوه أهل البلدة كنماذج

وموديـلات تحملهـا ملامـح القديسين والشهداء، التي احتلت جدران الكنيسة العريضة». وحين سأله الأب سميتس عن جدوى ذلك، فإن بريقاً خاصاً لمع في عيني كارتيس،وأخبره بأن ملامح القديسيين حين تكون مشابهة لملامح الرعية فإنهم يكونون أقرب إلى قلوبهم، وأكد له بأنه لو رسمها بملامح غربية فستظل هناك غربة نفسية تفصل بين الرعية وقديسيهم، وإحساس دائم يشعرهم بأنهم غرباء عنهم...!

كانت أكثر وجوه أهالي البلدة، التي أثارت انتباه كارتيس، وتمنى لو أنه يستطيع رسم ملامحه ونقلها إلى وجه القديس جورجيوس، هو الشيخ مرشود. إلا أن كارتيس حين فاتح الأب سميتس بذلك، فإن هذا حذره بشدة من طرح الموضوع على الشيخ مرشود، أو حتى إعادة التفكير فيه. وعلى الرغم من هذا، فقد ظلت ملامح الشيخ مرشود عالقة في وجدان وذهن كارتيس، وهو ما جعل ملامح الشيخ تتبعثر على معظم الخطوط والألوان لوجوه القديسين التي علت جدران الكنيسة.

وأخيراً دُشّنت كنيسة الحصن على اسم السيدة العذراء، وسميت «كنيسة الحبل بلا دنـس». أما لوحـات كارتـيس، التي زينـت جدرانهـا وأسقفهـا، فقد ظلـت ملامح القديسين الشرقية لوجوههم أقرب إلى قلـوب رعبة اللاتين في الحـصن..

* * *

ضاق صدر الشيخ مرشود كثيراً بعد تقسيم المقبرة في الحصن. وحين زاره الخال طعمه، وأحس بما يضج به صدر الشيخ، فإنه أصرّ عليه لمرافقته إلى عنجرة، وقضاء فترة عنده بعيداً عن مشكلات الحصن والمبشرين، وذلك لأن «هواء عنجرة يرد الروح» في هذه الأيام، كما قال الخال طعمة، لحث الشيخ مرشود على مرافقته.

وافق الشيخ بعد تمنع طويل على مرافقة الخال طعمة إلى عنجرة، غير أنه لم

يخطر بباله قط أن ما حدث في الحصن، وجعل الدنيا تسودّ في عينيه، سيلاحقه في عنجرة وكأن لعنة أصابته، فأوهنت جسده وهمته. صحيح انه في الأيام الأولى من وصوله لعنجرة تحسنت صحته، بفضل هوائها العليل، كما قدّر الخال طعمه، إلا أن صحة الشيخ ما لبثت أن انحرفت، وفترت همته من جديد، ودبّ الوهن في جسده مرة أخرى. وحين اقترح عليه الخال طعمة إحضار الأرملة شتوة اليوسف، لتقوم بحجامته، فإن الشيخ انتفض كالملدوغ، ورفض بشكل قاطع، على الرغم من كل ما سمعه من قصص عما حدث بينها وبين عقلة. وعندما حاول الخال طعمة ثانية مع الشيخ مرشود، مشيراً إلى أن شتوة ليست خبيرة في الوشم فحسب، بل في الحجامة أيضاً، فإن الشيخ مرشود قاطعه بتهكم واضح:

– «يا شايف الزول، يا خايب الرجا».

ثم أضاف بتوجس عميق، ومن دون أن ينتبه إلى محاولة الخال طعمة توضيح ما يقصد:

– هذي حُرْمة «تْوردك عالعين، وتْصدرك ظميان»!

وعلى الرغم من استغراب الخال طعمة لكلام الشيخ مرشود عن شتوة اليوسف إلا أنه لم يجد بُدّاً من الإرسال لدعوة «بُونا عساف» من السلط.

عندما جاء «بونا عساف»، في اليوم التالي، وقام بحجامة الشيخ بعد عدة أيام من وصوله، وذلك لأن الأيام التي «تُحمد فيها الحجامة» في نيسان، بحسب تقويم المراشدة، لم تكن قد حلت بعد، استطاع أن يخرج دماً فاسداً كثيراً من ظهر الشيخ، وهو ما أثار

استغراب الجميـــع بمن فيهم الشيخ مرشود. ولم تمض أيام على حجامة الشيخ حتى تحسنت صحتـــــه بشكـــل ملحـــوظ، وحين بـــدأ بالحركة والمشـــي في كـــروم الرمـــان والمشمش الغربيـــة للخـــال طعمـــة برفقـــة الخـــوري عساف فإن الشيخ بدأ يستعيد نضارة وجهه وقسماً كبيراً من عافيته التي أوهنها المرض. لم يعرف أحد تماماً سبب استعادة الشيخ لعافيته بهذه السرعة، وفيما إذا كانت بسبب الدماء الفاسدة الكثيرة التي اخرجها الخوري عساف من ظهر الشيخ، أم بسبب رؤيته لـ«بونا عساف» واستعادته لشيء من عافية روحه، التي كسرتها المشكلات الأخيرة في الحصن.. خصوصاً بعد تقسيم مقبرتها بين الطوائف المسيحية الجديدة فيها..!!

في الحقيقة، فإن الأيام المريحة للشيخ مرشود، والخالية من مشكلات العشائر والمبشرين الأجانب، لم تطل في عنجرة، إذ إن القرية ومعها عجلون كانت من الأماكن التي انتبه إليها الأب نافوني منذ أعوام طويلة، وبأنهما حلقة الوصل بين الحصن والسلط. ولهذا، فقد كان بين الحين والآخر يرسل أحداً من مساعديه للتواصل مع عشائر البلدتين المسيحية، وفي فترة لاحقة، أوكل مهمة العناية بتأسيس الارسالية في عجلون إلى الأب سميتس، وأوصاه أن لا يتسرع في ذلك، حتى يحين الوقت الملائم، ولا سيما ان مشكلات الطائفة في الحصن اخذت تتفاقم بشكل متسارع. وحين مات الأب نافوني، واستلم أمور الرعية الأب سميتس، ونجح في بناء كنيسة الحصن، فإنه رأى أن زمن التمهيد لإرساليتي عجلون وعنجرة قد انتهى، وان زمن البدء الفعلي لهاتين الإرساليتين قد حان بالفعل. وعندما قرر الأب سميتس تعيين من يخلفه للبدء بانطلاق إرساليتي عجلون وعنجرة التبشيريتين، لم يجد أكفأ من الخوري «يوسف غاريللو» لإيكال المهمة إليه، بعد أن اكتسب خبرة طويلة في طبائع الناس في هذه البلاد، وذلك أثناء مرافقته

الدائمة للأب سميتس، حين كان يقوم بقدّاسه في أيام الآحاد، في كل من عجلون وعنجرة.

قبل أن يصل الأب «غاريللو» إلى عجلون وعنجرة راعياً ومسؤولاً عن

إرساليتها بزمن طويل، وفي إحدى المرات، التي اوكل اليه الأب سميتس القيام بقداس الأحد في هاتين البلدتين، عرّج في الطريق على خربة «مار إلياس»، واستعاد وجدانه قصة صعود النبي الياس إلى السماء من هذا المكان. وحين ألقى بصره غرباً، لمعت الشمس على صفحة مياه المسيح المقدسة، وغشيت عيناه، وسرت في عروقه لهفة حقول «الرُعاة» على الطرف الآخر من النهر. عندها، امتلأ سمعه بصوت هاتف عميق: بأن أوان زراعة «كرم الربّ» في هذه البقعة من الأرض قد حان...

القسم الثالث

«أيها الأب سميتس، إنني كنت رجل حروب، كداوود. أما أنت فستكون مثل سليمان،وستبني بيتاً للرب،وستتغير أمور كثيرة، وستنمو كلمة الرب ثانية في هذه البلاد...»

– نبوءة الأب نافوني ووصيته للأب سميتس قبل وفاته/ مخطوط كتاب «لمحة العيون..»

حين عاد عقيل، ابن الشيخ سلامة النويرات، إلى الحصن للمرة الثانية، كان كل شيء في البلدة قد تغير بالنسبة إليه، وكان هو أيضاً قد تغير تماماً.

تعددت طوائف البلدة، فصارت عشائرها طوائف، وتعمقّت الخلافات بين عائلاتها وعشائرها، وأصبحت الحارة القبلية، التي يقيم فيها آل الشيحاني، مكاناً غريباً على النويرات، أهل عقيل. حتى التهنئة بالسلامة، التي تقتضيها علاقات القرابة والعادات بين النويرات وآل الشيحاني، إذ لم يأت احد من آل الشيحاني للسلام على ابن الشيخ سلامة. وحين سأل عقيل عن الشيخ مرشود، وقيل له انه رحل مؤخراً إلى عنجرة، بعد تقسيم المقبرة، أدرك ما آلت إليه أوضاع البلدة.

عندما أرسل الأب نافونـــي عقيلاً لدراسة اللاهوت في بطريركية اللاتين في القدس، فإنه كان يتوخى تحقيق ما أكد عليـــه البطريرك «برّاكو» من ضـــرورة

تأهيل رهبان لاتين عرب، لأنهم سيكونون أقدر من الرهبان الأجانب على كسب قلوب الرعية، خصوصاً في المراحل الأولى. «أما عقيل، الذي استهواه التعليم الأولي الذي تلقاه في مدرسة الدير في الحصن، فحين تلقفته البطريركية في القدس لتعليمه أول دروس اللاهوت الديني، فإن ذلك لم يرقه. وعلى الرغم من أنه في البداية أبدى مزيداً من النباهة، فتعلم الفرنسية والايطالية في وقت قصير، إلا أنه أظهر كسلاً ومللاً من الدروس الدينية على الرغم من محاولات البطريركية المتعددة معه. وفي النهاية حسم أمره بأنه لا يريد أن يدرس اللاهوت ولا أن يصبح راهباً، ما جعل البطريركية تحاول احتواءه مؤقتاً بإرساله إلى روما.

وهناك في روما درس الموسيقى، وأبدع فيها. وحين عاد ثانية إلى القدس، حاولت البطريركية مرة ثانية استمالته، وجعلته يُدّرس في إحدى مدارسها. ولم تفلح المحاولة الثانية للبطريركية مع عقيل، فعادت وأرسلته إلى فرنسا لإكمال دراسته. وهناك تغيرت إهتمامات عقيل تماماً، إذ انخرط كغيره من الشباب العرب في السياسة، وبدأ يكتب المقالات الصحفية المطالبة بتحرر العرب وانفصالهم عن تركيا».

لا أحد يعرف بالضبط ما الذي حدث مع عقيل أثناء وجوده في فرنسا، ولا كيف انحرف اهتمامه تماماً نحو السياسة، وضرورة مقاومة الأتراك بالتحالف مع «فرنسا الحرة»، وحين عاد إلى الحصن، قادماً إليها من القدس، التي وصلها عائداً من فرنسا بباخرة أوصلته إلى ميناء حيفا، كان دوار البحر ما يزال يوهن جسده النحل.

وبعد أيام من وصول عقيل، ومشاهدته ما آلت إليه أحوال البلدة، أصر على

الذهاب إلى عنجرة لزيارة الشيخ مرشود. وحين التقاه، طفح وجه الشيخ بشراً وأملاً، بعد أن ايقن أن النويرات قد فقدوا عن طريق الرهبان الأجانب واحداً من أنبه أبنائهم.

كان عقيل يتخيل أن أكثر من يمكن أن يتفهمه، ويدرك ما جاء به، هو الشيخ مرشود، بعد سنوات من الدراسة والغربة، وذلك بسبب معرفته بكره الشيخ مرشود الشديد للأتراك. وقد كان ما تخيله عقيل صحيحاً، لولا أن ما جاء به كان أغرب من الخيال بالنسبة الى الشيخ مرشود.

في الحقيقة، فإن الشيخ مرشود لم يفهم كل ما قاله عقيل، فهو لم يألف حديث السياسة. فعقيل، الذي كان متحمساً أثناء حديثه مع الشيخ، كان يستخدم كلمات يسمعها الشيخ لأول مرة، كـ «أمّنا الحرة فرنسا»، و«استعمار الاتراك للعرب»، و«تحرر العرب بمساعدة فرنسا».

كانت تلك العبارات، التي ذكرها عقيل، وإن بدت مفهومة للشيخ مرشود، إلا انها ظلت غريبة ومثيرة للتساؤلات. فالشيخ الذي لم يطق الرهبان لمجرد أنهم أجانب، كيف له أن يطيق التعامل مع أجانب آخرين يمثلون دولة أخرى..؟!

ولم يشأ الشيخ مرشود الاستمرار في سماع ما يقوله عقيل، فأخذه إلى طرف الحارة القبلية، حيث كانت تظهر تلة أم الخشب الجرداء في عنجرة. وروى له حكاية قطع الشركة الفرنسية لأشجارها بحماية الجنود الأتراك، وبأنهم منذ ذلك اليوم يطاردون عقلة، الذي قاوم قطعهم للأشجار. وعلى الرغم من أن الشيخ كان يروي الحكاية بشيء من الانفعال والحرقة، إلا ان عقيل الذي أثارته شخصية عقلة، وتمنى لو يتمكن من لقائه، لم يفهم كلام الشيخ مرشود، ولا ما كان يرمي إليه. وحين أدار الشيخ وجهه نحو عقيل، كان هذا ينظر بشرود

نحو الغرب، حيث كانت قلعة عجلون تملأ فضاء الافق. وعندما إنتبه عقيل إلى أن

الشيخ مرشود قد توقف عن الكلام، قال وكأنه يُقرر شيئاً:

– إن الأتراك في هذه البلاد كهذه القلعة الضخمة. ولا يمكن إزالتهم بمحاولات فردية، كما يفعل عقلة. ولا بد من مساعدة دولة كبرى كفرنسا الحرة..!

لم يبق شيء من البِشْر الذي أشرق في وجه الشيخ حين جاء عقيل، وعادت ملامح وجهة تغرق في تجاعيد جبينه ونظراته الشاردة. وحين أصرّ عقيل أن يسمع رأيه في الكلام الذي قاله، تنهد الشيخ بصوتٍ بدا كأنه يدخل إلى حلقه، أو كأنه يحدّث نفسه:

– إيه.. يا حسرتي: «عُقْبة خوري»!!

مشيراً بذلك إلى حكاية الشيطان والكاهن، التي يعرفها أهل عنجرة، والتي انتصر فيها الكاهن على الشيطان حين تلاه وركب على كتفيه، بعد مشوار طويل من الرحيل والمعاناة..

في ذلك النهـــــار البعيد، وأثناء وجود عقيل في عنجرة، كان الدرك الأتـــراك قد قلبوا بلدة الحصن رأساً على عقب بحثاً عنه، بناءً على أوامر جاءت من الآستانة.

لم تكن مداهمة الدرك الأتراك للحصن هذه المرة حدثاً عادياً، فالبلدة قد تعـودت مجـيء الدرك في السنوات الأخيرة، نتيجة المشكلات التي تفجـرت بـين عشيرتي النويـرات وآل الشيحاني بعـد وصـول الرهبـان الأجانب، وتأسيـس إرساليـة اللاتين، وتحول عشيرة النويرات بالكامل من الطـقس الرومـي الأرثوذكسـي إلى

الطقس اللاتيني. أما مجيء الدرك هذه المرة، بحثاً عن عقيل، فقد كان مدعّماً بعدد كبير من أفراد الجندرمة وبعض أفراد البوليس السري،

الذين كانوا عصبيين ومتجهمي الوجوه. ليس هذا فحسب ما جعل مجيء الدرك مختلفاً عمّا سبقه من مرات، بل لم يستثنوا أي بيت من بيوت البلدة، حتى بيوت آل الشيحاني الأرثوذكس لم يتم استثناؤها من التفتيش، وهم الذين كانوا على خصومة مع النويرات عشيرة عقيل. وحين انتهى التفتيش، من دون أن يعثر الدرك على عقيل، أصرّ مسؤول الدرك على أخذ الشيخين سلامة النويرات وبرهوم الشيحاني للتحقيق معهما في إربد. وهناك في مركز الحاكم كان الكلام الذي سمعه الشيخان غريباً، ما جعل ردود الشيخ برهوم تختلف، فالأمر لم يعد يتعلق بالرهبان الأجانب أو بطائفة اللاتين، بل بواحد من أبناء البلدة. وحين تحدث القائد عن جواسيس سياسيين لفرنسا في البلدة تغيرت ملامح الشيخ برهوم، ولمع في عينيه بريق غريب، وتشابكت نظراته بحوار خفي مع نظرات الشيخ سلامة، التي سكنها القلق، منذ اللحظة التي بدأ فيها القائد حديثه عن الجواسيس..!

وفي طريق عودة شيخي النويرات وآل الشيحاني من إربد إلى الحصن، بعد نهار طويل من القلق والخوف والإهانة، كان كل شيء قد صار واضحاً في ذهنيهما. وعند وصولهما إلى «تل الحصن» على مشارف البلدة، وقرب «عْراق البربارة»، كان صمت الشيخين الطويل قد وصل إلى منتهاه، ومن غير نقاش إتفقا على أن عقيل يجب أن لا يعود إلى الحصن، وإنه يجب تهريبه بسرعة من عنجرة إلى «ضفة الشريعة» الأخرى..!

***

استعد عقيل للسفر إلى الحصن في صباح اليوم التالي، بعد يومين قضاهما في زيــارة الشيــخ مرشود في عنجــرة، من دون أن يشعر انه استطاع إقناع الشيــخ بما جــاء مــن أجلــه مــن فرنســا. في تلك الاثــنــاء، وقبــل أن يصــل ليل عنجــرة إلى منتصفه، وصل خيّالان من الحصن إلى بيت الخال طعمة، وبسرعة انتقل الجميع إلى بيت الشيخ مرشود حيث كان عقيل.

تغيّرت ملامح عقيل حين سمع أخبار الحصن والدرك الذين جاؤوا للبحث عنه. كانت الرسالة التي حملها الخيّالان إلى الشيخ مرشود واضحة، ولا تحمل إلا معنى واحداً، وهو ضرورة تهريب عقيل بأسرع ما يمكن إلى أقرب طريق يوصله إلى حيفا. أما عقيل، الذي حاول في البدء أن يسأل ويناقش عمّا حدث في الحصن، فإن قرار الشيخ مرشود الصارم، الذي همس به في أذن الخال طعمة، لم يترك له مجالاً للإستمرار في تساؤلاته.

منذ وقت طويل لم يشعر الشيخ مرشود بقلق وخوف كهذا الذي يشعر به الآن على أحد. فبعد دير ورق وحريقها ورحيل المراشدة منها، وبعد أن أصبحت تلة أم الخشب قمة جرداء، عارية من أشجارها، وهو ما أدى إلى تشرد عقلة ثانية، نتيجة مطاردة الدرك له لحماية عمال الشركة الفرنسية أثناء قطعهم وتحميلهم اشجار غابة أم الخشب، بعد كل هذا، صار الخوف والقلق شيئاً عادياً ومألوفاً عند الشيخ مرشود. وعلى الرغم من كل هذا، فإن الشيخ عند وداعه لعقيل، برفقة عدد من رجال المراشدة والخال طعمة، ظل يشعر بشيء غريب غير الخوف والقلق. لقد أوصاهم بأن لا يسلكوا الطريق المألوفة إلى نهر الشريعة في هذا الليل، وألحّ عليهم على ضرورة السير بمحاذاة الطريق الموصلة إلى وادي الطواحين، وهي طريق وعرة، وتأخذ ضعف الوقت الذي يحتاجون إلى المخاضة. وهناك، كان على الخال طعمة ألا يعود قبل أن يضمن أن «الْمعدّية» قد قطعت

مخاضة الشريعة بعقيل إلى الضفة الأخرى. وحين لوّح صاحب «الْمعدّية» بالسراج ثلاث مرات على الضفة الأخرى من المخاضة، عاد الخال طعمة ورجال المراشدة، بعد أن اطمأنوا إلى أن عقيل وصل إلى بــرّ الأمان بعيداً عن رجال

درك الحكومة في جبل عجلون..

عندما وصل الخال طعمة إلى الحارة الغربية في عنجرة عند الفجر، الذي كانت تلوح خيوطه الأولى من فوق تلة أم الخشب الجرداء، كان الشيخ مرشود يجلس على الصخرة التي تشرف على الوادي الكبير، الذي يفصل بين عجلون وعنجرة، بعد أن هدّه السهر الطويل والتعب والترقب. في ذلك الصباح البارد، سرت في جسد الشيخ مرشود موجة دفء خفيفة، أعانته للوصول إلى البيت بمساعدة الخال طعمة، سرعان ما لبثت أن جفّت بسرعة، وحلّت مكانها قشعريرة برد حادة، ظلْت تسكن جسد الشيخ مرشود منذ ذلك الصباح البعيد..

كيف سارت الأشياء على هذا النحو؟ وكيف توقف العقل دفعة واحدة عن القدرة على فعل أي شيء؟ أين الاحساس بالقوة والاندفاع لتغيير كل الواقع الجديد الذي فرضه الاتراك في حوران؟! وكيف..؟!.. وكيف..؟!

كانت أسئلة القلق واليقين تنزّ كالعرق من مسام الجلد في عقيل أثناء عبور «الْمعدِّية» لمخاضة الشريعة. وحين غمرت ساقية مياه المخاضة، أثناء مرور القارب الصغير بين أشجار الدُّفلى الكثيفة، كانت الاسئلة تتحول إلى فقاعات من الزبد الأبيض تغمر سطح «المعدّية» وأجساد الرجال الذين يجدّفون بهمَّة للوصول إلى الضفة الأخرى..

عادت أسئلة الحقيقة تدق كنواقيس من جديد في وجدان عقيل ويقينه منذ اللحظة التي استقرت فيها قدماه على الضفة الغربية للمخاضة، بعيداً عن القلق والخوف اللذين اجتاحاه دفعة واحدة في تلك الليلة الأخيرة، التي لن يرى بعدها حوران، ولن يعود إليها أبداً..!؟

أفاقت الحصن وحاراتها وخاناتها وناسها في روح الغريب. وتغلغلت برودة الغربة في هواء النفس.

أيّ عمرٍ تسحبك الدنيا إليه؟ وكيف افترقت الأجراس عن مواقيتها، فما عادت تدقّ في عيد واحدٍ لمسيحيي هذا الشرق؟! كيف يموت يسوع في عشيرة ويقوم عند عشيرة أخرى في آن واحد؟! من غيَّر المواعيد والمواقيت والروح، فتشظت إلى أن صارت كأنها زجاج مهشم؟!

من أيقظ آلآم المسيح وموته في النويرات، حين كان آل الشيحاني يُهللون لإنبعاثه؟!

في مرفأ حيفا الصغير، أطلقت السفينة الانجليزية «روزانا» صفّارتها، فشق صوتها الجارح فجر حيفا ومروجها البعيدة إلى نصفين. وعلى أقصى طرف دفّة «روزانا» كان عقيل يعبُ بملء صدره آخر هواء الشرق في حوران. كل الوجوه حضرت، وتداخلت الملامح ببعضها، حتـى هواء الفجر القـادم من سهول «مرج ابن عامر» لم يستطع أن يفرّق ملامح الوجوه في عيني عقيل، اللتين غامتا بالندى الطري، فأكمل وصوله بارداً إلى الروح، ليصير حجاباً شفافاً من الدمع، تحمله السفينة «روزانا» إلى آخر الدنيا.. «إلى جبال الملح والقصدير..»، حيث تجفّ الأماني والأُغنيات.

أي قدر هذا الذي ألقاه في هذا اليوم على دفّة تلك السفينة؟! بل أية صدفة قذفته على ظهر روزانا..؟! تلك السفينة الانجليزية التي حملت القمح لحوران والشام وساحلها الطويل، بعد أن كاد الجوع يهلك أهلها قبل أكثر من ستين عاماً. فانغرس اسم روزانا، منذ ذلك القمح البعيد، غناءً بحرياً لنساء الساحل الشامي وسهوله. من أطلق في الروح غربة عصافير على سفن تهاجر نحو الشمال؟!

وسط تلك الوجوه والملامح، التي تدفقت كموج البحر على خيال عقيل، أثناء وقوفه على ظهر «روزانا»، كان وجه الشيخ مرشود أوضح الملامح. يخفيه الدمع حيناً بستار رقيق، ثم يعود وجه الشيخ بلحيته، التي لم يبق إلا القليل من سوادها، واضحاً حزيناً، يُزيح ضباب الصبح، ثم يعلو ويعلو إلى أن يقارب السماء، فتسيل على الوجه المعروق واللحية البيضاء ملامح القديسين البعيدة..

أبحرت السفينة «روزانا» وأمعنت في الغرب. أما الشمس فأكملت ضياءها، الذي تكسّر على بحر حيفا، ولم يبق من ذلك الصبح سوى صوت غناء بعيد:

«عالروزانا... عالروزانا كل الهَنا فيها،

شو عِمْلت الروزانا اللّه يجازيها..»

كان ضُحىً ليس كمْثلهِ ضُحى، حين وصل الراهب الايطالي «غاريللو» إلى عجلون، قادماً إليها من الحصن، ليتولى إرساليتها وحده هذه المرة. كأن كل شيء قد تغير في الطريق الموصلة إلى عجلون وعنجرة في عينيه، الاشجار صارت أشدّ خُضرة وكثافة، وأغصانها تتهدل على الأرض بحنوٍّ غريب. أما السماء، فاقتربت من الأرض أكثر، إلى حدّ أن الراهب كان يشعر، أحياناً، أنها تلامس وجهه وكتفيه حين كانت الفرس تعبر بعض الممرات المنحدرة المكشوفة، فيتغير مشْيها ليصير أقرب إلى الخبب. وحدها الأصوات الخفية ظلّت ترتفع وتعلو صمتاً عالياً، وهسيساً يحفُّ بالأشجار لا يقطعه سوى أصوات العصافير الشاردة حين تُحسّ بأنفاس الفرس اللاهثة، أو صوت جسدها وجسد الراهب عندما يحتكّان بأغصان الأشجار المتشابكة في منعطفات الطريق. وحين كانت حصى الطريق تتبعثر، مصدرة أصواتاً حادة تحت حوافر الفرس، فإن رفوف الحساسين والقّبرات، التي تفرّ فجأة من رائحة الغريب، الذي يقتحم هواء أعشاشها، تملأ المكان ببقايا الوحشة الجارحة، التي تسكن أحشاء الإنسان المملوء بالحذر والغربة

والمفاجأة..

كانت المسؤولية تجاه الربّ، ومحبة الناس والأرض والكائنات في هذه البلاد، هي ما يؤنس وحشة الراهب «يوسف» طوال الطريق. وحين أبصر من أعلى المنحدر الذي يطلُّ على عجلون أطراف «وادي الطواحين» تباطأت ضربات صدره قليلاً، وسرت في جسده موجة دفءٍ خفيفة. وبعد بُرهة قليلة فإن الفرس، التي بدت طوال ذلك الصباح وكأنها تعرف طريقها بكل انعطافاته وتعرجاته، توقفت على أعلى التلة التي تعلو بلدة عجلون تماماً. وهناك، كان المشهد ساحراً بحق، فاستعاد الراهب أنفاس المحبة كلها، وضجّت في جسده النحيل عزيمة الانبياء وهمّتهم. ففي حضن سلسلة الجبال المقابلة كانت بيوت عنجرة مزروعة كأنها موقد نار يتصاعد دخانه فيملأ الأفق. أما بيوت عجلون فكانت كلها في جوف السفح الذي يقف الراهب في أعلاه، فلا تلوح منها إلا بعض البيوت المتناثرة بعيداً، وبين البلدتين كان الوادي يتلوى بخضرته ووعورته الشديدة إلى آخر الغرب الطويل، حيث مياه النهر المقدسة. وعلى أطراف الجبال وقممها كانت بقايا الصباح تتناثر في الضحى غمامات من الغيم والبخار الابيض، لتنسحب وتختفي في النهار مُلملمة من جبال عجلون رداء الصباح الطويل..

مضت أيام وشهور على وصول الراهب «غاريللو» إلى عنجرة، استطاع خلالها أن يؤسس إرسالية في هاتين البلدتين بنجاح وسرعة كبيرين. ولم تتوقف نجاحات «بونا يوسف»، كما كان يناديه أهالي عنجرة، عند هذا الحد، بل استطاع افتتاح مدرسة للتلاميذ الصغار في عنجرة، انضم إليها عدد كبير من أبناء الرعية. «وبفضل المساعدة المادية ودعم الأب سميتس تمكن الراهب يوسف مـــن جلب كميات كبرة مـــن الهدايـا والملابـس والألعاب لتوزيعها على تلاميذ مدرسته في الأعياد والمناسبات، ما جعل عدد المنضمين مـــن العائلات إلى طائفـــة

اللاتين يزداد يوماً بعد يوم». وفي كل يوم كانت تنضم فيه عائلة إلى طقس الطائفة، سواء بإرسال إبنها إلى المدرسة أو بحضور قدّاس الأحد، فإن قلب «بونا يوسف» كان يتسع أكثر بالمحبة والاندفاع لاحتواء كل أهالي البلدة.

لم ينقطع الراهب «غاريللو» عن الذهاب إلى الحصن والتشاور مع الأب سميتس، بالرغم من انشغاله بتأسيس الإرسالية. وفي تلك الفترة استطاع أن يوثق علاقته برجال الحكم والدرك والإدارة في إربد، وهو ما جعله قادراً على التأثير في رجال الحكومة في كل ما يختص بمشكلات رعيته الاجتماعية وعلاقاتها مع العشائر الأخرى.

أثناء إقامة الراهب في الحصن، وقبل أن يتسلم رسمياً إرسالية عنجرة وعجلون، كان ملتزماً بما أوصى به الأب سميتس بضرورة عدم التبشير بين المراشدة، إذ كان يرى عدم وجود فائدة أو جدوى من ذلك. وعلى الرغم من التزام «بونا يوسف» بذلك في الحصن فإنه لم يكن مقتنعاً تماماً. وحين تحمل مسؤولية الإرسالية في عنجرة وعجلون فإن فكرة إجتذاب المراشدة إلى الطائفة عادت لتسيطر على وجدانه من جديد، لا سيما أن عدد المراشدة في عنجرة لا يستهان به.

كانت الأرملة شتوة من أوائل من التحق برعية الراهب «غاريللو» في عنجرة. وحين تزايدت الهدايا والمساعدات لأفراد الرعية، صار الراهب مستودعاً لأسرار رعيته واعترافاتهم وخطاياهم.

في واحد من مساءات عنجرة البعيدة قــررت شتــوة أن تتحـــلل من همومهـــا وما يثقل صدرهـــا بالإعتــراف إلى «بونـــا يوســف». وعندما جرى على لسانها اسم

«عقلة» استيقظ وجدان الراهب الايطالي بحدّة، واستعاد مشاهد رحلته الأولى كلها إلى هذه البلاد. وفجأة، لمعت في ذهنه فكرة عجيبة، ما لبثت أن تحولت إلى خدرٍ يقيني لذيذ سرى في كل بدنه. وبعد أن أكملت شتوة اليوسف اعترافها فإنها لم تعد وحدها التي تتشمم رائحة عقلة في جبل عجلون وجواره. في تلك الليلة نام الراهب بعمق وطمأنينة كما لم يحدث منذ أن وصل إلى هذه البلاد..

في اليوم التالي سافر الراهب إلى اربد، ولم يعد إلا آخر النهار. ثم تكررت زياراته إلى إربد والحصن في الأيام التالية، من غير أن يعرف أحد سبب تلك الزيارات، سوى أن الراهب يذهب لمراجعة القائم مقام ورجال الحكم الإداري. وبعد مضي اسبوعين على تلك الزيارات المتوالية حضر القائم مقام لزيارة الراهب في عنجرة، وبعد أيام تلتها زيارة لقائد الدرك، ما جعل الراهب «غاريللو» يزداد احتراماً ومهابة بين أهالي عنجرة وعجلون.. لم يمض سوى شهر واحد على زيارات رجال الحكومة للراهب في عنجرة حتى شاع بين المراشدة خبرٌ غريب، وما لبث أن تناقلته الألسن مع بعض الإضافات ووصلت به إلى المراشدة الذين يقيمون في الحصن. في البدء، لم يصدق المراشدة خبر عودة «عقلة» بسهولة إلا حين أكدته شتوة اليوسف ببعض التفاصيل. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل المراشدة يتوجسون من تلك الأخبار، أما حين أعلن الراهب «غاريللو» في قداس الأحد بأن

القائم مقام وقائد الدرك وعداه بالسماح لعقلة بالمجيء إلى البلدة ورؤية أهله وأقاربه، فإن قسماً كبيراً من المراشدة في عنجرة بدأوا يحضرون قداس «بونا يوسف» مع رعية اللاتين.

وحده الشيخ مرشود مع قلة من المراشدة لم يصدقوا ما كان يتداوله الناس

عن خبر العفو عن عقلة. وعندما أكدّ الخال طعمة للشيخ مرشود بأن الراهب غاريللو أخبره بنفسه بأن القائم مقام وعده بأن لا يتعرض لعقلة أحد من الدرك إذا جاء إلى عنجرة، حينها، ضاقت عينا الشيخ مرشود، وتنهد بحُرقة عميقة، وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:

– إيه... «ديك الخورية منقّش!؟».

وحين سأله الخال طعمة، مستغرباً ردة فعله، عما يقصده بكلامه هذا، فإن الشيخ مرشود إعتدل وروى له بتمهل حكاية «ديك الخورية».

«وهو أن خورية توفي زوجها الخوري، وبعد وفاته بأيام فإن زوجته قامت بتلوين وصبغ ريش أحد ديكتها بألوان زاهية، وأطلقته في البلدة. عندها إنشغل الناس بأخبار ديك الخورية وألوان ريشه الزاهية عن وفاة زوجها الخوري. وما إن مضى أربعون يوماً على وفاة الخوري حتى تزوجت زوجته، حينها تذكر الناس حكاية الديك، وقالوا: «ديك الخورية منقّش!».. وأدركوا ان «الديك المنقّش» كان لصرف إهتمامهم عن وفاة الخوري تمهيداً لزواج زوجته».

تزايدت الأخبار عن قرب مجيء عقلة، وتكاثرت أعداد المراشدة الذين يحضرون قداس الأحد عند الراهب «غاريللو»، وقلوبهم مملوءة بالنشوة والترقب انتظاراً لرؤية بطلهم، الذي تزايدت حوله قصص البطولة والاسطورة.

لم تكن تلك الأخبار تنتشر بين الناس بعفوية، فمن كان معنياً بمتابعة تلك الأخبار من المراشدة تبين له أن شتوة اليوسف أو الراهب غاريللو هما المصدران الوحيدان لتلك الأخبار. وحين كان أحد من المراشدة يردد احدى قصص شتوة اليوسف عن عقلة أمام الشيخ مرشود، فإن الشيخ يتوتر، ويعلّق بتهكم واضح:

– وشو عرّفها هذي الحُرمة، اللّي طول نهارها «من بيت إشْقع لبيت إرْقع»؟ هاي حُرمة «تْوردك عالعين وتْصدرك ظميان»!

وفي الحقيقة، فإن أحداً لا يعرف بالضبط ما الذي حدث بين شتوة اليوسف والراهب «غاريللو». أما ما كان يراه الناس في شوارع البلدة فهو أن شتوة تغيرت، وتغير كل شيء فيها، فازدادت نضارتها وعافيتها، وصار صوت الخلاخل المعلقة فوق كاحليها يُنبىء الجالسين بوصولها قبل رؤيتها.

لم يكن هذا وحده ما لاحظه أهل البلدة من تغيرات على شتوة اليوسف، فطريقة مشيها في شوارع البلدة وهي متلفعه بملاءتها حول جزء من جسدها فضلاً عن خطواتها التي كانت كأنها تغرسها في الأرض بتباطؤ مفتعل، كانت تثير اشمئزاز كبار السن وغرائز شبان البلدة. لم يكن شك الشيخ مرشود وتوجسه بعيداً عن الحقيقة. فعلى الرغم من اختلاف الأسباب والدوافع بين الخوري غاريللو وبين القائم مقام ورجال الحكومة، فإن النتيجة كانت بالنسبة إلى عقلة واحدة، وهي الخطر المبيت، وهو ما كان يخشاه الشيخ مرشود. فالخوري «يوسف» كان يهدف من وراء وساطته لعقلة بالمجيء

لعنجرة إلى كسب ود المراشدة ومحبتهم في عنجرة والحصن، وذلك من خلال الاقتراب من أهم شخصية لها أثرها عند المراشدة. أما القائم مقام وقائد الدرك، اللذان لم يكونا في وارد كل ما يفكّر به الراهب، فقد كانا يهدفان من وراء ذلك إلى كسب رضى المرسلين الأجانب، الذين تزايدت شكاواهم في السنوات الأخيرة عند والي سورية، ما أدى إلى تدخل قناصل بلادهم في بيروت لأكثر من مرة لحل تلك المشكلات. أما الدافع الآخر للقائم مقام فكان بهذه الطريقة يستطيـــــع أن يبعث الطمأنينـــــة في نفس عقلة، عندها فإنه وكما أراد الخوري يمكن أن يتحرك بلا تحفظ، وهو ما يمكّن القائم مقام من مراقبته بسهولة ورصد أماكن اختفائه، وبالتالي التمكن من القبض عليه حين يشاء، بصرف النظر عن تعهده الشفوي للراهب غاريللو، الذي يستطيع اتهامه إذا أبدى اعتراضاً بالتستر على مجرم مطلوب للسلطة العلية منذ زمن بعيد.

مضت أشهر، وصار أهل البلدة يشعرون بوجود عقلة في عنجرة من غير أن يراه أحد. وظلت شتوة اليوسف وحدها تروي قصصاً عن مجيئه في الليل إلى البلدة، أما الآخرون فإنهم يزيدون على تلك القصص ما يؤكدها ببعض التفاصيل التي تعيد نسبة رؤية عقلة إلى من يروي القصة.وحين يحاول السامع التثبت من دقة الوقائع بالمكان والتوقيت، فإن المتحدث يتهرب من أصل القصة ببعض الاضافات التي تجعل من عقلة كائناً أقرب إلى أبطال الاساطير منه إلى البشر.

وظلت عنجرة، في تلك الأيام، تقضي نهاراتها بالاستماع إلى قصص شتوة اليوسف، وإلى من انضم من عائلات المراشدة مجدداً إلى رعية الراهب «غاريللو». أما في الليل فإن حكايات عقلة القديمة، وما يتداوله الناس من أخبار جديدة عنه، هي ما يشغل

ليالي السهر لرجال المراشدة المتحلقين حول المواقد، توقياً للبرد الذي يتسلل إلى العظام من غرب عنجرة المفتوح على واديها العريض..

«يا ولدي، وأبتي، الراهب «جوزبّه غاريللو»..

لقد تعذّبت من أجلك كثيراً، فقد رأيت في الحلم

أن البدو يقتلونك. فأرجوك أن تشفق على والدتك

وتعود...» 3

شباط 1901

رسالة إلى الخوري غاريللو في عنجرة من والدته في ايطاليا / «من

مخطوط كتاب لمحة العيون...»

أخيراً نجح الخوري غاريللو، واستطاع تثبيت ممثل لرعيته في عجلون وعنجرة في الحكومة الإدارية. لم يكن ذلك بالأمر الهيّن، فقد بذل في سبيل ذلك الكثير من الذهب والليرات، التي ذهبت إلى جيوب رجال الحكم. وعلى الرغم من أن هذا النجاح كان حدثاً استثنائياً، وهو ما زاد من شعبية الراهب الايطالي في نفوس رعيته، إلا أن ذلك فتح أبواباً جديدة من الكره والبغض والخوف عند الكثيرين من أهالي عنجرة..! فهذا الراهب، الذي لم يمض على مجيئه إلى المنطقة سوى فترة قصيرة، استطاع أن يكتسب محبة قسم كبير من الأهالي. حتى المراشدة الذين لم يلتحق أحد منهم طوال السنوات

الماضية بأية رعية من رعايا الإرساليات التبشيرية، فقد تمكن هذا الراهب من الدخول إلى قلوب قسم منهم بطريقة لم تخطر لأحدٍ على بال.

«تزايد الهمس بين الرجال في عنجرة حول خطورة ترك الراهب الايطالي يفعل ما يريد، فلن يمضي وقت طويل عليه إلا ويكون قد نجح في استقطاب كل أهالي البلدة وحوّلهم إلى رعية اللاتين».

لم تتجاوز تلك الأصوات حدود الهمس، وحين كانت تلك الأصوات ترتفع أحياناً أمام الشيخ مرشود، وتتجاوز حدود الهمس، فإن الشيخ يبدي امتعاضاً واضحاً من هذه الأصوات، التي غالباً ما تكون مندفعة ومتهورة.

حين تعصف الأقدار بأصحابها، وحين يتزايد العصْفُ ليصير من كثرته عسْفاً، عندها تبدأ ملامح أزمان جديدة بالتشكّل. أزمانٌ ينسحب فيها الناس من أجسادهم وأرواحهم إلى مساحات كبيرة من الفوضى والانفلات من كل ما كان ثابتاً ومستقراً. وفي تلك المساحات تتشتت الأرواح والنفوس، وتنفلت الأجساد من عقالها عنيفة نحو حرية تندفع في فراغ تنعدم فيه الاوزان. ثم ما تلبث تلك الأجساد أن تتحول إلى هلام يفقد قوامه وشكله، عندها، تستيقظ فيما تبقى من تلك الأجساد حاجة البحث والحنين إلى أشكالها الأولى، فتصيبُ الكائنات حُمّى الأرواح التي تشظت عنها أجسادها. في تلك اللحظة المشدودة كالوتر، تتمزق الأرواح والنفوس والأجساد في رحلة البحث والتلاقي المستحيلة عن أشيائها الأولى، فيسود الإغتراب كلعنة محمومة تسكن الهواء كلّه. فلا الأرضُ أرضٌ، ولا السماءُ سماءٌ، ولا الأشياء المألوفة عادت تتكرر كما كانت تتكرر، فتصير الحياة بعدها غربةً لا تُطاق..

أحس الشيخ مرشود بنذر الخطر تتجمع في سماء عنجرة. لم يكن الشيخ قادراً على أن يحدد بالضبط طبيعة هذا الخطر أو ماهيته، غير أنه كان يتشمم رائحة «رياح سموم» قادمـــة تمـــلأ صـــدره، تماماً كما كان يتشمم رائحة الأنواء والمواسم في دير ورق.

كان حلماً وكابوساً عنيفاً هذا الذي هزَّ جسد الشيخ مرشود وروحه، فأيقظه مخضوضاً يملأ العرق جسده. وحين هدّأ الخال طعمة روع الشيخ، وعرف انه حلم بأن مياه وادي الطواحين قد تحولت إلى دماء حمراء، وارتفع منسوبها حتى وصل إلى شفا الوادي وأطرافه، حينها حاول الخال طعمة أن يُخفّف عنه بتفسير رؤية الدم في الحلم، قائلاً بصوت مرتفع:

– يا شيخ «إنْ سال الدم إفْترج الهمّ»!!

في اليوم التالي، أصرّ الشيخ مرشود على أن يذهب الخال طعمة بنفسه إلى الخوري غاريللو، لينقل إليه خوف الشيخ مرشود عليه، ووجوب أن ينتبه لنفسه أكثر، وأوصاه أيضاً بأن ينقل للراهب اقتراحاً لكي يخفف قليلاً من إندفاعة تبشيره بين أهالي عنجرة. وعندما عاد الخال طعمة بعد أن نقل رسالة الشيخ إلى الراهب ألحّ عليه الشيخ ثانية بأن لا يعود إلى البيت إلا بعد أن يجد وسيلة لإبلاغ عقلة بأن الشيخ مرشود يطلب منه أن يبتعد عن عنجرة هذه الأيام ولفترة طويلة.

لم يطمئن الشيخ إلا بعد أن تأكّد أن الخال طعمة أوصل رسالتيه إلى الراهب غاريللو وإلى عقلة. عندها، بدأت ملامح الدم الأحمر الذي رآه في حلمه تتغير قليلاً، وظلّ القلق والتوجس يخالطان مياه وادي الطواحين، التي بلّلت حلم الشيخ مرشود وواقعه ببرودة التخوف العميق والرهبة من كل ما هو قادم...

* * *

تأثّر الراهب يوسف كثيراً برسالة الشيخ مرشود، وحين زاره ليفهم منه أكثر فإنه لم يظفر منه بأكثر مما نقله له الخال طعمة. في تلك الأيام، وبعد رسالة الشيخ مرشود، «كان الراهب قد تلقى رسالة أخرى من والدته في ايطاليا ترجوه فيه أن يعود خوفاً عليه بسبب حلم رأته في منامها قبل أيام».

صحيح ان رسالتي المحبة بالخوف عليه، اللتين تلقاهما الخوري من الشيخ مرشود ووالدته لم تغيّرا شيئاً من يقينه، إلا أنهما أثارتا فيه شيئاً من وجوب توقي الحذر. فقرر أن يقيم في الأيام القادمة في الحصن، وأن لا يأتي إلى عجلون وعنجرة إلا في يوم الأحد ليقيم قدّاسيه فيهما، أو عند الضرورة، وذلك حتى تنقضي موجة الخوف عليه التي اجتاحت محبيه فجأة، وأخرجت شخصاً كالشيخ مرشود عن طوره، وهو ليس من رعيته، ليقوم بتحذيره وتنبيهه خوفاً عليه..

وجاء الأحد الثاني من شهر شباط، واستيقظ الصباح باكراً في ذلك النهار، وشدَّ الراهب يوسف رحاله من الحصن إلى عجلون ليقيم قدّاسيه في رعيته هناك.

في ذلك الوقت، وبحسب التوقيت المسيحي الشرقي للأيام، كانت الشمس تغادر آخر أيام برج «الدلو»، تاركةً وراءها كل مواقيت «ليالي السعود» وأيامها. وهي ليالي يسود فيها اعتقاد بين مسيحيي الشرق «بأن الآمال فيها تقطع أعناق الرجال..».

وفي هذا اليوم، 9 شباط، وبحسب توقيت المسيحيين الشرقي، الذي يقوم على ترقب الأنواء والمواسم «يبدأ فصل الربيع»، بعد أن يكون قد سبقه بأيام «نوء

سعد بلع». ولا يمضي اسبوع واحد على (9 شباط) حتى «تسقط الجمرة الثانيــة» و«يجــري المــاء في العــود»، و«يسخــن الهــواء» قليــلاً، و«تخــرج الخيــل إلى المرعى». وما هي إلا أيام بعد هذا حتى يصبح الهواء ملائماً لموسم يسميه مسيحيو الشرق بموسم «حركة البراغيث وخروج الذئاب»..!!؟

بارداً كان صباح الخوري يوسف في ذلك اليوم، إلا أنه استعان عليه بايمانه ومحبته للناس و«بفروة بغدادية» اشتراها من الحصن قبل شهر.

قُبيل ساعة من الضُحى كان الراهب قد وصل إلى عجلون، وأنْهى قداس رعيته فيها، واعتلى فرسه ثانية متوجهاً صوب عنجرة، حيث قدّاسه الثاني ليوم الأحد.

لم يكن البرد قد غادر صباح عجلون بعد، وظلّت الشمس بصعوبة تتسلل إلى الأرض، التي تحجبها عنها أغصان الأشجار المتشابكة والكثيفة. واجتازت فرس الراهب قنطرة وادي الطواحين الصغيرة، وصارت عنجرة تقترب من خطى الفرس أكثر. وفجأة، أطلّت العتمة من بين الأشجار، وشقّ الصمت صوت البارود، فعلا صهيل الفرس مذعوراً كأنه صراخ ما لبث أن تحول إلى نحيب مكتوم بعد أن شبّت الفرس على قائمتيها، فأسقطت جسد «بونا يوسف» على الأرض.

مات الراهب يوسف في نفس اللحظة، وارتوت الأرض الغريبة، التي أحبها، بدم الغريب، الذي لم يستطع الوصول إلى قدّاس رعيته الثاني. هل تحرّكت البراغيث قبل أن تأتي أيامها؟.. هل خرجت الذئاب من أوكارها قبل موعدها؟! لا أحد يعرف

بالضبط.. ولم يُتح لأحد أن يعرف الحقيقة، فقد طغت اشياءُ كثيرة على مقتل الخوري. ولم يعد بمقدور أحد أن يعيد الامساك بخيوط الحقيقة..

حين تأخّـر الراهـب عن موعـد قدّاسه في عنجرة كثيراً، ومضـت ساعات على ذلك، وهو ما لم يحدث منذ أن جاء إلى هذه المنطقة، دبّ الخوف والقلق في قلوب رعيته. فخرج جمع من الرجال بحثاً عنه في الطريق الموصلة إلى عجلون، وفي الطريق وُجد من قال انه سمع صوت طلق ناري في الصباح، فازداد خوف الرجال، وزادوا من سرعة مسير خيلهم. وحين وصلوا إلى قنطرة وادي الطواحين كان مشهد الخوري الغارق في دمه، وفرسه تدور حوله وبقربه، يُسمّر الأبدان.

استطاع الرجال نقل الخوري إلى عنجرة، وعند الظهر كان الخيّال الذي أرسلوه إلى الحصن قد أوصل الخبر إلى الأب سميتس: قُتل «بونا يوسف»..! فاشتعلت أسلاك البرق...

«في دير الحصن تطايرت البرقيات بمقتل الراهب «يوسف غاريللو» إلى كل الجهات، فوصلت إلى البطريركية اللاتينية في القدس، وإلى قنصل فرنسا في الشام، وإلى والي سوريا ومتصرف حوران، وإلى الجنرال الايطالي في مرفأ بيروت..»

عند العصر، كان جثمان الخوري قد وصل إلى دير الحصن، فدقّت الأجراس حزينة كما لم تفعل من قبل. وامتلأ الهواء كآبة وحزناً معجوناً بالخوف والقلق. وعندما حلّ المساء، وجاء طبيب الحكومة، تبين أن الراهب أصيب بطلقة جِفْت مزدوجة دخلت من أعلى ظهره وخرجت من عنقه فأردته قتيلاً في الحال.

«في اليوم الرابع لمقتل الراهب غاريللو دُفن في قبو دير الحصن»، وكان أول جسد يُدفن في هذا الدير. وتحول جسد الراهب الغريب، الذي دفن في أرض غريبة، إلى جسد مقدس في قبر مقدس، لا يُفتح إلا لتفوح منه رائحة المحبة المقدسة على وقع نواقيس الدير وأجراسه الحزينة..

... «شام – قنصلاتو فرانسا الفخيمة..

قُتل اليوم عمداً المرسل الرسولي ما بين

عجلون وعنجرة.

أُبرق بأمر خوري الحصن»

... «بيروت – شام/ جنرال إيتاليا

الفخيمة.. قُتل عمداً ما بين عجلون

وعنجرة الخوري يوسف غاريللو،

المرسل. أخبرنا سعادتكم.

أُبرق بأمر خوري الحصن»

مخطوط كتاب «لمحة العيون..»

لم يعد جبل عجلون ولا حتى حوران كلها كما كانت بعد مقتل الراهب غاريللو. فبعد دفنه بأيام وصل إلى الحصن قنصل فرنسا وجنرال ايطاليا العسكري والمرسل الروحي لبطريركية اللاتين في القدس، وكذلك متصرف حوران ووالي سوريا وعدد كبير من رجال الحكومة والدرك. كانت وجوهاً يراها الناس في بلداتهم لأول مرة. أما أغرب ما في الأمر فهو ما لاحظه الناس من هلع على وجوه رجال الحكومة الأتراك وحركتهم وهم يرافقون هؤلاء الأجانب في الانتقال من الحصن إلى عجلون وعنجرة. لم يكن الهلع والخوف وحده

ما لاحظه الناس على وجوه رجال الحكومة، فأثناء التحقيق بين الناس تعرض متصرف حوران ووالي سوريا إلى الإهانة أكثر من مرة من هؤلاء الأجانب من دون أن ينطق أحد منهم بحرف واحد.

في الأيام الأولى لمقتل الراهب الايطالي انتشرت اشاعات كثيرة حول القاتل، وأنه من قطاع الطرق. ثم ما لبثت هذه الإشاعات أن تبخّرت لتحل محلها شكوك حول بعض الرجال الأتراك التابعين لخصوم متصرف حوران بهدف توريطه والايقاع بينه وبين المرسلين الأجانب ومن ثم عزله.

في الاسبوع التالي اختفت شتوة اليوسف من عنجرة، ولم يرها أحد بعد ذلك اليوم الذي جاء فيه الدرك وأخذوها. وفجأة، انتشر بين الناس خبرٌ غريب لم يصدقه أحد في البداية «وهو أن عقلة السعادة هو قاتل الخوري يوسف، وذلك لأنه كان يريد الزواج من الأرملة شتوة، أما هي فكانت ترفض الزواج منه سراً، وفي العلن فإنها كانت تداريه خوفاً منه، وتتمنع في الزواج متحججة بأن الراهب يوسف يرفض تكليلهما، وأن عقلة قتله انتقاماً لرفضه زواجه من شتوة، التي أصبحت من رعيته اللاتينية، حيث كانت تخشى غضب عقلة إن هي اعلنت رفضها له، فلجأت إلى «بونا يوسف» لحمايتها...!؟»

. في البداية لم يصدق أحد من أهالي جبل عجلون، ولا سيما أهالي عنجرة، شيئاً من تلك القصة. وحين جاء الدرك إلى عنجرة بحثاً عن عقلة فإن المتشككين صاروا أقرب إلى التصديق.أما الذين يعرفون قصة انقاذ عقلة للراهب عند مجيئه إلى المنطقة، لأول

مرة، فقد ظلوا غير مصدقين لكل ما يقال، وعلى الرغم من هذا، فقد منعهم الخوف وتزايد رجال الدرك من الجهر بما كانوا يظنونه.

* * *

باختفاء شتوة اليوسف من عنجرة بشكل غريب ومفاجئ، وبرحيل الراهب غاريللو عن هذه الدنيا بالموت، فإن أخبار عقلة اختفت من بلدات جبل عجلون... وتحول عقلة السعادة من جديد إلى سراب. وما ان مضى شهر على تزايد بحث قوات الدرك عن عقلة في كل مكان في جبل عجلون حتى ترسخ عند الكثيرين أن قاتل الراهب هو عقلة. وحده الشيخ مرشود ومعه الخال طعمة وقلة من المراشدة لم يصدقوا على الاطلاق كل ما كان يقال عن قتل عقلة للخوري يوسف.

للغياب وجود بحجم الحضور أحياناً. فبغياب عقلة واختفاؤه، وبتزايد الخوف، الذي احدثته مداهمات رجال الدرك الكثيرة لبلدات جبل عجلون، فإن الناس، ولا سيما المراشدة، عادوا لاستعادة صورة عقلة القديمة وبطولاته الاسطورية في مقاومة رجال الدرك عند مجيء الشركة الفرنسية لقطع أشجار «أم الخشب».

لم يتوانَ رجال الدرك في بحثهم ومداهماتهم، ولم تتوقف القصص والأخبار حول عقلة عن المجيء إلى جبل عجلون من بعيد. وهي أخبار تزيد وتنقص بحسب طبيعة المجالس والمشاركين فيها، «فمنها ما يقول أنه قطع مخاضة الشريعة إلى الضفة الأخرى، وان الناس هناك يرفضون مساعدته خوفاً من المسؤولية وتبعاتها». ومنها ما يقول بأنه فرَّ إلى الجنوب والصحراء. وهي أخبار لا يحتاج أصحابها إلى كثير من الجهد لإعادة حبكها وصياغتها لتصبح أكثر تماسكاً واقناعاً للسامعين.

ليست حياة الناس وحدها هي التي تغيرت في جبل عجلون بعد مقتل الراهب غاريللو، فالناس الذين خضّتهم بعنف حادثة القتل لم يعد بالنسبة إليهم «وادي الطواحين» سوى الوادي الذي قُتل فيه الخوري. ومع الأيام انسحب من ذاكرة الناس اسم «وادي الطواحين» وحل محلّه اسم «وادي الخوري».

تراجع كثير من الناس، وخصوصاً من المراشدة، الذين التحقوا بطائفة اللاتين وعادوا إلى طقوسهم الأولى. فهؤلاء كان قسم كبير منهم قد التحق بالطائفة محبة بالخوري يوسف لطيب معشره ودماثه خلقه.

في أحد الأيام، التي انتشرت فيها بين الناس شائعة قتل عقلة للراهب بقوة، فوجىء الشيخ مرشود بمجيء الشيخ سلامة النويرات لزيارته. في الحقيقة إنها لم تكن زيارة بالمعنى التقليدي للزيارة بقدر ما كانت امتحاناً نفسياً ووجدانياً عسيراً للرجلين. فالخوري غاريللو كان بالنسبة إلى الشيخ سلامة اكثر من مجرد خوري عادي، فطيبته ومحبته للناس ونقاء سريرته فاضت على أفراد رعيته في بلدات جبل عجلون كلها، وتجاوزتها إلى من هم من غير طائفة اللاتين. لقد كان «بونا يوسف» داعية ومبشراً حقيقياً بمحبة الربّ والإنسان، فتعلق الناس به اكثر من أي مبشر آخر وصل إلى هذه الديار. هذا التعلق هو ما جعل مصرعه بتلك الطريقة البشعة يهزّ الشيخ سلامة النويرات من أعماقه. أما اتهام عقلة السعادة بقتل الراهب غاريللو فقد جعل المصاب مضاعفاً، إذ إن الشيخ سلامة يعرف ما الذي يعنيه عقلة بالنسبة إلى الشيخ مرشود والمراشدة، وهو بالضبط ما جعله يتجشم عناء السفر إلى عنجرة في تلك الظروف العصيبة.

صحيح ان الإشاعة حين تتبناها الحكومة ورجال الدرك تتحول إلى تهمة، ومع الزمن تقترب في يقين الناس من الحقيقة، غير انه ولسبب ما فقد ظل يقين الشيخ سلامة ووجدانه قلقاً متشككاً، حول صحة الاتهام بقتل عقلة للراهب الايطالي.

لم يتيقن الشيـخ سلامة من شكوكـه تماماً بعد زيارته للشيخ مرشود في عنجرة، غير أنه وجد لدى شيخ المراشدة يقيناً مطلقاً، من دون أدلة ثابتة، على أن عقلة لا يمكن أن يقدم على قتل الراهب. أما ما جعل الشيخ سلامة يقترب اكثر من قناعة الشيخ مرشود فهو ما أثاره الشيخ من اسئلة وتساؤلات تجعل من اتهام عقلة بالقتل أمراً ساقطاً من أساسه.

أين شتوة اليوسف التي يُقال على لسانها كل ما يقال؟! لم نسمع قبل هذا بأن عقلة يفكّر في الزواج، وإذا فكر فيه ألم يجد غير تلك الأرملة؟ ثم كيف يفكّر في الزواج وهو مطلوب للدرك ومحكوم عليه بالاعدام؟ ولماذا يفكر عقلة بقتل الراهب الأجنبي وهو من أنقذ حياته حين جاء إلى هذه البلاد لأول مرة؟! كلها أسئلة لا أحد يملك الإجابة عنها. أسئلة معلقة على غياب أصحابها، ولا تقوم إلا بغيابهم.

وحين تساءل الشيخ مرشود عن عقيل، وعن غيابه، واتهامه من قبل رجال الحكومة الذي لم يستطع أحد أن يفعل شيئاً إزاءه، سوى تهريبه إلى ضفة الشريعة الاخرى، عندها عادت أسئلة الشك في كل ما يقال عن عقلة تستقيم من جديد في ذهن الشيخ سلامة. فانحرفت في يقينه الأخبار والأحداث حول مقتل الراهب والبحث عن عقلة عن مسارها الذي تجري فيه، وعادت قصة عقيل بكل ضغطها العاطفي تطغى على وجدان الشيخ سلامة، «لا سيما ان عقيلا انقطعت اخباره منذ سنوات، ولا يعرف أحد

بالضبط أين هو، وهل عاد إلى فلسطين أم هاجر إلى فرنسا، فآخر رسالة وصلت منه وهو في روما قبل عام إلى والدته، لم تشر إلى شيء سوى انه سيعمل في التجارة».

وعلى الرغم من أن تلك الزيارة لم تنه هواجس الشيخ سلامة تماماً إلا أنها أراحته كثيراً، وخصوصاً عندما شعر بالشكل الودود والمحبب، الذي تحدث فيه الشيخ مرشود عن الراهب غاريللو، وهي أول مرة يتحدث فيها شيخ المراشدة عن واحد من المبشرين الأجانب بتلك الطريقة. هذا الحب والتأثر الواضح، اللذان لاحظهما على وجه الشيخ مرشود أسفاً على مقتل الراهب الايطالي، هو ما جعل الشيخ سلامة يمتلئُ صدقاً بكل ما قاله شيخ المراشدة الجليل.

* * *

مضت شهور طويلة على مقتل الراهب وبحث الدرك عن عقلة في كل مكان بلا جدوى. وحين أدرك متصرف حوران عدم جدوى البحث بهذه الطريقة عرض مكافأة مالية كبيرة لمن يساعد الحكومة في القبض على عقلة. ولم يمض شهر واحد على إعلان المكافأة حتى فوجيء أهالي جبل عجلون «بخبر يقول ان إحدى العربان المقيمة قرب غور مخاضة الشريعة قد قبضوا على شخص يُعتقد أنه عقلة السعادة..!؟»

وقع الخبر كالصاعقة على الشيخ مرشود والمراشدة. وبعد أيام قيل ان عقلة الذي قبض عليه سُلِّم إلى الدرك ونقل إلى الحصن، فتقاطرت الوفود إليها. «وجاء قنصلا فرنسا وايطاليا إلى البلدة، وحضر جنرال ايطالي آخر إلى الحصن، وجاء متصرف حوران ووالي سورية ثانية، واختلفوا على من هو الأحق بمعاقبة القاتل الذي كان محكوماً عليه سلفاً». فقنصل ايطاليا والجنرال البحري، الذي جاء من بيروت، يدّعي الحق، بذلك نظراً لجنسية الراهب المقتول الايطالية. أما قنصل فرنسا فكان يدّعي انه أحق بذلك لأن القاتل

مسيحي، وأن فرنسا هي المخولة بالحماية والمسؤولية عن مسيحيي الشرق، وفق نظام الملل الجديد، الذي أُتفق بشأنه مع الحكومة التركية. وعندما ذكّره القنصل الايطالي بأن هذا يسري فقط على المسيحيين الأجانب في أراضي الدولة العثمانية، فإن القنصل الفرنسي أجاب بثقة غريبة بأن هذا كان عندما أصدرت الحكومة قانون نظام الملل قبل أعوام طويلة، أما الآن فإن هناك اتفاقاً داخلياً بين حكومة فرنسا والحكومة العثمانية بأن يشمل كل المسيحيين في أراضيها. وانتهى الخلاف.

أخيراً بين القنصلين الأجنبيين بأن معاقبة القاتل المسيحي هي من حق القنصل الفرنسي، ولم ينبس متصرف حوران ووالي سوريا ببنت شفة..!!

كان هذا الخلاف، الذي نشب بين القنصلين، وما تلاه عن تبعية مسيحيي الشرق لفرنسا قد انتشر بين الأهالي كالنار في الهشيم.

لم يفهم كثير من الناس دلالة كل ما كان يقال، أما الشيخ سلامة النويرات فقد دارت الدنيا في عينيه حين سمع هذا الكلام، وأدرك أن التبشير لم يكن مجرد تحول من طقس إلى طقس، وأن الإرساليات لم تكن مجرد مدارس وهدايا ومساعدات، وأن المبشرين الأجانب، الذين كانوا يجوبون البلاد بطولها وعرضها، طوال العقود الماضية، لم يكونوا يتحركون بمفردهم وإنما تقف ورائهم دول وحكومات أجنبية.

كان الشيخ سلامة قد حسر رأسه وهو يتداعى بكل تلك المفاجآت أمام الشيخ مرشود، الذي جاء إلى الحصن بعد خبر إلقاء القبض على عقلة. لم يكن شيخ المراشدة بحالة تسمح له بالتخفيف عن شيخ النويرات، إلا أن صوته جاء عميقاً مهدوداً متهالكاً، وكأنه يحدث نفسه:

– يا حسرتي، قُلْتها من يوم ما إجى البطرك يوسف على هالبلاد: «شياطين ديرتنا ولا ملايكة بلاد جُوَّى»..!!

لم يتمكن أحد من المراشدة أو غيرهم، على الرغم من محاولات كثيرة، أن يشاهد عقلة، الذي قيل انه تم القبض عليه قرب مخاضة الشريعة، وأُحيل أمر محاكمته ومعاقبته إلى الفرنسيين. وظل كل ما يعرفه المراشدة عن عقلة ومحاكمته هو ما يتداوله الناس من شائعات وأخبار.

بعد أيام من إحالة عقلة إلى الفرنسيين قيل انه تم الحكم عليه بالسجن المؤبد. وفي اليوم التالي لهذا الخبر قيل انه مات في السجن، ولم يعرف أحد كيف حدث ذلك، وسرت بين الناس البسطاء قصص كثيرة وعجيبة عن موت عقلة. «ومن هذه القصص أن عينه التي صوب بها البندقية نحو الراهب يوسف قد خرجت من رأسه وتجمّدت»، وغير ذلك من التفاصيل، التي يبتدعها الخيال الشعبي، عادة، ليملأ بها الفراغ الذي يخلفه دوماً غياب الحقيقة عن الناس.

أما ما رآه الناس فعلاً بعد إعلان الدرك موت عقلة فهو كيس كبير قيل ان فيه جثة عقلة. وقد ربطت الجثة الموضوعة داخل كيس إلى سرج حصان يركبه أحد أفراد الدرك بحضور القنصل الفرنسي ورجال الحكومة.

وطافت الجثة المسحولة شوارع بلدة الحصن، والدرك يحفّون بها، وسط وجوم الأهالي، الذين لم يروا مشهداً كهذامن قبل. وفي النهاية لم تدفن الجثة في أية مقبرة من مقابر الحصن، بل سحبها الدرك إلى خارج البلدة حيث «طريق الصخر»، الذي يقطع «وادي الورّان» في الشرق. وهناك، قرب شجرة البلوط الوحيدة على طريق الصخر، حفر الجند حفرة كبيرة، وطمروا الجثة فيها، وأهالوا عليها التراب والحصى، الذي يتواجد بكثرة على تلك الطريق.

على طريق الصخر، الذي يوصل إلى دير ورق في الشرق، دُفن عقلة السعادة وحده، بعد أن حكم عليه الفرنسيون أن يموت غريباً كما عاش غريباً. وقد أخبرني خالي جريس أن والده الخال طعمة اخبره انه لم تمض سوى أيام حتى تحول قبر عقلة إلى «رُجم» كبير من الحجارة يلوح من بعيد لكل القادمين على طريق الصخر. أما الأمر الغريب، الذي أكده خالي جريس، فهو ان الخيل المارة على تلك الطريق كانت عندما تقترب من قبر عقلة تجفل وتتمنع، وحين يصرُّ راكبها على السير فإنها تصهل وتقف على قوائمها. ومع مرور الأيام، وتكرار تمنع الخيل عن السير عند الاقتراب من قبر عقلة، فإن الناس صاروا يقولون تعبيراً عن المهابة والخوف:

- «مِثلْ رِجِيف الخيل عند قبر عقلة»..!!

انحرفـت طريق العابرين لطريق الصخر قليلاً عن قبر عقلة، بسبب ما كان يصيـب الخيـل من «رجفـة» وتمنع عند الاقتراب من هناك. وهو ما جعل المكان أكثر عزلة وهدوءاً، وصار الناس يأتون من أمكنة بعيدة إلى هذا المكان، وكل لأسبابه الخاصة، يربطون أقمشة ملونة على فروع شجرة البلوط الوحيدة. لم يكن كل القادمين يعرفون تماماً

قصة هذا المكان، فدوافعهم للمجيء كانت خليطاً بين الرغبة في التبرك أو النذر أو الدعاء لطلب إنجاب الذكــور.

أما الشيخ مرشود، فبعد دفن عقلة وحيداً على طريق الصخر، فقد صمت، ولم يُحدّث أحداً، وقيل انه صام عن الكلام. تداعت وجوه الأحبة على وجدان الشيخ وتداخلت صورهم: الجدة حنه، ضاحي السعادة، الخوري عساف، عقيل، عقلة، الراهب غاريللو وغيرهم. كانت الوجوه تزاحم بعضها بعضاً على مخيلة الشيخ، الذي أمعنت فيه السنون.

الغربة كانت أوضح الأشياء، وأكثرها حضوراً، ثم ما لبثت أن طغت على كل الصور، ولم تبق سوى وجوه ثلاثة وحّدتها غربة الاختفاء: عقلة وعقيل والراهب غاريللو. أما الأرواح، التي تشتت وتشظت، فلا أحد يعرف في أي التجاويف البعيدة سكنت وغابت بعد أن غادرت أصحابها.

بعد أيام من دفن عقلة اختفى الشيخ مرشود، ولم يعرف أحد إلى أين ذهب، وهل بقي حياً أم لا. ترددت قصص كثيرة حول اختفاء الشيخ، كما هي عادة الناس حين تغيب الحقيقة، أما أكثر القصص، التي يرويها المراشدة ويؤمنون بها، فهي انه ركب فرسه، وانطلق يعدو بها نحو الشرق باتجاه دير ورق على طريق الصخر. ويقول المراشدة أيضاً، ان فرس الشيخ مرشود حين مرّت بقرب قبر عقلة فإنها لم تجفل ولم تتمنع، بل توقفت ودارت حول القبر مرتين، ثم انطلقت ثانية نحو الشرق على طريق الصخر. وفي اليوم التالي، وُجدت فرس الشيخ مرشود ميتة، من دون أن يكون جسدها مصاباً بأي أذى، تحت شجرة البلوط التي تظلل قبر عقلة.

لم يعرف أحد من المراشدة أين ذهب الشيخ مرشود، أو إلى أين قادته فرسه، التي عادت ثانية لتموت قرب قبر عقلة.

أما أنا فقد عرفت أسباب تسمية الأمكنة القديمة في قريتي التي ولدت فيها.

وصارت أسماء: عراق ضاحي، وأم الخشب، ووادي الخوري، تعني بالنسبة لي

غير ما كانت تعنيه سابقاً من مواطن ومساكن للكائنات الاسطورية في الحكايا التي ترويها الجدات في بلدتي. وأدركت أيضاً لماذا أصرّت زوجة أخي، وفي مطلع القرن الحادي والعشرين، على تسمية طفلها الجميل بهذا الإسم المملوء خشونة ووحشة وبرّية: عقلة...

توضيح.. وملاحظة

هذه القصة مستوحاه من حادثة مقتل راهب إيطالي في شمالي الأردن في مطلع القرن العشرين. ومخطوط كتاب لمحة العيون هو وثيقة محفوظة في البطريركية اللاتينية في القدس. وشخصيات عقلة وعقيل والراهب غاريللو هي شخصيات وجدت تاريخياً. والتقويم الوارد في الرواية، وكذلك المواسم والأنواء والأبراج والأعياد، هي بحسم التقويم الشرقي المسيحي. أما بقية شخوص الرواية وأحداثها وتفاصيلها ومصادرها ومراجعها فهي محض خيال من الكاتب.

D E I R W A R A Q





دَيْر وَرَق

هبّت رياح الشرق على المراشدة ، وفرّخ الطير .

من أفلت البعير من عقاله في موسم هياجه ؟! .. من أطلق في الرجال سعار الإبل ؟! أيّة غوليّة تلك الّتي تفجّرت زبداً ورغاءً على مشافرها حين عُقرت النوق فعجّت وعجّ الرجال ؟! من قضّ مضاجع الطير ، فرحّلت أعشاشها ؟! من أطلق في الشرق والناس كلّ هذا الخراب ؟!

صار الغناء حزيناً ، مرّاً ، دماً أسود يفيض بالأحداق ، وغامت الدنيا فاشتعل في الأرواح غضب أسود . انسعر الرجال ، وصارت الرؤوس مواقد محمولةً على الأكتاف ، وغاب العقل .

وحدها الجدّة حنّة رأت ما تريد ، بعد أن عمي بصرها ، فحين أُخبِرَت بخطف رشيدة اشتعلت ، حمحمت ، ثمّ صارت رماداً ، وفجأةً استيقظت في جسدها الواهن شياطين الأرض ، وغادرت بيتها وفي يدها سيف مشرع استدلّت على مكان تعليقه ، في الحائط ، بقلبها .

ISBN 9953-36-778-7

